فصل المقال
في
فلسفة النشوء والارتقاء

وضعه

الفيلسوف الالمانى الشهير

ارنست هيكل

ونقله الى العربية

حسن حسين

الطبعة الثانية

١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م

بعض مافي هذا الكتاب

عنى مؤلف الكتاب بمسألة خلق العالم وتدرجه من حال الى حال حتى صار على ماهو عليه وجعل يبحث فى تسلسل الموجودات بعضها من بعض — وخضوعها جميعها لناموس التطور فآخر عالم الجماد يتصل باول عالم النبات وآخر هذه باول عالم الحيوان الى أن يصل الى الصفوف العالية ثم الانسان . وهو يقول بان العالم قطع ملايين السنين حتى صارت هذه حاله مستشهدا بما جاءنا به علم الحفريات وكذا علم طبقات الارض فبحثه من هذه الناحية علمى محض

وفيه مقدمة للمترجم تدفع الوهم القائل بان الدين يقف حجر عثرة فى طريق العلم الحديث معززة بادلة واستشهادات من الكتب المقدسة ومذاهب العرب واراءهم فى التطور وسبقهم اهل الغرب فى هذا الباب

وفيه صور هياكل عظمية للقردة الراقية والانسان وصور جنينية لها ايضا فى الحالات الاولى. وشجرة تبين تسلسل المخلوقات بعضها من بعض من احطها الى ارقاها . وجماجم وصور الانسان من نصف مليون سنة

مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبد العزيز الصدر

بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام بمصر

فصل المقال
في
فلسفة النشوء والارتقاء

وضعه

الفيلسوف الالماني الشهير

ارنست هيكل

ونقله الى العربية

حسن حسين

١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م

مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبد العزيز الصدر
بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للمترجم

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

يدور الفلك دورته ، وتتعاقب الأيام والأعوام ، وتجرى الحوادث بما شاءت الأقدار ، والناس يغامرون فى ميدان الحياة يتنازعون البقاء — يود كل منهم لو أتيح له أن يعمر إلى ماشاء الله أن يبقى هذا العالم .

وما مثل هذا الوجود إلا كمثل مسرح أعده القدر وجهزه بجهازه — فكان مشاعاً لكل ممثل، تعرض عليه المخلوقات يمثل كل منهم دوره ، فمنهم الحظيظ الذى أتقن تمثيل دوره وسعى للبر سعيه (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) فكان من الموفقين ، وخلد فى التاريخ مع الخالدين — بما كان له من نافع الآثار وقيم الأعمال . ومنهم من تخطاه الحظ ، وكتب له القدر فى لوحه آية النحس فكان من المتعسين ، فى حياته الدنيا — حتى إذا ماتبدل نور شمسه بظلمة رمسه، ذهب ذهاب أمس الدابر ، وكان من التاريخ غفلا وكان نسيا منسيا .

على حين أن آثار الخلق — تالدها ومحدثها — تختلف باختلاف أقدارهم، وتتباين بتباين ماهياتهم الادراكية، وما كان لهم من عوامل كونية وفواعل ذات أثر فيهم . ولما كانت هذه العوامل متغايرة متباينة — بتغاير البيآت

R. UNIV. BIBLIOTHEEK LEIDEN

وتباين الظروف والحالات ، وما يحوط المخلوق من المؤثرات ، وما يحمله إليه الزمن من عوامل الوراثة ـ كان لابد أن يقع التمايز بين إنسان وإنسان ، وهى سنة الخالق فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والتاريخ يحدثنا — حديث الصراحة والصدق — فيظهر الأخلاف على سير الأسلاف . فلولا تتبع الناس سير من تقدمهم، وتشييدهم الجديد الطريف على أنقاض القديم الدارس ، ولولا ما يبقى عليه الدهر من تراث الغابرين وآثار السالفين، ما تخيلنا سالف ماعبره الزمن من العصور المتعاقبة إلا عصر فطحل[1] ، وما قام للحضارة العصرية قائم .

ولعل نضج عقول الحكماء بآثار الفكر الانسانى أبقى وأنفع ما فى هذا الوجود — لأنها تبدد من ظلماته وترفع من شأن مدنيته، وتقلل الشقاء وتبعث فيه روح السعادة والهناء . ولعل هذا ماحدا بالمعربين والمترجمين، ان ينقلوا مستملح ما جادت به قرائح المتكلمين بغير لغاتهم ، ومستحسن ما ألفوا وصنفوا من ممتع التواليف وقيم الكتب، فعمدوا إلى إحياء لغاتهم وكانوا واسطة التفهم وحلقة الاتصال بين جيل وجيل، وشعب وشعب، وقربوا بين الأمم المختلفة وقبائل هذا العالم المتباينة ، فانتظمت حلقات الوجود ، واتسقت الحياة الفكرية ، واستقامت مظاهر الانسانية ، واتسعت دائرة المعارف، ومنطقة المدنية، وكان الخير شاملا والهناء عاما .

نقول : ولولا تعريب المعربين وترجمة المترجمين — ماتهيأ للغربيين أن يشيدوا مدنيتهم التى تبهر عقولنا، ويأخذ بهرجها أبصارنا — على أنقاض

(١) ليس فيه مخلوقات

المدنية الشرقية ، ولا تهيأ لأهل أوروبا أن ينتفعوا بالآداب اليونانية ، والفلسفة اليونانية، والعلوم اليونانية . والتاريخ يشهد بأن العرب كانوا حلقة الوصل بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة الأوروبية الحديثة — وأنهم تناولوا بيمينهم آثار اليونان، وما لبثوا أن سلموها بيسارهم إلى الغربيين

فاذا كانت الأمة العربية مدينة لأولئك الذين نقلوها بترجمة أقصى ما بلغ إليه العقل اليونانى من أدب وحكمة وعلم وفلسفة — إذا كانت مدينة لأمثال جرجيس بن بختيشوع ، ويوحنا بن موسويه ، وحنين بن إسحاق ، ويوحنا البطريق ، وثابت بن قرة ، وعبد الله بن المقفع — ولمن أمدوهم بالمال وأعانوهم بكل مايمكنهم من القيام بواجبهم هذا — من الخلفاء أمثال أبى جعفر المنصور، والرشيد — ثم الخليفة السابع عبد الله المأمون . فان أوروبا ستبقى مدى الدهر مدينة للعرب الذين توسطوا بين آثار العقل اليونانى القديم والأوروبى الحديث، وستبقى أيضاً تذكر بالخير اسم قسطنطين الأفريقى ، وجيراز الكرمونى ، والاشبيلى ، وسمعان الجنوى ، وميخائيل سكوت الانكليزى، وأشباه هؤلاء ممن عنوا بنقل كتب العرب، إلى لغات الغرب ، وتذكر إلى جانبهم من ملوك أوروبا من شجعهم وجهزهم بالمال للمضى فى سبيلهم هذه ، أمثال ـ الفونس ملك فشتالة وفردريك الثانى صاحب المانيا وإيطاليا .

ففضل الترجمة والتعريب أشهر من أن نبرهنه أو ندل عليه ، بيد أن آثار الناس تتفاوت ، ويختلف بعضها عن بعض، وما آراؤهم إلا جماع فكر منها المؤتلف والمختلف ، والصائب والخائب ، ومنها ما هو فج سفساف

يعلوه طلاء خلاب كاليلمع (١)، أو (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء). ومنها ماينفع الناس يتوارثونه خلفاً عن سلف، ويبقى فى الأرض.

ذلك شأن منتجات عقول الناس، وهو أيضاً حال الناس فى كل مظهر من مظاهر حياتهم — وهم جمّاع من العامل والخامل والعاهل والباهل (٢) والمتنفج (٣) والمتخمط (٤) والتياح (٥)، ولكل وجهة هو موليها.

والمترجم بين كل هذا وبين ما يحسه من واجب، تعظم المسئولية الملقاة على كاهله فإذا عنّ له أن يأخذ طريقه فى الترجمة، وقعد يعالج عمله هذا، ألفى ما يقع عليه من المصنفات خليطاً من المستملح والمستهجن، والساقط النيء والقيم النافع. فاما أن يرعى الواجب وأمانة النقل، فيترجم غير منحرف ولا جانف عما رسم المؤلف ويأخذ الشيء بحذافيره، كمن إذا أكل لف وإذا شرب اشتف. وإما أن يعمد إلى التصريف والتحريف، فيعبث ببضاعة غيره، ويذهب بروائها، ويدفن صاحبها وينعى ذكراه، بما اقترفه من تصديع وتشويه — وليس هذا من الحق فى قليل ولا كثير. لانه لا يملك حق التغيير والتبديل فى بضاعة غيره. ولا هو يرضى أن يتعهد غيره صيغة الحذف والاثبات فى أثر من آثاره. فكيف هو يعامل غيره بما يأباه على غيره؟

ولقد خار لى الله أن أطالع كتاب «هيكل» هذا فى تحول المخلوقات، وطلب إلى بعض الذين تربطهم وإياى صلة الصداقة أن أنقله إلى العربية، فتأبيت بادى

(١) السراب
(٢) بلا عمل
(٣) الذى يفتخر بأكثر مما فيه
(٤) المتكبر مع غضب
(٥) او المتيح — الذى يعرض فى كل شئ ويدخل فى ما لا يعنيه

الرأى وترددت فى ذلك. تأبيت لسببين. أما السبب الأول فلأن نزعة مؤلف الكتاب «دروينية» صرفة، و«درون» هذا قد أصبح بغيضاً مقيت النزعة عندنا لما زعمه الناس فى مذهبه من إنكار الخالق واعتناق المذهب المادى وأنت لا تسائل إنساناً فى مذهب «درون» وما له من أثر علمى إلا بادهك بأنه هو القائل (أن الانسان أصله قرد). وأما السبب الثانى فلأن المؤلف قد تعرض للدين وتحرش بالكثلكة وغمز لبعض الذين هم مظاهر الكمال، وهو ما ننكره عليه كل إنكار.

على أنى آثرت نقله إلى العربية لسببين أيضا. أما السبب الأول فلأننا نعيش فى عصر قد أظله التطور (١) وانتابته التغيرات من كل ناحيه وفى كل مظهر من مظاهره. وأنت لا يقع نظرك على شأن من شؤون الحياة فى هذا البلد إلا وقع بخاطرك أنه فى تغير دائم وتحول مستمر. ولئن كان التطور يظهر أثره فى كل الكائنات متلاحقا مع العصور — فانه أشد أثراً وأظهر تأثيراً فى هذا العهد الذى نحضره ونشهد مواقفه، وحسبك ماتراه فى أهل هذا البلد من تبدل العادات وتحول الأخلاق، وتغير كل شئ حتى أصبحنا نرى الحياة غير الحياة. ووقفنا موقف دهش واستغراب — لا مما انتاب هذا الجو من تحول وتغير — وإنما من ذلك التيار القوى الذى يدفع الأمة دفعاً —

(١) سينكر بعضهم علينا استعمال هذا اللفظ وسيقولون ان اللغة لا تعرف «التطور» وانما هى تعرف الطور والاطوار. على حين اننا آثرنا استعماله لسببين اثنين فأما السبب الأول — فلاننا قرأنا تفسير (وخلقناكم اطواراً) الآيه فاذا بالمفسرين يقولون أى طوراً نطفة وطوراً علقة الخ. فلم نجد اقرب الى المعنى المقصود من الكلمة الاجنبية من هذا اللفظ. واما السبب الثانى فلان هذه الكلمة جرت فى افواه الجمهور واشتهرت بين الناس بعد أن صقلها اللسان وجندرها.

جماعاتها وافرادها فى هذا السبيل .

من أجل هـذا كان من حسن المناسبة ومن باب مراعاة النظير أن يطلع القوم على (محدث الآراء فى التطور) ـ فى عصر التطور . وفى عهد يشعرون فيه بهيمنة قانون التحول وأثره الفعال الظاهر فى كل شأن من شؤون حياتهم . أما السبب الثانى فلما أراه من احتياجنا الشديد الى تعرف الأساليب العلمية الحديثة ودرس طرائق البحث العلمى حتى نصل إلى تفكير علمى واستنتاج علمى . ولعمرى ليس أصح ولا أصلح فى الكلام من بيان تدعمه البرهنة العلمية، ويحوطه البحث العلمى بسياج من التفكير الصحيح النافع . ولقد طالما تأثرت نفسى وانفعلت كلما كنت أسمع أو أقرأ عن منازعات ومخاصمات تقع بين متناظرين فى ميدان تحقيق غاية واحدة ، وهما ينشدان نشداناواحداً . وطالما كانت تساكننى فكرة البحث العلمى القائم على الحس والتجربة والاختبار، المفضى الى نتيجة صحيحة حقه، لامرية تساورها، ولا خلجة شك فيها .

طالما أنكرت طرائق الجدل العقيمة التى راجت سوقها فى العصر الحاضر . فعبثت بالحقيقة وصدعت أركان الفضيلة، وذهبت بالغرض المقصود من المناقشة والبحث ، وتمنيت لو أتيح لنا أن نتعرف طرائق البحث العلمى الخالص ، فندرج عليها ونؤمن بها ونخنع لقوانينها التى لاشية فيها من ذبذبة أو مواربة ، حتى نأمن الزلل ونصل الى نشداننا ـ من البحث لامجنفين عن الصواب ولا متنكبين سبيل الحق .

وما لنا لانتوفر على درس مصنفات الغربيين، ومؤلفات المحدثين، ونحن لايقعدنا عن ذلك وكس فى ديننا، ولا نقص فى ماهيتنا الادراكية ، والدين

إنما يأمرنا بالبحث والاضطلاع . وإعمال الفكر .

أما الدين المسيحى فيقول (فتشوا الكتب لانكم تعتقدون أن لكم فيها حياة أبدية) وأما الدين الاسلامى فحسبك ماتقرؤه فى القرآن الشريف من الآيات التى تحض على البحث وتأمر بالتفكير وتفضل العلماء وترفعهم على العالمين ـ لتعلم أن الدين لايقف فى سبيل تحصيل العلم وتنشيط الفكر . انظر إلى قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . (قل هل يستوى الاعمى والبصير) . بل انظر كيف شرف العلماء فرفعهم من آلى الخلق إلى عالى الدرجات فى قوله تعالى (شهدالله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط)

حسبك هذا دليلا قائماً على أن الدين يحض على البحث ولا يعترض الباحث فى سبيله للانتفاع والرقى بل حسبك أن تعرف أن الاسلام قدتسامح فى هذا الباب إلى حد يقول فيه إنه إذا تعارض العقل والشرع فانه يجب اتباع العقل وتأويل النقل على مقتضاه

رأى ابن سينا

على أن كثيرين من جهابذة العلم ، وعمد الفلسفة من المسلمين قد نحو هذا المنحى وتعهدوا هذا الموضوع بالبحث والتمحيص، ووقفت منهم طائفة، من أعداء النظر فى شؤون الفلسفة وأبحاثها، موقف الذود عن حياض الحياة العقلية ـ ونحن ذاكرون هنا رأى الشيخ الرئيس « ابن سينا » بعد الذى أسلفنا ذكره قال : « فان الغرض من هذا القول أن نفحص على جهة النظر الشرعى هل النظر فى الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور أم مأمور به إما على جهة الندب وإما على جهة الوجوب فنقول: إن كان فعل

الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعنى من جهة ما هى مصنوعات فان الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها . وإنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك : فبيّن أن مايدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه أما إن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بيّن فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا ياأولى الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي والشرعى معاً ومثل قوله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء) وهذا نص بالحث على النظر فى جميع الموجودات

واعلم أن ممن خصه الله تعالى بهذا العلم، وشرفه إبراهيم عليه السلام فقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) إلى غير ذلك من الآيات التى لاتحصى كثرة .

وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات، واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس أو بالقياس فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى، وبيّن أن هذا النحو من النظر الذى دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس وهو المسمى برهانا وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان، كان من الأفضل

أو الأمر الضروري لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البراهين وشروطها وقد يجب على المؤمن بالشرع الممتثل أمره بالنظر فى الموجودات أن يتقدم قبل النظر فيعرف هذه الأشياء التى تتنزل من النظر منزلة الآلات من العمل فانه كما أن الفقيه يستنبط من الأمر بالتفقه فى الأحكام وجوب معرفة المقاييس الفقهية على أنواعها وما منها قياس ومامنها ليس بقياس كذلك يجب على العارف أن يستنبط من الأمر بالنظر فى الموجودات وجوب معرفة القياس العقلى وأنواعه بل هو أحرى بذلك لأنه إذا كان الفقيه يستنبط من قوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وجوب معرفة القياس الفقهى فبالحرى أن يستنبط من ذلك العارف بالله وجوب معرفة القياس العقلى : وليس لقائل أن يقول إن هذا النوع من النظر فى القياس العقلى بدعة إذ لم يكن فى الصدر الأول فأن النظر أيضاً فى القياس الفقهى وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأول وليس يرى أنه بدعة فكذلك يجب أن نعتقد فى النظر فى القياس العقلى ولهذا سبب ليس هذا موضع ذكره بل أكثر أصحاب هذه الملة مثبتون القياس العقلى إلا طائفة من الحشوية قليلة وهم محجوجون بالنصوص أنه إن كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص القياس العقلى وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدئ بالفحص عنه وأن يستعين فى ذلك المتقدم بالمتأخر حتى تكمل المعرفة به فانه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه ابتداء على جميع ما يحتاج إليه من ذلك كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهى بل معرفة القياس العقلى أحرى بذلك وإن كان غير ناقد محض عن ذلك : فبيّن أنه يجب علينا أن نستعين على مانحن

بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة فان الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أوغير مشارك إذا كانت فيه شروط الصحة وأعنى بغير المشارك من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الاسلام وإذا كان الأمر هكذا وكان كل مايحتاج إليه من النظر فى أمر المقاييس العقليه قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغى أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صواباً قبلناه منهم وإن كان فيه ماليس بصواب نبهنا عليه . فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التى بها نقدر على الاعتبار فى الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لايعرف الصنعة لايعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع فى الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذى إستفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس والبراهين ويبّن أيضاً أن هذا الغرض إنما يتم لنا فى الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين فى ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ماعرض فى علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة فى وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الأجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف قدر الشمس من الأرض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً إلا بوحى أو شىء يشبه الوحى بل لو قيل له إن الشمس أعظم من الأرض بنحو مائة وخمسين ضعفاً أو ستين لعد هذا القول جنوناً لقائله وهذا شئ قد قام عليه البرهان فى علم الهيئة قياماً لايشك فيه من هو من

أصحاب ذلك العلم وأما الذى أحوج فى هذا إلى التمثيل فصناعة التعاليم فهذه صناعة أصول الفقه ، والفقه نفسه لم يكمل النظر فيها إلا فى زمن طويل . ولو رام إنسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التى استنبطها النظار من أهل المذاهب فى مسائل الخلاف التى وضعت المناظرة فيها بينهم فى معظم بلاد الاسلام ماعدا المغرب لكان أهلا أن يضحك منهم لكون ذلك ممتنعاً مع وجود ذلك مفروغا منه وهذا يبّن بنفسه ليس فى الصنائع العلمية فقط بل والعملية فانه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه . فكيف بصناعة الصنائع وهى الحكمة .

وإذا كان هذا هكذا فقد يجب علينا إن ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب مااقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ، : وقد تبين من هذا أن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع إذ كان مغزاهم فى كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذى حثنا الشرع عليه وأن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها — وهو الذى جمع أمرين أحدهما ذكاء الفطرة، والثانى العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية — فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله وهو باب النظر أن يؤدى إلى معرفته حق المعرفة وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى وليس يلزم من أنه إن غوى غاو بالنظر فيها وزل زال إما من قبل نقص فطرته وإما من قبل سوء ترتيب نظره فيها أو من قبل غلبة شهواته عليه أو أنه لم يجد معلماً يرشده إلى فهم ما فيها أو من قبل

اجتماع هذه الأسباب فيه أو أكثر من واحد منها أن يمنعها عن الذى هو أهل للنظر فيها فان هذا البحث من الضرر الداخل من قبلها هو شىء لحقها بالعرض لا بالذات وليس يجب فيما كان نافعا بطباعه وذاته أن يترك لامكان مضرة موجودة منه بالعرض ولذا قال عليه الصلاة والسلام للذى أمره بسقى العسل أخاه لاسهال كان فيه فتزايد الاسهال به لما سقاه العسل وشكى ذلك إليه صدق الله وكذب بطن أخيك، بل نقول إن مثل هذا من منع النظر فى كتب الحكمة من هو أهل لها من أجل أن قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم خلو من قبل نظرهم فيها مثل من منع العطشان شرب الماء البارد العذب حتى مات لأن قوما شرقوا به فماتوا فان الموت من الماء بالشرق أمر عارض

***

فذلكة فى أصل الأنواع

أما وقد انتهينا من تبيين فضل الاضطلاع والبحث فى الفلسفة بأنواعها فانا نعود إلى دروين نستعرض شيئا من أصول مذهبه. إذا نحن أردنا أن ندرس هذا المذهب دراسة خاصة وجدنا أن منه ما يقوم على الفروض فاذا وقفت تسائل دروين أو أحد أنصاره عن أصل الحياة أو عن الصور الأولى المخلوقات (الهيولانية) وقف دروين أو وقف الدروينى هذا حائرا وحسبك أن تقرأ ما كتبه دروين فى كتابه «أصل الأنواع» لتتعرف مقدار اضطرابه فى تعليل الحياة أو فى ذكره الصور الأولى للأحياء فبينما يقول: (إن الأحياء نشأت فى أول الأمر من خمسة أو ستة أصول تامة الخلق ومنها تفرع سائر الأحياء الموجودة اليوم والبائدة بفعل نواميس الطبيعة)

بينما يقول هذا فى ثبت كتابه «أصل الأنواع» إذا هو فى نفس الكتاب يعود ويقول: (إنى أرى فى ما يظهر لى أن الأحياء التى ماتت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة، إذا هو فى موضع آخر يقول إن الخلق المحصور فى بضعة أصول قابلة كل تغير لاحق من نفسها أولى بحكمة الخالق وعظمته). أفبعد هذا اضطراب وحيرة، واعتراف بحكمة الخالق وعظمته؟ والأحياء الأولى من أين جاءتها الحياة؟ هل هبطت عليها من السموات؟ أما داروين فيقول باحتمال ذلك. وأما السير وليم طمسن المشهور باللورد كلفن - واضع مذهب الحلقات الزوبعية فى الأثير وتعليل الجواهر الفردة - فيقول بأن الحياة وصلت الينا من بعض الأجرام محمولة على بعض النيازك. نقول: ولعمر الحق ما كان هذا الفرض أو ذاك ليحل المعضلة. فاذا تمشينا مع اللورد كلفن وقلنا له أى الأجرام هذه التى اختصت بأكسير الحياة ينبثق منها فيحيي العوالم، لتحرج ولم يعرف له من هذه الورطة مخرجا.

هم يقولون: إن أول من قال بمادة أولى حية - الفيلسوف الألمانى «أوكن» - استكشف هذا السر وأطلق على هذه المادة اسم «أورشليم» ويقولون إن «هيكل» استكشف فى قاع البحار جسما متعضيا يصح أن يكون حلقة الاتصال بين الجماد والحى ودليلا على التولد الذاتى — أطلقوا عليه اسم «الموبرا»

ولقد أعتز الطبيعيون بهذه المستكشفات واستظهروا بها على المؤمنين القائلين بخلق الخالق كأنهم وفقوا إلى ما ينشدون. لأنهم زعموا أن فى ذلك ما يصل بين النبات والحى.

يقول (كلود برنار) : الحس هو جملة التغيرات الحاصلة فى الجسم الحى بواسطة المهيجات أو هو تكييف بالتأثير لكيفية فى المؤثر . ويقول (لينوس) : إن النباتات لاتحس إنما هى تنمو وتعيش فقط موافقا فى ذلك رأى إرسطو القائل أن الحيوانات تعيش وتنمو وتتحرك .

من أجل ذلك ذهبوا مذهبهم فى تكييف الحياة وفى تصور طبيعتها وفى ردها الى تفاعل طبيعى .

يقول (دلامتر) : (سنة ١٧٠٩) — (لاحواس إذن لا أفكار) ويقول (ديكارت) : أنا أفكر فاذن أنا حى .

انهم يستأنسون بهذه الآراء وقد بهرتهم التجاريب الكثيرة والمستكشفات العظيمة التى جاء بها العلم الحديث فحدا بهم ذلك الى الاستهتار بالمؤمنين والاستخفاف بآراء القائلين بخلق الخالق انظر إلى التجاريب التي وصل اليها بعض العلماء لتركيف ذهب بهم البحث وإلى أى حد وصلوا فى معتقداتهم . ظهر (ديهلر) (١٨٢٨) بتجربته المشهورة فقال : بامكان اصطناع الأوريا العضوية كميائيا من السيانوجين والنشادر (غير العضويين) .

وجاء غيره بتجربة دلت على أن أوراق السنط الحساسة تتخدر بالأثير أو الكلوفورم ولا تعود تحس كالحيوان .

وقال آخر : إذا وضعت حبة الجرجير سريعة التفريخ، التى تفرخ لو وضعت على إسفنج فى مدة ٢٤ ساعة — لو وضعت على نفس الاسفنج ووضع تحتها إتير، تنام فلا تموت ولا تنمو، فاذا رفع من تحتها الأثير، عاودها النماء.

وقال (كارل فوجت) : خذ عضلة من عضلات ضفدع حى واجعلها فى أحوال متناسبة تمنع جفافها وفسادها وغذها بالدم من حين إلى حين

ليقوم مقام المواد المحترقة منها وأكسجين الهواء كما تقدم الفحم وقوداً للآلة البخارية . فانك ترى العضلة تتحرك — كما يتحرك لولب الساعة إذا كانت فى نظام دورتها — قال : وليفصل كذلك بين رأس حيوان وجسده حتى يموت ثم ليحقن فيه بعد هذا دما صالحا من حيوان آخر من نوعه — ير الرأس يفتح عينيه ، ويركل حركاته تدل على أن الحياة قد عاودته ، وعاد دماغه يشتغل كما كان قبل القطع .

وذهب غيره إلى أن كمية القوة المنتشرة فى العالم لاتتغير ولكنها تظهر فى صور مختلفة ، فتراها تارة على شكل حرارة ، وتارة على شكل كهرباء ، ومرة فى شكل حركة ، وأخرى فى شكل (تركيب أو تحليل كما تبين) . وقال غيره : إن قوة الأجسام الحية أصلها كميائى أى انه يحصل فى جوهر أنسجتها تأكسد وتركيب وجملة مظاهر نتيجتها ليس توليد قوة ، بل إظهار قوة كامنة وهذه القوة إنما تظهر بالحرارة والحركة ، قال وبين مقدار الحرارة المنتشرة والحركة الحاصلة ، نسبة شديدة بحيث إنه كلما كثرت الحركة ، قلّ ظهور الحرارة والعكس بالعكس .

الطبيعيون يردون الحرارة إلى الحركة يقولون : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لاتكون الحياة التى تتحول إلى حرارة ، والتى لاتختلف تفاعلاتها عن التفاعلات الكيميائية — نوعا أيضاً كذلك من الحركة، المعتبرة أصل القوة الطبيعية ، فتكون نسبة الحياة إلى القوة الطبيعية ، كنسبة الانسان للحيوان بمعنى أن أصل كل الحياة كأصل سائر قوى الطبيعة ، وهذا يلزم منه أن تكون ناشئة رأسا من القوى المذكورة؟

أصل العالم

ولقد ترعرعت شجرة العلم فى القرن التاسع عشر وكثرت فروعها، فأتيح للانسان أن يقوى على تسخير الطبيعة وتهيأ له أن ينزع إلى الحقائق محارباً كل وهم - وكان من العلوم التى ظهرت فى القرن الماضى علم الجيولوجيا للبحث فى طبقات الأرض، وقرأ الانسان تاريخ الأرض مسطوراً على صفحات طبقاتها، وهو لعمر الحق أصدق من كل كاتب وما كتب، أو مؤلف إذا ألف. لأن الذى يتكلم فيه إنما هو لسان الطبيعة. ولقد قضى هذا العلم بما فيه من المشاهدات المحسوسة، على الروايات المتضاربة والحكايات المختلقة، التى كنا نتسمعها من الأفواه فنرهف لها أذاننا ونقرأها فى التآليف فنعجب بها.

والحق. إنه لولا علم الجيولوجيا هذا والايجادات الفلكية، لظلت مسألة أصل هذا السيار إلى اليوم من أعقد المسائل، أو هى كانت أشبه الأشياء بالقصص الخيالية الموضوعة. وأنت تجد فى كل شق من الأرض سيما فى مناجم الفحم الحجرى، طبقات أرضية منضدة تتفاوت سمكا من بعض السنتيمترات الى مائة متر أو يزيد، وتجد أن كل طبقة منفصلة عن الأخرى تمام الانفصال، وتجد أيضاً اختلافا فى المادة بين هذه وتلك، وهو مايعزز القول بأنها منضدة بالتعاقب، وأنها إنما نشأت عن علل وبظروف - قالوا ولقد تكونت الطبقات السفلية بادئ الأمر، ثم جاءت مافوقها حالا على حال، والأخيرة منها هى الطبقة النباتية، وإن خواصها النباتية إنما وجدت فيها من صوالة المواد العضوية الناتجة من الحيوان والنبات. وأما الطبقات السفلية فيتكون بعضها من الصلصال والحصاء والرمال، والبعض الآخر من الصخور،

كالمرمر والطباشير وحجر الرحى وحجر الجص والفحم الحجرى وأشباه ذلك. قالوا وإنما يقوم الدليل ظاهراً بيناً من معاينة هذه الصخور أو الطبقات. على أن بعضها قد تكوّن بفعل النار والآخر بفعل الماء. فالطبقات أو الرخويات المائية أفقية الوضع وانحراف بعضها أو انحدارها، كان من فعل انقلابات عامة شاملة، أو جزئية طرأت عليها. وأهم هذه المشاهدات وأعظمها عند الجيولوجيين - الأحافير الحيوانية والنباتية، وأنت تجد بعضها مطموراً داخل الصخور الأكثر صلابة، وهو مايؤيد القول بأسبقية وجودها على تكوين هذه الصخور، ومنها ماتشربت فى كل أجزاء جوهرها مواد هوائية فتحجرت دون أن يتغير شكلها. وهذا يدل على انقراض بعض الحيوانات والنباتات، وعلى أن بعض هذه قد أستبدلت بما جانسها مع ماانتابها من التحسين فى الكم والكيف. وأنت تسائل الطبقات الجيولوجية، فتنبئك النبأ الصحيح، فيما لو كانت بقعة قد تفشت بماء البحر أو النهر، أو هى كانت غابات مأهولة بالحيوان، ثم تزيد على كل ذلك أنه إذا آنست فى بقعة واحدة طبقات مترادفة حوت تكراراً - أحافير بحرية ونهرية وأرضية، قل إن البحر أو النهر انتابها مرات مع ظهور اليابسة فى خلالها.

انا نلمع هنا بهذه اللمعة فى علم الجيولوجيا محتزئين بهذا القدر مستطردين الى البحث فى أصل هذا السيار الذى على مسطحه نمثل دورنا فى الحياة، فنقول إن أكبر العلماء يؤيدون الرأى القائل بأنها كانت فى البدء كتلة نارية ثم أخذ سطحها فى البرودة - انظر الى جمرة النار إذا أنت جعلت تعرضها فى الهواء، تجد أن خارجها ينطفئ وباطنها يبقى مشتعلا. وإذا كان قطر الأرض يقدر بنحو ثلاثة عشر ألف كيلو متراً، فانا يمكننا أن نقول بان

الأرض كرة نارية تكسوها قشرة جامدة يبلغ سمكها نحو مئة كيلو مترا ونسبة هذه إلى الأرض كنسبة قشرة التفاحة الرقيقة للتفاحة.

وإنما كان سبيل العلماء فى تزكية آرائهم وتأييد مذهبهم القائل بسائلية الأرض أصلا ووجود النار فى جوفها ـ كان سبيلهم فى ذلك أن يضربوا مثلا بتفرطح قطبي الأرض ، وارتفاع الحرارة على قدر التوغل فى باطنها والينابيع المعدنية الحارة والمواد النارية التى تقذف بها البراكين. وقد لف لفهم علماء حنكتهم الخبرة فدلتهم على أن الحرارة ترتفع درجة واحدة فى كل ثلاثين مترا من العمق ـ إذن نفهم من ذلك أن الحرارة فى عمق ثلاثمائة متر عشرة درجات، وفى عمق ثلاثة آلاف متر ، مئة درجة ، وهى درجة الماء المغلى ، وفى عمق ثلاثين كيلو متراً ، ألف درجه ، وفى عمق مئة كيلو متراً أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة درجة وهذه حرارة تذوب فيها كل الجوامد وكل المواد المعروفة

من ذلك أليوم الذى اكتملت فيه الماهية الادراكية للانسان، واستعدت مقدراته الفكرية للعمل ، ونشط يتأمل هذا الوجود ويرفع رأسه محدقاً فى كل ما يحوطه من الكائنات ـ من ذلك اليوم أتيح له أن يتعرف ما لم يكن له به علم ، وتأتى له من بعد أن تعرف كثيراً من أسرار الطبيعة ـ من ماهيات وكيفيات ـ تأتى له أن يهيمن على ما دونه من المخلوقات فسخر الهواء، وجاب الفضاء، واستقصى باطن الأرض وسخر عباب الماء، فاستقوى بما حصل عليه من علم وما أدركه من معرفة على الطبيعة، واستظهر بقواها بعد استخضاعها على ما فى عالمه من الكائنات، ولم ين فى تحويل كل ما وصلت إليه يده من الموجودات لمنافعه ورفاهيته ، فجهز بذلك مدنية ذهب به الزعم إلى أنها المثل

الأعلى الذى عبر من أجله عامة عمره ينشده فى كل زمان ومكان.

وليس بمستطاع أن يدرج الانسان فى مهد حياته حتى يبلغ شأوه من الحضارة ، من غير تفكير وتعقل ، ومران وتدريب ، وعلم وتجاريب. ولعل فكرات كثيرة ، كانت تقع بخاطره يضيق بها صدره إذ لا يجد له منها مخرجاً، ولا لحلها تأويلا، بين هذه الفكرات التى تجول بصدر كل من تمت فيه ملكة التفكير ، وتمت له ماهية الادراك — فكرة الوجود والفناء ـ ولعل أول ما يخامر فؤاده ، أنه يسائل نفسه ما أصل العالم ؟ من أين جئت ؟ وإلى أين المصير ؟ .

على انا نرى الفلاسفة ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، قد ذهبوا فى ذلك مذهبين اثنين ، فاعتقد بعضهم بأن التكوين ليس هو شيئاً إلا صنع الارادة الربانية . واعتقد آخرون أن التكون نتيجة لازمة لداعى استحالة المادة ، على أن بعض أصحاب المذهب (الثانى) يعتقدون بوحدة الوجود وبسيره متدرجاً من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الأنسان . ويعتقد بعض الطبيعيين بالتكون الذاتى ناكرين وحدة الأصل لسلسلة جمّاع المخلوقات الحية

(أصل العالم)

(عند فلاسفة اليونان)

تختلف المذاهب الفلسفية القديمة عند اليونان فى حل هذه المسألة فذهب بعضهم أن العالم أصله من الماء ، وآخرون قالوا بأن أصله الهواء ، وقال غيرهم بالنار ، وآخرون بالتراب . ونحن موردون هنا أسماء زعماء هذه المذاهب الأربعة فأولهم :

(١) طاليس ـ سنة ٦٣٥ ق . م . قال إن أصل كل شيء من الماء والأرض كرية وسابحة على الماء .

(٢) أنكز مانس . قال إن أصل كل شيء الهواء . قال فاذارق الهواء، صار ناراً، وإذا كثف صار ماءاً فترابا .

(٣) هرقليط . سنة ٥٠٠ ق . م . قال إن أصل كل شيء النار .

(٤) أمبيذ قليس ـ أو أمبيد قلوس . سنة ٤٥٠ ق . م . كان طبيباً قال إن أصل كل شيء هو التراب .

(أصل العالم)

(ومعتقدات الأمم)

تلك مذاهب قدماء فلاسفة اليونان جئنا هنا بموجز يتبين فيه المطالع تطور العقل الانسانى ومظاهر الفلسفة اليونانية ونحن ذاكرون طائفة من مذاهب الأمم فى أصل العالم فنقول :

إن اعتقاد الأرمن فى أصل الخلق (هذا من كتاب أرمان) أن الخالق الأول، صور بارام براما ـ الآله الأنسان فى بيضة .

أما العجم فكانوا يقولون إن « كادس » نشأ فيه هرمز وأهرمن الهاهم العظيمان .

وكانت الهنود تعتقد أن الخلق كائن من مادة أزلية ،فيها قوة أزلية متصلة بها ـ أى عبارة عن غراب (كادس) أزلى تنمو فيه القوة الخالقة.

وكان اعتقاد المصريين أن العالم تكون من بيضة خرج منها .

نقول : ولقد تدرج الانسان من مهد الميعة والضعف ،ومرّ بأطوار،

وقطع مراحل شاسعة حتى وصل إلى ماهو عليه الآن بعد أن خضع لعوامل التطور فى كل دور من أدوار حياته . ولقد ظهرت الأنبياء فتحولت بظهورهم معتقدات خلائق كثيرة ، من حالها القديمة إلى حال أخرى واتفقت الديانات الآلهية الثلاث اليهودية، والمسيحية، والاسلامية ،على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق العالم فى ستة أيام جاء فى سفر التكوين أن خلق العالم قد تم فى ستة أيام .

(١) خلق الله فى اليوم الأول النور

(٢) وفى اليوم الثانى الجلد

(٣) « « الثالث الأرض والبحار والنباتات والأشجار

(٤) « « الرابع الشمس والقمر والنجوم

(٥) « « الخامس الأسماك والطيور

(٦) « « السادس حيوانات الأرض والانسان

ثم استراح فى اليوم السابع . هذا ماورد فى التوراة وهو ما يعتقد به اليهود والنصارى وهو ما يتفق مع اعتقاد المسلمين فى خلق العالم فقد جاء فى سورة الحديد «هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش»

أما أصحاب المذهب المادى فيكفرون بذلك ويسخرون من الأديان ويستهزؤن بالمتدينين ، هم يتحدون الأديان ، ويكذبون مسألة الخلق على هذه الصورة ، فاذا مارغبوا فى نقض هذا الرأى ، وراموا تعزيز رأيهم وتزكية مذهبهم ، عادوا بنا إلى الحفريات وطبقات الأرض وما كان من طوفانات متعاقبة « غير الطوفان المعروف » فيقولون إن أسفار

التكوين الهندى والصينى والعبرى ـ كل هذه الثلاثة ، تشير إلى تكوين الانسان بما يتفق حدوثه أخيراً فى الأرض ، وهو مايتفق تماماً مع التعاقب الجيولوجى ، قالوا ثم إن هذه الأسفار تحفظ ثلاثة فيضانات أو طوفانات وقعت بالفعل ، وهو مايتفق أيضاً مع مايسير إليه علم الجيولوجيا من حدوث طوفانات متعاقبة غير الطوفان المعروف . ويذهب بعضهم فى تعزيز رأيه الجيولوجى بما هو مسطور على صخور جزيرة « باروس » المرمرية وبشذرات من تاريخ سنشونياتو SANCHONIATON « مؤلف فى تاريخ فينيقيا نشأ فى القرن الرابع قبل المسيح . وبيروز BEROSE الكاهن والمؤرخ الكلدانى ـ الذى ظهر فى القرن الرابع قبل المسيح وأبيدين ABEYDENE ـ المؤلف اليونانى وقد أدرك القرن الثانى والثالث قبل المسيح . يقولون إن هذه كلها تؤكد أن الأمم القديمة كانت تحفظ ذكرى طوفانات عظيمة تم حدوثها فى القارات المعمورة . والرأى عند اصحاب مذهب نكبات الأرض ، وتعاقب الخلق ، أنه إنما يراد بذلك انقلاب عام ، يذهب بكل أثر للحياة من على سطح هذا السيار ، ثم تقوم على أثره مخلوقات أخرى ، أما « كوفيه » العلامة واضع أساس علم « البانتولوجية » (أى علم الأحياء الحية) فيقول إن التعاقب قد انتاب الأرض ٣٦ أو ٤٠ أو ٥٠ مرة

بل يذهب أصحاب هذا المذهب إلى أبعد من ذلك ليبرهنوا على أن العالم عبر ملايين السنين من مرحلة حياته ، وأن حياته لم تعترضها نكبة واحدة ـ هى نكبة الطوفان الذى حدثتنا بها الكتب المقدسة ، ولكن تقلبات ونكبات كثيرة اعترضته فى طريقه ـ كانت الأحياء فى هذه النكبات

تنقرض ، وكان يهلك كل ماعلى الأرض ـ تاركاً بعض الآثار التى تدل على ما انتاب المعمورة من طوفانات ونكبات ، فكانت الأرض كالمريض الذى اعتورته أمراض ، واعترضته مصاعب فى تدرجه فى الحياة ، تركت فى جسمه آثاراً يستنطقها الطبيب ويدل عليها الوصاف الحاذق . فالجيولوجى ، والعالم بعلم الأحافير يقف كل منهما أمام حجر ، أو أحفورة ، فيشير إلى ملايين السنين التى مرت على هذه أو تلك ، ثم يرفع عقيرته يستنكف الخضوع لما تحدثنا به الكتب المقدسة فى خلق العالم .

ولقد حاولت طائفة من أصحاب الفكر ودعاة التوفيق الذين يبغون يبتغون البر والخير ـ حاولت ثلة من الفلاسفة والعلماء ، فى أزمنة كثيرة ، وفترات متباعدة ، أن توفق بين العلم والدين ، فلم يكتب لها القدر فى لوحه آية النجاح والفوز المبين ، فباءت منهم جماعة بالخيبة والفشل ، وسطرت على جباه آخرين آية الكفر وسخط الناس أجمعين .

نذكر من بين هؤلاء ابن رشد ومحاولته التوفيق بين الفلسفة والدين ، وما وقع له بباب جامع قرطبة ، وغير هؤلاء كثيرون ممن أرادوا الخير ـ فانعكست عليهم الآية وساء ظن مواطنيهم بهم ، إما لظهورهم فى غير أوقاتهم ، أو لجهلهم بأساليب مخاطبة أقوامهم . والامام علي يقول : ليس كل مايعرف يقال ، ولا كل مايقال جاء أوانه ، ولا كل ماجاء أوانه حضر أهله . والنبى محمد صلى الله عليه وسلم يقول فى حديثه الشريف أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم .

يقول أرسطو : ليس فى العالم شىء هو خير بذاته ، ولا شىء هو شر بذاته بل بالوضع ـ وقد ينقلب الخير شراً ، والشر خيراً ـ فلا تكون هنالك

حقيقة . من هـذا يتضح أن لكل مقام مقالا ، ولكل مجال رجالا ، وإنه ينبغى أن يلاحظ الظرف وما يحوطه ، ولعمرى إنها لحكمة بالغة ، ونحن وإن كنا نأنس من أنفسنا ما يفصل مابيننا وبين أولئك الذين أصابوا من العلم قسطاً موفوراً ، ومن الحكمة مصاصاً مجلواً عليهم ـ وإن كنا نرى أنه من التطفل أن نغامر فى هـذا الميدان ونتحمل لموضوع هو مسألة المسائل ، ومعضلة المعضلات ، ـ فى التوفيق بين ما هو إيمان بالقلب ، وعلم بالعقل ، وفي التقريب بين أصول الدين ، ونواتج العلم ، بعد أن انفرجت زاويته ، وتكاثرت فيه الفروع ، وبلغ ، شأوه البعيد من التقدم والنجاح ، فأظهر مواهب الانسان ، وتغلب بها على قوى الطبيعة وتسخيرها لمنافعه فى هذه الحياة الدنيا ـ إن كنا فى أدب وخشوع نعترف بعجزنا أمام عظمة أولئك الحكماء ، وأنى للظالع أن يبلغ شأوى الضليع ؟ فانا مع هذا لانحجم ولا نقصر فى القاء دلونا بين الدلاء ومعالجة هذا الموضوع بما يتاح لنا وبما يصل إليه إجتهادنا ـ ولئن كان يرنو إليه البعض شزراً نائين عنه بجانبهم ، مستقلين ما فيه ـ فانا نقول لهم ـ إن العجمة لأسهل من البكمة ، والحبسة اقل معيرة من الخرسة .

هو يأخذ على الأديان مسألة خلق العالم فى ستة أيام لأنه ـ يستبعد ذلك ، ويرى محالاً التوفيق بين هذا وما جاءنا به العلم الحديث . نقول : ولماذا لا يكون اليوم فترة من الزمن قد تكون عهداً أو عصراً يمتد طوال السنين وهو مايفهم من مدلول هـذا اللفظ قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ـ « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (سورة سأل سائل) وقال فى سورة الحج « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وواضح

من هـذا أن اليوم المقصود ليس هو المعروف لدينا ، والذى نقدره بالدورة اليوميـة ـ دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس التى تتمها فى أربع وعشرين ساعة . وإنما هو زمن يمتد أجله بحسب المراد من تقديره . فاذا عرف هذا سقطت حجة القائلين فى وجه الدين ، وبطلت دعواهم . وإذا بحثنا وأمعنا فى هذا الموضوع ، تأتى لنا أن نوفق إلى أكثر من ذلك ، إذ نرى أنه روى فى تفسير قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا » إن آدم بقى أربعين سنة طيناً ، وأربعين سنة حمأ مسنوناً ، وأربعين سنة صلصالا كالفخار ، فتم خلقه بعد مئة وعشرين سنة . « تفسير الخازن »

فكم من الأيام فى مئة وعشرين سنة وكم من ملايين السنين تكون إذا ضربنا عدد هذه الأيام فى ألف سنة « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » أوفى خمسين ألف سنة « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ؟ ؟

بل انظر إلى سنة التطور الظاهرة ظهوراً لايدع للشك مجالا فى قوله تعالى فى سوره الحج : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ـ فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ـ مخلقة وغير مخلقة ـ لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ـ لكى لايعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ـ فاذا أنزلنا عليها الماء ـ اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج » .

إقرأ هـذا لتتبين ما يظهرنا عليه الدين من نواميس التطور وأمرر قريحتك على قوله تعالى

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ـ فجعلنا العلقة مضغة ـ فخلقنا المضغة عظاما ـ فكسونا العظام لحماً ـ ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .)

من ذا الذى يقرأ هذا كله ثم يقول إن الدين لايتمشى مع التطور ، أو إنه يقف موقف الجمود حيال العلم الحديث ؟ على أنا نجتزئ بهذه اللمعة ، نلمع بها هنا لتعزيز موقفنا حيال مذهب النشوء والارتقاء وحيال أمثال علم الأحافير والجيولوجيا ، بل وحيال التطور الفكرى الحديث ، وما كان لنا أن نتعرض لهذا الموضوع لولا أن المؤلف تمحل للموضوع علي ما أسلفنا القول فيه

يقولون إن الدين لايستطيع النهوض أمام العلم الحديث بمستكشفاته ومخترعاته لأن الأديان تنكر التطور وتؤمن بالخلق المستقل ، وتقف جامدة أمام المبتدعات الحديثة ، وآيات العلم التى تهيأ للعقل الانسانى أن يهتدى إليها بأبحاثه وتجاربه .

ونحن نقول : متى كان أهل الدين ينكرون ذلك ، ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد . على مايزعم الطبيعيون . وهم يرون أنه تعالى بلطف حكمته ، يخلق التمر من الشجر ، والشجر من النواة . ولا يجعل العنب حلواً ، إلا بعد أن يجعله حامضاً ، ولا يجعله حامضاً ، إلا بعد بعد أن يجعله مراً ؟

وانت تجد الكثير من فلاسفة المسلمين كانوا يأنسون بامثال هذه الفكر ، وكانت تدور على السنتهم ، مسألة التدرج والتطور ، بعبارات مختلفة ، حتى قبل أن تكثر المخترعات وتتزايد المستكشفات : انظر إلى ماورد فى اخوان الصفا مثل قولهم إن حيوان البحر كان قبل حيوان البر . وانظر الى قول المعرى :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

لتعلم مقدار مزاعم الطبيعيين من الحق ، ومكانتها من الحقيقة ، « وليقيم الله عليك نعمة الأيمان »

المذهب الطبيعى

أما المذهب الطبيعى فذائع معروف فى كل عصر ومصر ، بما يظهر من آثار أنصاره من حين إلى حين من الأبحاث والآراء ، ونحن إنما نريد أن نستعرض بعض المشهور من هذه المذاهب حتى نتمكن من مناقشة مسائلها . ذلك لأن الأستاذ « هيكل » مؤلف هذا الكتاب من أنصار هذا المذهب ، ومن زعماء مذهب التطور ، وهو لذلك قد تمحل لمسائل كثيرة عارض بها الدين ، وأراد أن يظهر عليه بما تدرع به العلم الحديث من مخترعات ومستكشفات . ولنبدأ بتلخيص موجز لمذهب « درون » عميد هذه الطائفه ، وواضع حجر الزاوية فى بناء هيكل التطور فنقول : إن مذهب درون إنما يقوم على قوائم ثلاث (١) التوالد الذاتى — يقول « درون » إن التباين الموجود بين أفراد النوع الواحد لأنه لايوجد فردان ولاموجودان من أى نوع يتشابهان فى الشكل أو التركيب ، أو الطائع ، (والتباين بعضه معلوم والبعض الآخر مجهول) . وإنما يرجع هذا ، التباين إلى الصفات المكتسبة الفردية التى تتأتى بالوراثة وتكتسب بالظروف الخاصة التى

يتكون فيها الجنين . (٢) التنازع للبقاء ، ذلك أن نفس أفراد الأنواع يقع التنافس بين بعضها والبعض الآخر من جهة ، وبين الانواع الحية والعوامل الطبيعية من جهة أخرى ، (٣) الانتخاب الطبيعى — وإنما يفوز بالحياة فى ذلك النزاع الذى وصفناه، القوى وينهزم الضعيف ويأخذ فى الانقراض قالوا : والقوى هو ماتوافرت فيه اتفاقا الصفات اللازمة للفوز فى النزاع الطارئ ، وضربوا مثلا لذلك ، نوعا من الحيوانات يعيش فى بلاد معتدلة الجوطرأ عليه طارئ ، اضطر أفراده أن يتشتتوا ، لحصول غرض ، أو سطو نوع قوى ، أو عدم وجود غذاء . فهجر فريق إلى بلاد باردة، وهجر فريق آخر إلى بلاد حارة ، وانقرض فريق ثالث ، هنا تتبين مسألة بقاء الأنسب بعد التنازع للبقاء لانقراض الضعيف وانهزامه فى المعركة .

أما الأفراد التى انتقلت إلى البلاد الباردة ، فمنها مايكون ممتازاً عن غيره فى مكافحة البرد ، كأن تكون هذه الفئة أكثر ريشاً أو شعراً ، من غيرها أو أتم إستعداداً للحصول على كميات من الغذاء فى هذه البيئة الجديدة، إذ ذاك يتهيأ لها أن تقاوم البرد وأن تعيش بخلاف غيرها من التى ليست على شئ من هذه الصفات ،والتى تنهزم أمام الطارئ وتنقرض. أما الفئة التى تأتى لها أن تتذرع بما تصد به هجمات كل غارة طبيعية — فانها تستمر صفاتها هذه التى كانت سبباً فى فوزها وبقائها — تستمر هذه الصفات متنقلة باقية من طبقة إلى طبقة ومن جيل إلى جيل. فكأن الطبيعة قد اصطفت من بين جماع الأفراد التى هاجرت إلى البلاد الباردة ، طائفة معينة قد تصادف اتفاقا أن توافرت فيها الشرائط اللازمة والاستعداد الضرورى للفوز والحياة . وكأن الطبيعة التى اختارت وميزت هذه الطائفة

قد جعلت من نسلها طائفة باقية جاءت فيها هذه الصفات أقوى من غيرها.

وهاجر فريق آخر من تلك الأفراد إلى البلاد الحارة . فتكون النتيجة أنه بعد مضى أزمان متعاقبة ، تصبح الأفراد التى هاجرت إلى البلاد الباردة مختلفة عن تلك التى هاجرت إلى البلاد الحارة — ويصبح كلاهما مختلفاً عن الأصل الذى تسلسل منه . وإنما يظهر هذا الاختلاف نشيطا قويا — بادئ الأمر ثم هو مع تعاقب الاجيال يزداد شيئاً فشيئاً حتى تصبح مختلفة اختلافا كبيرا . فتصير أنواعا مختلفة فيقال ! والحالة هذه إن هذين النوعين قد تسلسلا من ذلك النوع القديم البائد . كما يقال مثلا إن اللغة الفرنسية والاسبانية قد تسلسلتا شيئا فشيئامن اللغة اللاتينية — على إثر التنازع الذى قام بين الأخيرة ولغتى فرنسا واسبانيا — فى ذلك الحين وانتصار اللغة اللاتينية بفضل ما كان للرومان من المناعة السياسية والقوة الحربية ، والتفوق فى الحضارة

(مذهب لامارك)

ونحن إذا ذكرنا « درون » وقلنا بأنه زعيم هذا المذهب فاننا يجب إلى جانب هذا أن نذكر (لامارك) وهو الذى كان يقوم فى فرنسا بما قام به درون فى انكلترا، وإنما يقوم مذهبه على قاعدة أن العادة طبيعة ثانية،ولهذه القاعدة أساسان ، أما الأول (١) فهو الوسط أو البيئة وأما الثانى (٢) فهو نظام المعيشة (أسباب التغير — كيفية التغير)

(١) يقولون إن العادة والاستعمال يقويان العضو ويجعلانه ينمو — وعلى العكس من ذلك عدم الاستعمال فانه ينتج الضمور .وضرب لذلك مثلا قال إن الحيوانات التى تعيش فى المغاور المظلمة ، وفى قاع البحر ، تفقد حاسة

النظر ، وحتى تضمر العين، عندبعضها، حتى تزول ولا يبقى منها إلا الاثر ، وإنما تضطر الحالةهذه الحيوانات لتقوية حاسة اللمس ، وتنميتها حتى تحل محل الحاسة المفقودة . قال : ولقد بلغ عند بعض الحيوانات العشرية التى تعيش على عمق عظيم فى الماء ، أن أصبحت أطرافها التى تقوم بوظيفة اللمس ـ تبلغ خمسة أو ستة أضعاف الأطراف فى غيرها من نفس النوع، بينما تكون ربع أو خمس طول الحيوانات التى تعيش بالقرب من سطح الماء فى النور — وهى محتفظة بأعضاء النظر ، وليست بحاجة إلى أعضاء اللمس، كما هى الحال فى تلك

(٢) تحتفظ النباتات النامية فى الجهات شديدة الحر بكميات من الماء الذى تحتاج إليه كثيرا، وهذا بخلاف مايكون فى غيرهامن النباتات التى تنمو فى الأنحاء الباردة ، أو المعتدلة

(٣) الحيوانات آكلة اللحوم تكون فيها الأنياب والأسنان الأمامية قوية ، وذلك لايكون فى الحيوانات النباتية

(٤) الامعاء فى الحيوانات آكلة اللحوم قصيرة ، وفى النباتية طويلة، ذلك لأن النباتات بحاجة إلى وقت طويل حتى يمكث مافيها من الغذاء لأن خلاياها غلافا من مادة (السيليولوز) مادة الورق والقطن الغير القابلة للهضم، فتحتاج إلى وقت طويل لتمزيقها ، أما اللحوم فتمتص بسرعة وليست فى حاجة إلى أن تبقى زمنا طويلا .

ولقد عنى الأستاذ (فريدريك هوسيه) مدرس علم الحيوان فى جامعة باريس، بهذا الأمر عناية خاصة ،وأراد أن يزيد فى بيانه ـ فجاء بدجاجة وأخذ يطعمها لحما بوسائل خاصة، إذكان يجعل اللحم داخل معجون أو (عجين)

واستمر يطعم هذا الدجاج على هذا الشكل ، ويطعم أفراخه بعده سنوات عديدة ، واحتاط فى الأمر ـ فكان يمنع الدجاج من التقاط الحبوب ، أو النباتات وأخذ يلاحظ نتيجة هذه التجربة ـ فكانت ، أن الأمعاء فى هذا الدجاج أخذت تقل فى الطول من نسل إلى نسل .

فاذا استمر فعل هذه العوامل ، فانها لابد أن تنتقل بالوراثة إلى النسل شيئا فشيئا مضافة إلى بعضها — فبعد عدة أجيال — يصبح النسل الجديد مخالفاً للنوع الأصلى . ولما كان (فريدريك هوسيه) هذا من أتباع مذهب (لامارك) وكان يهتم بتأييد نظريته — لذلك قام بتجربة يؤيد بها تأثير البيئة ، فأخذ كيساً من مادة مطاطة وملأه بمواد لزجه كالفزلين وغيره ، عنى بجمعها من مواد مختلفة ولاحظ فى ذلك أن يكون ثقل مجموعها النوعى، مساويا لثقل الماء النوعى ، وربط الكيس فى خيط ، وأخذ يحركه أياما ـ حركات تشبه حركات السمك فى الماء فكانت النتيجة أن هذا الكيس أصبح فى شكله كالسمكة تماماً .

(التطور وعلماء الطبيعة)

وإننا لانجد خلافا يقع بين علماء الطبيعة ـ فى نظرية التطور ، لأنهم يعتقدون أنه حادث واقعى ظاهر ، وإنما يقع الخلاف بين العلماء فى أسباب هذا التطور وفى كيفية حصوله — وهاك الأدلة على ذلك .

(الدليل التشريحى الرقيق HISTOLOOGIQUE)

لو اننا وقفنا أمام قطعة صغيرة من نسيج من أنسجة أى حيوان أو نبات ، وأخذنا نتفحصها (بالميكروسكوب) لوجدنا أنها إنما تتكون من خلايا صغيرة تتشابه تشابها تاما فى مجموعها ، فجميع الحيوانات والنباتات سواء فى

ذلك — على اختلاف أنواعها وتباين فصائلها فهى عبارة عن نتفة صغيرة من مادة زلالية ، أو بالحرى من مواد زلالية ممتزج بعضها ببعض ، وهى المادة الزلالية الحية المسماة «بروتوبلازما» PROTOPLASMA (والبروتوبلازما هى القاعدة المادية للحياة — وليست كما قيل مادة زلالية للشكل لأن هذه الأخيرة ، متى كانت منفصلة لاتكون حية ، كما أن الحمض أو القاعدة المنفصلان ـ لايكونان أجساما كيمائية فعالة . ذلك لأن « البروتوبلازما » تشتمل بالأقل على مادتين — بينهما وبين الوسط الموجودة فيه تفاعل حيوى مستمر ، فيمكن أن يعتبر كجسم حى وفى وسط هذه المادة نواة صغيرة ذات تركيب دقيق ، تتكون من مادة زلالية أمتن) وأغلب خلايا الحيوانات والنباتات محوطة بغلاف ذى مادة زلالية أخرى ، فى جميع الحيوانات ومن مادة (السيلولوز) ، (مادة القطن والورق فى النباتات وقد تتحول هذه الى خشب فى الأنسجة الكبيرة .

وليس يختلف بعض هذه الخلايا عن البعض الآخر فى جميع الحيوانات والنباتات من حيث التركيب وإن إختلف شكلا . وفى الظاهر

وهى تختلف فى هذا ، ليس باختلاف الأنسجة فقط . فالخلايا العصبية واحدة فى جميع الحيونات ذوات الثدى من أحطها إلى أرقاها حتى الانسان وكذلك الحال بالنسبة لخلايا الأنسجة الأخرى كالنسيج العظمى والعضلى والدموى الخ .

وجميع الخلايا التناسلية ، واحدة فى الحيوانات وفى كل النباتات معا وكذلك تتفق النباتات والحيوانات فى الأنسجة الجنينية وفى الأدوار الأولى من عهد نشوئها .

وليس هذا الخلاف الذى يظهر بين الحيوانات والنباتات فى مادة غلاف الخلايا بالخلاف الجوهرى الثابت ، لأن بعض النباتات الدنيا تقطع شطراً كبيراً من حياتها ، من غير هذا الخلاف كالنبات المسمى « ميكسوميسيت » MYXOMICETTE

ولما كان من خواص المادة الزلالية الحية — الحركة (لأسباب كميائية وطبيعية) بعضها مجهول وبعضها معلوم — كانت هذه النباتات تتحرك مثل ماتتحرك الحيوانات — بعكس النباتات الأخرى التى يعوقها عن الحركة الغلاف « السيولولوزى » أو الخشب الصلب . ذلك لأن جماع حركة الحيوان ـ نتيجة جماع حركة « البروتوبلازم » خلايا العضو الذى يتحرك . أما فى النبات فان كل خلية تتحرك داخل الغلاف وتبقى فى مجموعها — فلا يتحرك مجموع النبات كله — وكذلك الحال فى بذور بعض النباتات الطحلبية (النباتات البحرية) وهو يقول : إن الخلد ليس له عينان أوهما أثريان فيه لأنه لسكنه دائما تحت الأرض ـ هو فى غنى عنهما وعن النور . حتى قال ـ وإنه إذا ربطت إحدى عينى الطفل ينتهى إلى أن يصير أعور . وإذا تكرر هذا عدة اجيال انتج نسلا كله عوو .

مذهب ديفريس الهولندى سنة ١٨٧٥

التغيرات الفجائية MUTATION

كان هذا العالم يسير فى ضاحية من ضواحى أمستردام فوقع نظره على شجرة من هذا النوع ـ شوهاء . ولما كان يعلم أنه لم يدخل من فصيلة هذا النبات إلى أوروبا إلا نوع واحد ـ هو النوع الذى ذكرناه ـ وهو الذى انتقل من أمريكا إلى تلك الأقطار للتربية ـ لما كان يعلم هذا وكان يحب

الاستطلاع ـ لذلك استنتج أن هذه الشجرة لابد أن تكون من أفراد النوع المذكور ، نشأت شوهاء كما تكون الحال مع غيرها من الحيوانات والنباتات ، وإنما ظهر هذا التشوه لأسباب غير معلومة . ثم أخذ يستثمر هذا النوع زرعا ، محتاطا فى ذلك حتى لا ينقل الهواء أو الحشرات مادة اللقاح من نباتات أخرى مجاورة ، وكذلك دواليك مرات — فاتضح له أنه كان على جانب عظيم من الأهمية — وأن هذه التشوهات الطبيعية ثابتة تنتقل بالوراثة من نسل إلى نسل .

ثم أخذ يبحث عن أفراد هذا النوع فى الحقول والحدائق مشوهة تشويهات أخرى — من شكل آخر — فظهرت له النتيجة المذكورة بعد زرعه وتأكد أنه كان على جانب عظيم من الصواب .

بعد هذا انتقل إلى أنواع أخرى من شكل آخر وبذرها ونماها فثبتت له النتيجة المذكورة . فاستنتج من ذلك أن التشوهات التى تظهر فى أفراد الحيوانات والنباتات تنتقل بالوراثة ، وبنى على ذلك نظريته ، وهى : أن التغيرات التى تحدث فى الحيوان والنبات ، إنما تقع فجاءة لا مع التدرج ـ وهى نتيجة تشوهات تظهر من وقت إلى آخر . على أن هذه التشوهات لو كانت ذات فائدة فى تنازع البقاء ، فان الأفراد التى تحملها تنتشر بكثرة مع أنسالها ، ويتكون منها نوع جديد ، هذا هو سر تكوين الأنواع بناء على هذا المذهب ، على حين أن معظم أسباب التشوهات مجهول ، وأن بعضها يرجع إلى الوراثة والظروف التى يتكون فيها الجنين ، والطوارىء التى تطرأ عليه .

وقد اقتادت هذه الأبحاث والتجاريب علماء النبات والحيوان سيما علماء علم تكوين الأجنة إلى إحداث بعض تشويهات فى أجنة بعض

الحيوانات والنباتات بطريقة علمية لا يترتب عليها موت الجنين ، فكانت النتيجه أن الأفراد التى كانت تنشأ عنها ، تحمل هذه التشوهات وأنسالها ، وأن هذه التشويهات تبقى ثابتة فيها .

نذكر من بين هؤلاء الذين قاموا بهذه العمليات ـ العالم الفرنسوى M R .BLARING HEM بلارنجهم

ولقد حدا بهم البحث إلى إجراء هذه العملية وتعميمها فى الزراعة وبدل أن ينتخبوا الأفراد التى تحمل صفات حسنة أو نافعة للنوع الانسانى أو بدل أن يولدوها ، كما هو حادث فى الانتخاب الصناعى ، بدل ذلك ـ كانوا يتخيرون من أنواع الحيوانات الداجنة ـ الافراد المشوهة ويولدون كلامنها وينتخبون منها ما يحمل بعض صفات مفيدة للنوع الانسانى ويوزعون تناجها على الزراع . هنالك تأسست معامل فى أوروبا لهذا الغرض مثل معمل « سلافوكس SLAVOX » فى السويد الذى كان يديره المستر « تلسن » . وهنالك أوجدت هذه المعامل أنواعاً جديدة من الحيوانات والنباتات ثابتة بالوراثة ، تظهر فيها الجودة فى الانتخاب .

(تنازع البقاء وحاصلات العالم)

على حين أن مسألة التنازع على البقاء قد شغلت كثيراً من العلماء والمفكرين ، وتجسمت فى مخيلة بعضهم حتى أصبحوا يخشون على العالم من الهلاك الناتج من اضطراد زيادة عدد سكان الأرض ، انظر إلى رأى أحدهم فى ذلك حيث يقول : إن حاصلات العالم الزراعية والمعدنية محدودة ، وإذا زادت بتقدم العلوم فانما تكون زيادتها حسابية ـ ذلك أنها تريد من (١) إلى (٢) إلى (٣) بخلاف الحال فى السكان فانهم يزيدون زيادة هندسية

من (٢) إلى (٤) إلى (٨) إلى (١٦) قال : فاذا استمر العالم على هذه الحال فان ذلك اليوم الذى يزيد فيه عدد السكان على حاجياتهم من الحاصلات، قريب الوقوع .

ولقد أخذ دروين هذه النظرية « المالتوسية » « نسبة إلى واضعها القس «مالتوس» وجعل يقارن بينها وبين الاحياء، ثم أخرج منها ناموسيه، ناموس الانتخاب الطبيعى ـ وناموس التناحر على البقاء .

يقول أحدهم فى هذا الصدد: ! ! إذا جئنا بذكر وأنثى من الذباب — يمثلان آدم وحواء وجعلناهما فى زجاجة مع نحو عشرة من نتاجهما فى زجاجة فرشناها بخميرة الموز التى تمثل الزراعة عندنا، ثم أغلقنا فم الزجاجة بسدادة من القطن تسمح للهواء أن يتخلل الزجاجة ولتمنع الذباب من الافلات، وحفظت الزجاجة فى حرارة دائمة درجتها ٢٥ سنتغراد ثم أخذنا نحصى عدد هذا العالم الصغير كل ثلاثة أيام — وكان ابتداء الاحصاء مثلا — من أول اكتوبر إلى ١٧ نوفمبر ـ لكان نمو الذباب قليلا بين أول اكتوبر و١٨ منه، وقليلا أيضا بين ٣ اكتوبر و١٧ نوفمبر ـ وإنما تكون الزيادة العظيمة فى الفترة الواقعة بين ١٨ و٣٠ اكتوبر . معنى هذا أن الذباب استمر فى الزيادة الهندسية حتى قل الغذاء فنقصت الزيادة ، ففى الفترة التى بين أول اكتوبر و١٨ منه بلغ عدد الذباب ٧٥ بينما هو بلغ بين ١٨ اكتوبر و٣٠ منه ٢٨٥ وبين ٣٠ اكتوبر و١٧ نوفمبر ٢٤٦

قالوا : إن عدد سكان فرنسا فى سنة ١٨٠٠ كان ٢٥ مليونا، وعدد سكان الولايات المتحدة كان أقل من خمسة الملايين ، وبعد مئة سنة أى سنة ١٩٠٠ صار عدد سكان فرنسا نحو الستة والأربعين مليونا ،فى حين أن عدد

سكان الولايات المتحدة بلغ ٧٥ مليونا — وإنما وقع هذا الفرق بين النسبتين لأن أمريكا كانت بكرا لا تزال فى عنفوانها .

نقول ولو اننا إعتنقنا نظرية الأب مالثوس لنقارن بها الواقع لوجدنا أنها شطت شططا بعيداً وتنكب أنصارها محجة الصواب لأنهم لم يحسبوا للنكبات التى تنتاب النوع الانسانى حسابا ، كالزلازل والطوفانات ، أو كالحروب والغارات ، آية ذلك، الملايين التى هلكت فى الحرب الكبرى، أو نكبة اليابان ، أو ماينتاب بعض الجهات من التقلبات الجوية ، التى تجتاح ثمار الانسانية ، بل حسبك ماتحدثه المدنية من الأمراض التى تضعف النسل ، دليلا على بطلان هذه المزاعم

(الرد على أصحاب المذهب المادى)

لا يزال النزاع قائما بين الروحيين والماديين فى مسألة وجود نفس مدركة عاقلة فى الانسان فأصحاب الدين يقولون بالروح ،وهى مصدر الذات العاقلة، والماديون يكفرون بذلك ، ويقولون بأن الدماغ مصدر القوى العاقلة فى الانسان وأن نسبة الدماغ للفكر كنسبة البول للكلى ، أو الصفراء للكبد، فهم يجحدون كل ماهو غير (هيولانى) أى كل ماهو غير مادى ويقولون إن الانسان ،إن هو إلا آلة مادية تتلاعب به التأثيرات الخارجية،حتى إذا جاء أجله انطفأ نور الفكر وانعدم كل شىء فيه .

نقول فاذا نظرنا إلى ماجاءنا به علم الفزيولوجيا على لسان علمائه الطبيعيين، نجد أنهم يقولون إن كل حركة تصدر من إنسان أو حيوان، يصحبها احتراق جزء من المادة العضلية ، وكل فعل من الحس أو الارادة ، ينشأ عنه فناء فى الأعصاب ، وكذا كل تفكير ينشأ عنه اتلاف فى الدماغ ، ومعنى هذا أنه

ليس يمكن أبداً لذرة واحدة من المادة أن تصلح مرتين للحياة . فاذا مابدأ عمل عقلي أو عضلي فالجزء من المادة الحية التي تصرف لصدور هذا ، إنما تنعدم تماماً ، فاذا عاد العمل وتكرر فمادة جديدة تصلح لصدوره ثانية ، وكذلك دواليك ، والقاعدة أن النسبة محفوظة في الاتلاف ، أي أنه كلما اشتد ظهور الحياة إزداد تلف المادة الحية ، وإنما المادة المستجدة الداخلة في الدم بواسطة الهواء والمواد الغذائية ، تعوض من هذا التلف باستمرار ، وإنما يرتبط هذان العاملان الواحد بالآخر - فعامل الاتلاف وعامل التجديد يتصل الواحد بالآخر في الكائن الحي ؛ وعامل التجديد سري خفي أما عامل الاتلاف فيبدو للعيان . والحاصل من هذا عند العقل أن جسمنا يتجدد مرات كثيرة في مرحلة الحياة .

يقول الماديون إن الذاكرة عبارة عن اهتزازات فسفورية ، تتخزن في القلية العصبية من الدماغ بعد أن تصل إليها التأثيرات الخارجية . فان صح ذلك - وإذا تقرر أن كل ما فينا من قلالي عصبية ، وأنسجة عضلية ، وعظام تنعدم وتتجدد في فترة معلومة لاتزيد على السبع السنين ، لاقتضى لقوة الذاكرة أن تنقص فينا بالتدريج إلى أن تتلاشى في كل سبع سنين ، وأن نضطر في كل سبع سنين ، إلى تجديد كل ما تعلمناه سابقا على أنا نشعر بأن الأمر على العكس ذلك أن تيار المادة المتجددة فينا لم يحدث أقل تغيير في ذاكرتنا وأنا في إبان الهرم نذكر أموراً وقعت في حداثتنا وعليه فالواقع نطق بأنه برغم استبدال ذرات كياننا ، فان كل ما فينا يؤيد ثبات شخصيتنا وهو مايدل على أن هناك غير الهيولى ، نفساً أو روحا يقيها جوهرها اللطيف من كل مايطرأ من تحول أو تقلب ينتاب المادة ، على أن هذا لايمنع من انطباع

صور الحوادث والذكريات فيها وكذا المعارف والعلوم ، انطباعا يدوم زمانا طويلا — وهذا عمل القدرة الالآهية .

أو لم يروا إلى التنويم المغناطيسي ويشاهدوا كيف يكون اتصال النفس بالجسد وكيف تقوم بأعمال غريبة مدهشة ، وكيف تظهر في النفس قدرات تخفى في غير هذا الموقف ؟ إنهم إن لم يؤمنوا بما أظهرتهم عليه الطبيعة أمهم كانوا من الضالين المتعنتين ، ومعلوم أن مرجع الانفصالات والتأثيرات ، الدماغ ، ومعلوم أن الانفعالات والتأثيرات الخارجية ، تهتز الألياف الدقيقة التي تحمل هذه التأثيرات إلى المجموع العصبي لينقدها ويجري فيها حكمة ، ومعلوم أن الأعصاب قد اختصت كل منها بوظيفة خاصة تقوم بها فلا أعصاب السمع تؤثر في أعصاب البصر ، ولا هذه تؤثر في غيرها ، وإنما يقوم كل عصب بما خلق له . ونحن إذا بحثنا مثلا حاسة البصر ، نجد أن الحركة التموجية في الأثير بتأثيرها في شبكة العين ، تحدث في العصب البصري اهتزازاً ، ونجد أن هذا الاهتزاز يمتد إلى الطبقة البصرية المستقرة في وسط الدماغ — قال : ومن هنا يندفع إلى مركز الحواس حيث ينتشر في القلالي الدقيقة ويوقظ العناصر التي وظيفتها نقل التأثيرات البصرية . إذن فكل هذه التأثيرات الحسية تتفرق ثم تجتمع في مكان خاص من الدماغ ، وقد أثبت التشريح وجود أماكن معينة في الدماغ لتجمع وتكييف هذه التأثيرات . ولقد أثبت العلماء الفيزيولوجيون بالتجربة أنهم إذا قطعوا من المادة المخية قطعة أصولية ، يفقد الحيوان قوة إدراك التأثيرات السمعية أو البصرية .

فاذا سألت الماديين كيف تتحول هذه الحركات الاهتزازية بعد

وصولها إلى مراكزها النسبية من الدماغ إلى أفكار فهمية ، قال إنها حينما تبلغ القلالى الحسية، يحدث فيها من رد الفعل مايحدث فى قلالى النخاع الشوكى. قال وهذا يحدث فى ضفدعة قطع رأسها، ومع ذلك تتشنج رجلها لدى مسيسها بحامض مهيج . قال : فالأمر نفسه يحدث فى مؤثرات القلالى الحسية ، من الدماغ أى أن القلية القشرية عند مايبلغها الاهتزاز الخارجى ، تنتبه وتفزع القوة الكامنة فيها وتمتد الحركة حتى تبلغ القلالى الغليظة، وهذه تنقلها إلى المادة الرمادية ذات الأخاديد فيها من الدماغ التى تقوى الاهتزازات وتدفعها إلى الأعضاء على شكل تأثير أو أمر أو محرك . إنا نسلم مع ناكرى النفس بكيفية مجرى الحس المعبر عنه بالاهتزاز العصبى . بيد أن هؤلاء فاتهم أمر خطير بين بلوغ الحادث إلى الدماغ ورد الفعل — هو حادث الادراك ، أى دراية الشخصية الانسانية بما حدث من الأمور الخارجية . ذلك أن الاهتزازات والتهيجات العصبية إن هى إلا حركات مادية تولد حركاتها مثلها ولكنها لاتحدث إدراكا . وما نتيجتها سوى تنبيه القوة العاقلة لادراك مصدر هذا التنبيه وعلته وغايته : قال : إن القلية العصبية المركبة من كميات متناسبة من الكوليسترين والماء والفسفور وحامض الأوميك الخ ليست بذاتها قوة مدركة ، والحركة الاهتزازية هى بذاتها حركة مادية محضة فكيف يعقل أن اهتزاز هذه القلية العصبية وانتصابها يولد إدراكا ، وهنا ماعجز الماديون عن تبيانه ، أما الروحيون فيعلمونا وجود شخصية عاقلة فينا تسمى نفسا . تنتبه بهذا الاهتزاز إلى ماطرأ من الحوادث الخارجية وعند مايتم انتباهها هذا يحدث الادراك : قال : ويؤيد ذلك بأجلى بيان حادث الذهول : مثلا عند مانكون مستغرقين داخل حجرتنا فى أى عمل من

الأعمال، إنا نغفل عن تكتكة الساعة بل عن طريق ناقوسها أيضا مع أن اهتزازات الصوت أثرت فى عصب سمعنا وبلغت حتى الدماغ دون أن ننتبه لها . وما ذلك إلا لأن نفسنا المستقلة بأفكار أخرى لم تنتبه ولا أثرت فيها اهتزازات القلالى الدماغية ، فلم يحصل الادراك السمعى. والحاصل أن المادة بذاتها عديمة الاختيار لاتولد شيئا من نفسها ، والمادة الدماغية آلة لتبيان احساسات النفس العاقلة وأفكارها ، فلا تعقل لما يصدر بواسطتها من التعبيرات الفكرية كما أن آلة الساعة مثلا ، لاتدرك حركة الأوقات التى تشير إليها ، ولا قراطيس الكتاب ، الأفكار المسطرة عليها ، ومن زعم أن الدماغ يدرك الفكر كمن يزعم أن الساعة تدرك حركة الوقت ، والقرطاس معانى الكتابة

ومالنا نعنت أنفسنا ، ونكد عقولنا ، فى نقد المذهب المادى ، ونقض ماقام عليه المذهب الدروينى ولدينا من أراء فحول المادية ، ومشهورى الطبيعيين مايغنينا عن ذلك — ويبين للملأ أن قدرة الخالق ظاهرة فى كل الموجودات ينطق بعظمتها وحكمتها حتى أصحاب الجحود ممن عاشوا فى جلودهم، وعبروا عامة عمرهم بين معامل الكيمياء — لايخنعون إلا للظاهر المحسوس ولا هم يؤمنون إلا بما هو طبيعي ذو أثر بين .

وإنا موردون طائفة من هذه الآراء يستعرضها القارئ الكريم ليجرى من بعد ذلك حكمه غير خاضع لمؤثر ، أو متنكب سبيل الصواب

الاستاذ ميلن — فى جامعة السربون ، يقول : إن الحيوان المسمى اكسيلوكوب من المحيرات للفكر — قال : إن هذا الحيوان — يرى طائراً فى الربيع، ويعيش منفرداً — ويموت بعد أن يبيض مباشرة، فلا يرى صغاره،

ويعيش فى مكان محكم ـ حتى إذا حان وقت البيض عمدت الأنثى إلى قطعة من الخشب حفرت فيها سردابا طويلا ـ ثم عمرته بذخيرة تكفى صغارها سنة كاملة ـ وهى طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، وتأتى بنشارة الخشب تجعلها سقفا على تلك البيضة ـ ثم تجىء بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخرى، وهكذا فتبنى بيتها مكونا من جملة أدوار ، فاذا تم لها ذلك ودعته وهلكت . قال الاستاذ إن الانسان ليدهش إذ يرى هذه العجائب ، ويرى من الناس من لايزال يقول إنها كلها نتيجة المصادفة

باستور ـ صاحب التجاريب فى الاختمار سأله سائل كيف يا دكتور نستطيع أن نوفق بين استكشافاتك العلمية والتعاليم الدينية ؟ فأجابه قائلا : اعلم بأن دروسى بدلا من أن تزعزع اعتقادى — جعلتنى فى إيمانى كالفلاح البريطانى (مثل فرنسى يضرب لشدة الاستمساك) .

هارفى — مستكشف دوران الدم فى البدن — قال : ماشرحت حيوانا إلا رأيت فيه شيئا جديداً ، وأدلة جديدة على العناية الآلهيه .

الاستاذ هوليه يقول : إن مذهب لامارك ومذهب دروين يستويان في القصور — فانهما لا يفسران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية ـ قال : فكيف استطاع الحيوان الزاحف ـ وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التى ليست له ـ ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور ، وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة ؟ أما مسألة الحشرة فأنها أشد استحالة من ذلك . فهل هناك

أية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة وبين الحشرة الكاملة ـ التى تنقلب إليها . لان الحشرة اعتادت الحياة الدودية تحت الأرض وفي المياه ، فكيف تصل شيئا فشيئا إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة لها ؟

نيوتن ـ وهو الملقب باللاهوتى الفاضل ـ دحض آراء الماديين فى أربع رسائل كتبها وبعث بها إلى الدكتور (تنبلى)

فوربه إير ـ من أقطاب الفوزيولوجية مؤسس علم الأجنة ، قال : إن الرأى القائل بأن النوع الانسانى متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل رأى فى الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان .

دوفرى ـ يقول : ان التحولات الفجائية هى القاعدة فى عالمي الحيوان والنبات وقد أعلن هذه الحقيقة (جوفر) و (سان هيلر) و (كوب)

وثبت أن الظهور الفجائى للأنواع الكبيرة الرئيسية كالزواحف والطيور وذوات الثدى ـ كان في الأرض الجيولوجية، ومتى ظهرت حصلت على صفاتها كاملة . ؟ ؟

هكسلى ـ يعترف فى كتابه (دارونيا) بانه يستحيل نقض الالوهية بحسب مذهب الارتقاء، ويقول فى مقال آخر إن من ينكر وجود الآله كما تصوره (سبينوزا) لاحمق ـ ويعترف أخيراً بالقوة الفاعلة .

دكتور موستاف هوليه ـ يقول : يكفى لابطال النظريات الدروينية ، أن يتأمل الانسان الحشرة — فانها ظهرت فى أقدم عصور الحياة الأرضية، وثبتت أنواعها فى جميع الأحوال — فهى تناقض ماذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة ، وتناقض التطور بفعل الفواعل الخارجية —

فانها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حشرة طائرة — ولا تأثير لشيء عليها من الخارج ، كما أن الهوة عميقة بين الحال الأولى — وهى الدودية، والحال الثانية وهى حال الحشرة — وهى هوة تضيع فيها ولا كرامة جميع النظريات الدروينية واللامركية — فالحشرة أدت شهادة حسية لبطلان مذهب دروين كما أثبت عجزه فى تفسير غرائزها الأولية العجيبة المحيرة للعقل .

والاس — شيخ علماء الطبيعة وشريك دروين فى كتابه عالم الأحياء يقول : إن وجود هذه الأحياء يستلزم وجود قوة محيية مرشدة مدبرة فيستلزم وجود قوة خالقة — أوجدت المادة على أسلوب يجعل حصول هذه التنوعات من الممكنات — وثانياً وجود عقل مرشد لأنه لابد من الارشاد فى كل درجة من درجات النشوء . وثالثاً لابد لهذه القوة الخالقة من غاية ترمى إليها فيما خلقته ودبرته فى هذا الكون الوسيع — طوال هذه العصور الجيولوجية الغابرة والحاضرة. وعندى أن هذه الغاية هى الانسان خلاصة المخلوقات ،وبذلك نفسر كثيراً من غرائب النشوء والخلق،والانسان هو المخلوق الذى يفهم شيئاً من نواميس الطبيعة ، ويستقصي أفعالها ويدرك قيمة القوى التى فيها — ويستنتج منها وجود العقل المتسلط عليها .

دوكاتر فاج — يقول : إن القرابة فى التاريخ الطبيعي للانسان عن القرد معدومة . إن الانسان فى العهد الحفرى الرابع ، وجد مشابهاً لنا فى الصورة (مع أنه كان يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه القردة) ثم قال : إننا لانستطيع أن نعتبر ولادة الانسان من القرد أو من أى حيوان آخر — من الأمور العلمية .

جسنرى — سنة ١٥٩٢ قال : ليس عندى شك فى أن الله خلق العالم ، إلا أنه لا بأس من معرفة كيف كان يمكن العالم أن يتكون من نفسه .

لامارك — يسلم بوجود الله وينسب إليه وجود الهيولى المركب منها الكون ، ولكنه يقول : إنه تعالى بعد أن خلق الهيولى بخصائصها ،لم يفعل شيئا ، وأن الحياة والأجسام الآلية والعقل — جميعها نتائج الهيولى ونتائج قواها — فهذا الرجل لايخالف أهل الدين فى وجود الخالق ، بل يخالفهم فى كيفية الخلق . والرأى عندى أنه فى مذهبه يتفق مع بعض المتكلمين من أهل المذاهب ، ويسير مع القدرية أو المعتزلة الذين يقولون: إن الخالق وضع المكون نظاما تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين — قوى أو قدراً . تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية ، أو بطريق الارادة والاختيار . وهم من هذه الناحية لايخالفون الفلاسفة فى قولهم بلزوم الآثار لمصادرها ، أو تأثير قدرة المخلوقين فى أفعالهم — باقى منهم إلى اليوم ، طائفة الشيعة الامامية الزيديه .

سبنسر — سائلا نفسه، ماهى القوة التى يتحتم بقاؤها ؟ أهى تلك القوة التى تؤثر فى عضلاتنا ، والتى تشعر بها حواسنا ؟ كلا . . بل هى تلك القوة المطلقة المجهولة المستقرة وراء الصور والمشاهدات ، ونحن مع عدم إمكاننا أن ندركها ، فاننا نتأكد من أنها أبدية — لم تتغير ولن تتغير — كل شيء زائل أما هى فباقية أبد الآبدين — وهي علة العلل .

ولقد سئل عالم فيلسوف مؤمن — ماقولك فى مذهب دروين ، وماذا نصنع معه . فقال : إذا كان من يصنع ساعة يعد عظيما ، فالذى يصنع ساعة تصنع ساعة يعد أعظم ، ونحن نختتم هذا الباب بهذا القول ، وفقنا الله إلى

مافيه هدينا .

(رأى سبنسر فى النشوء والارتقاء)

أما سبنسر فقد أيد دروين فى مذهبه فى النشوء والارتقاء حيث جاءنا فى الهزيع الأخير من القرن الماضى ، بقواعد أظهر فيها أن قانون الارتقاء على جهة التعميم ، إنما ينحصر فى مايقع من التغاير من حال التغاير التركيبى إلى التنافر فيه وهاك رأيه قال :

الرأى الشائع فى ماهيـة الارتقاء وطبيعته غامض مبهم لاحـد له ولا ضابط يضبطه — وقد يتسع فى بعض الأحايين بمرونة تجعله أوسع نطاقا مما يشمله مضى النمـاء الظاهرى العرضى ، كتزايد أفراد شعب من شـعوب الأرض ، أو اتساع المناطق التى تستحوزهم . على أنه فى بعض الحالات يكون له أن يتدخل فى مسالة كمية المستحدثات المـادية — هـذا إذا كان البحث مقصورا على ماهية الرقى الصـناعى والزراعى — وقد يقف عنـد حد صفات تلك المستحدثات . وقد يسترد إلى رقى الأسباب التى أنتجتها ونحن إذا قصرنا البحث على رقى الآداب والفلسـفة النظرية ، كان لابد لنا من أن ندرس حالات الأفراد والجماعات على ناحية العميم .

والرأى عنـدى أن الاعتقاد السائد فى ماهية الارتقاء الطبيعى ليس يقف عند حد الابهام والغموض بل هو خطأ لاتنتابه الحقيقه ولا هو من الحق فى قليل ولا كثير . ذلك لأنهم لايحسبون السبب الحقيقى فى حدوث الارتقاء من العوامل التى أنتجته ، ولا يؤمنون بأن المادة الصامة مجال تأثيرات هذه الأسباب . ونحن لانستدل فى كل الحالات على ارتقاء القوة المدركة فى الانسان ذلك الارتقاء الذى يظهر خلال أطوار النمـاء ، وتدرج

المخلوق فى مهد حياته حال الطفولة إلى حال الرجولة التامـة . أو فى تطور الهمجى وانتقاله من حالتـه الفطرية الأولى إلى درجة الفلاسـفة وأهـل التجربة ، إلا بتكاثر عدد الحقائق التى يستوعبها ، والسنن الطبيعية التى يدرك كنهها : على أن الرقى الحقيقى فى تغاير الصفات الباطنه التى يدل عليها التوسع فى العلم ، والاكثار من المعارف ، واستنباط المدركات ، قال : ولقد ذهب الوهم ببعض الناس إلى أن الرقى الاجتماعى إنما يكون قصراً على تكاثر كمية المستحدثات الحاجية التى تقوم بلوازم الانسان الأولية ، وتزايد تنوعها — وهموا هذا وزعموا أنه إنما يكون أيضاً فى توافر أسباب الأمن على الأرواح والأموال . أو فى التوسع فى معنى حرية الفكر . والحق إن الرقى الاجتماعى الصحيح لاينشأ فى طبيعة الكائن الاجتماعى إلا بمقـدار ماينشأ فيـه من التغايرات الجـوهرية التى تكفل له الوصول إلى تلك النتائج — بيـد أن الرأى السائد لايتعـدى القول باتصال العـلة الأصليـه بمعلولاتها — لأن ظواهر هذا الرأى لاتخرج عن تعلقه بالسعادة البشرية مباشرة

والباحثون فى ذلك لم يعنوا عناية التحقق والتثبت بتعرف أسباب الرقى المدنى إلا من طريق الرغبة فى تعرف أسباب السعادة التى ينشدها الانسان فى الحياة الدنيا . ولما كنا نقصـد إلى تعرف ماهية الرقى الطبيعي — كان من الحق علينا أن ندرس طبيعة هاته التغيرات مستقلة استقلالا تاما عما عداها من منافعنا الذاتية ، فنبحث فى التغايرات التى طرأت على الأرض متتابعة فى أزمان تكوين طبقاتها ، معتبرين أنها تغايرات طبيعية أنتجت نتاجها المعروف ، وهو إعـداد كرة الأرض — ليأهل بها الاحياء ، أو معتبرين

أنها السبب فى رقي طبقات الأرض وتكوين مراتبها ، فنبحث فى ماهيات التغايرات وفى السنن الطبعية التى بمؤثراتها سببت هذا التكوين

قال : ونحن إذا وقفنا وقفة تأمل وتفكير ، وجدنا أن علماءنا بنوا أساس الحقائق التى تتصل بطبيعة الارتقاء الذى يهيمن على أفراد العضويات عامة فى سلسلة تحولها ونشوئها ـ ذلك لأن («ردلف» «وجوت» «وفوند باير») أظهروا أن سلسلة التغاير التي تحدث خلال نماء الحبة النباتية إلى أن تصير شجرة كاملة ، والبيضة الأولى أن تصير رجلاً كاملاً ـ تنحصر فى الرقى من التجانس التركيبي إلى التنافر فيه ، فكل جرثومة حية تكون فى حالتها الأولى مركبة من مادة متجانسة تجانساً تاماً فى تكوينها الطبيعى وتركيبها الكيميائى . وأول خطوة تخطوها ، تغير أجزاء مادتها الأصلية أو كما يسمى ذلك ـ علماء علم وظائف الأعضاء (تغير عضوى) ويقصدون بذلك تكون أعضاء جديدة بها وظائف خاصة وكل جزء من الأجزاء التى ينتابها هذا التغير العضوى يبتدىء فى الظهور بتباين خاص يقع بين أجزاء الجسم ثم يتدرج فيصبح له شأن تلك التغيرات العضوية المتضعة ، لا يقل عما للأعضاء الرئيسية مكانة وشأناً ، وهكذا تمضى تلك التغيرات العضوية غير المتناهية ، متتابعة الحدوث مستمرة التأثير فى كل عضو من أعضاء الجنين الآخذ فى أسباب النماء وبمفعولها ينتج اختلاط الأنسجة ، التى يتكون منها نبات أو حيوان بالغ حدا لنماء الطبيعى ـ ذلك هو تاريخ العضويات الطبيعى وهو يثبت أن رقى العضويات الطبيعى محصور فى التغير من التجانس التركيبي إلى التنافر فيه ، وهو يقول أيضا :

إن سنة ذلك الرقى العضوى ، سنة أشكال الرقى الطبيعى عامة

ذلك أن كل مافى الكون ـ مثل تكوين الأرض ونماء الحياة فيها ، أو رقى الجماعات فى العمران ، ونشوء الحكومات ، والصناعات والتجارات وكذا الآداب والعلوم والفنون ، إنما تخضع جميعها لهذه السنة الطبيعية فى التغير التدريجى ، من وحدة نوعية إلى اختلاط وتكاثر نوعى . فالانتقال من حالة التجانس إلى حالة التنافر ـ كان هو الباعث على أحداث الرقى منذ ظهر أول أثر للتغيرات الكونية فى الوجود إلى أن بزغ فجر مدنية العصر الماضى »

العرب ومذهب التطور

هاك ماجاء فى الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا (طبعة بمباى)

«واعلم يا أخى أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن وأخرها وأشرفها مما يلى الحيوانية النخل وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشىء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب مابينهما »

وجاء فى هذه الرسالة أيضاً

« وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلى الحيوانية . وذلك أن النخل نبات حيوانى لان بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وإن كان جسم نباتياً »

واستدلوا فى هذه الرسالة على أن القوة الفاعلة فيه غير منفصلة عن القوة المنفعلة ودللوا على ذلك بأن أشخاص الفحولة فيه مباينة لأشخاص الأنوثة وتدرجوا من ذلك إلى ايراد أغلب الأوصاف التي يضعها علماء النبات فى هذا الزمان حداً لأوصاف النباتات الراقية من ذوات الفلقتين أرقى صور النبات فى العصر الجيولوجى الذى نعيش فيه

« وفي النبات نوع آخر فعله أيضاً فعل النفس الحيوانية وإن كان جسمه جسما نباتيا وهو (الأكشوث) وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات »

« إن أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التي تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها فاذا أحست برطوبة ولين انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الانبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها . وليس لها سمع ولا بصر ولا شم إلا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التي تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج إليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة . لانه لو أعطاها مالا تحتاج إليه لكان وبالا عليها في حفظها وبقائها فهذا النوع حيوان نباتى

لانه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات. ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان . ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة . وتلك الحاسة أيضاً هى التي يشاركها الحيوان فيها . وذلك أن النبات له حس اللمس حسب . »

ومن كتاب دوروين أن الانتخاب الطبيعي لا يؤثر في الاحياء إلا من طريق فائدتها المطلقة ،وأن حدوث الصفات الضارة بالانواع أمر غير واقع بالفعل من ناحية الانتخاب الطبيعي ، وذكر أنه لو كان في أى تغاير ضرر ما بالانواع لبادت وانقرضت و(أخوان الصفا يسمون حكمة الآلهية مايسميه داروين انتخابا طبيعيا)

وجاء فى الفوز الاصغر للعلامة أبى على أحمد بن محمد بن مسكويه المتوفى (سنة ٤٢١هـ) «إن أول أثر ظهر فى عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى ، أثر حركة النفس فى النبات وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء، وللنبات فى قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنا نقسمه إلى ثلاث مراتب الأولى والوسطى والأخيرة ليكون الكلام عليه أظهر، وأن لكل مرتبة من هذه المراتب غرض كبير ، وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة ، وبهذا الترتيب يمكننا أن نشرح ماقصدنا إليه من إظهار هذا المعنى اللطيف . » ثم قال فى مرتبة النبات الأولى « إن مرتبة النبات الأولى فى قبول هذا الأثر الشريف هو لما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذور، ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش وذلك أنه فى أفق الجماد والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة فى قبول أثر النفس » . نقول والنباتات التى يقصدها ابن مسكويه هى الفطريات،أى النباتات التى تتكاثر

بواسطة الخلايا الجرثومية . ثم قال : « ولا يزال هذا الأثر يقوى فى نبات آخر يليه فى الشرف والمرتبة إلى أن يصير له من القوة فى الحركة بحيث يتفرع وينبسط ويتشعب ويحفظ نوعه بالبذر ويظهر فيه من أثر الحكمة أكثر مما يظهر فى الأولى ، ولا يزال هذا المعنى يزداد فى شىء بعد شىء ظهوراً إلى أن يصير إلى الشجر الذى له ساق وورق ويحفظ نوعه وهذا هو الوسط من المنازل الثلاث» ولعله يريد بها مرتبة الحشائش والأعشاب .

ثم انظر كيف عاد ابن مسكويه فاحتاط لنفسه واستدرك كلامه حيث قال : « إلا أن أول هذه المرتبة متصل بما قبله واقع فى أفقه، وهو ما كان من الشجر على الجبال وفى البرارى المنقطعة وفى الفياض وجزائر البحار ولا يحتاج إلى غرس بل ينبت لذاته ، وإن كان يحفظ نوعه بالبذر وهو ثقيل الحركة بطىء النشوء » ولما أن انتهى من المرتبة الثانية وتعريفها وتحديدها والتنبيه على خصائصها وميزاتها عاود الكلام فى المرتبة الثالثة من مراتب النبات فقال : « ثم يتدرج فى هذه المرتبة ويقوى هذا الأثر فيه ويظهر شرفه على مادونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة التى تحتاج إلى عناية من استطابة التربة ، واستعذب الماء والهواء ،لاعتدال مزاجها وإلى صيانة ثمرتها التى تحفظ بها نوعها كالزيتون والرمان والسفرجل والتفاح والتين وأشباهها » ولعله يريد بذلك ذوات الغلاف من مرتبة ذوات الفلقتين .

ثم عاد يقول « إذا انتهي إلى ذلك ـ أى النبات ـ صار فى الأفق الاعلى من النبات وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات وقبل حينئذ صورة الحيوان »

وقال أيضا فى حركة النبات الانقلابية إن هذه المرتبة الأخيرة من

النبات وإن كانت في شرفه فانها في أول أفق الحيوان وهى أدون مرتبة فيه وأخسها وأول مايرقي النبات في منزلته الأخيرة ويتميز به عن مرتبته الأولى هو أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج إلى إثبات عروقه فيها بما يحصل له من التصرف بالحركة الاختيارية وهي المرتبة الأولى من الحيوان،ضيعفة لضعف أثر الحس فيها وإنما يظهر فيها بجهة واحدة أعنى حساً واحداً هو الحس العام الذى يقال له حس اللمس كما فى الصدف وأنواع الحلزون الذى يوجد في شواطئ الانهار وسواحل البحار . »

ثم هو يقول فى مكان آخر إن الانسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم وإنه بقبوله الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى حتى رتبة أعلى من مراتب البشر .

ثم هو يعود فيبنى المراتب التى تدرج فيها الانسان من صورة إلى أخرى حتى وصل إلى ماهو عليه فيقول ،إنها«مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقة الانسانية وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا »

فأى فرق بينه وبين داروين أو لامارك فى مذهب النشوء والارتقاء وفى تطور المخلوقات ؟ ومن الاسبق في الفكرة وقد قبر من ،قبر واشتهر بالابداع من اشتهر .

ولقد توسع في البحث وأفاض فى الموضوع فكتب في ثبت كتابه تهذيب الاخلاق(في الاجسام الطبيعية) بعد أن ذكر انتقال الحيوانات التى لم تعط من قوة الفهم إلا الشىء القليل ـ إلى مرتبة القرود وانتقال هذه إلى مرتبة الانسانية قال : ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان الذى

يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويشبهه من غير تعليم كالقردة وما أشبهها وتبلغ من ذكائها أن تستكنى من التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار من أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها فاذا بلغ هذه المرتبة تحرك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقى والامعان فى هذه المراتب من الافق الانسانى المتصل بآخر ذلك الأفق الحيوانى ، مراتب الناس الذين يسكنون فى أقاصى المعمورة من الأمم التى لاتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة . ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن تصير إلى أواسط الاقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل وإلى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات »

ثم اسمع الآن مايقوله الخازنى فى القرن الثانى عشر من الميلاد . « عند مايسمع العامة الفلاسفة الطبيعيين أن الذهب جسم بلغ حد الكمال والارتقاء، يعتقدون جد الاعتقاد أن الذهب لم يصل إلى حالته تلك بتنقله بين أنواع الأجسام المعدنية كلها أى كانت الطبيعيه الذهبية من قبل رصاصاً ثم صارت بعد ذلك قصديراً فنحاساً ففضة حتى بلغت درجة الذهب وكأنى بهم لايعلمون أن الفلاسفة الطبيعيين يريدون بقولهم ذلك مايريدون أن الانسان بلغ حد الكمال والتوازن فى طبيعته وتركيبه . فليس معنى ذلك أن الانسان كان يوما عجلا فصار حماراً فقدا حصاناً فأضحى بعده قرداً حتى صار فى النهاية إنساناً ! . »

تأثير الوسط (مذهب ابن خلدون)

يقول ابن خلدون فى صحيفة ٦٩ من المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر وفى أحوالهم : « وقد توهم بعض النسابين ممن لاعلم لهم بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لاغير . وفى القول بنسبة السواد إلى حام علة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الاقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين فى كل سنة قريبة إحداهما للأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويحل القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر » ثم هو تراه يتدرج من هذا ومن أثر المناخ فى الظاهر المحس من أجسام الخلق إلى تأثير هذا فى أخلاقهم حيث يقول فى أول المقدمة الرابعة « استولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم فكان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطا ويجىء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ولما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة فى

الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلال والجبال الباردة »

(ابن خلدون — تأثير الأغذية)

ولقد سبقهم إلى هذا العلامة ابن خلدون فقال فى مقدمته : «ومن تأثير الأغذية فى الأبدان ماذكره من أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة فى بعر الأبل واتخذ بعضها ثم خضبت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطارح ذلك البعر مع البيض المحض فيجىء دجاجها فى غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من الأغذية فى الأبدان فلا شك فى أن للجوع أيضا آثارا فى الأبدان لأن الضدين على نسبة واحدة فى التأثير وعدمه »

وجاء فى مقدمة ابن خلدون ص ٨٠ من الطبعة الأميرية — فى شرح تسلسل بعض الأحياء من بعض وفى تفسير النبوة : حديث طويل منه « ثم انظر إلى عالم التكوين » الخ

ومنه ماقاله الجاحظ فى النقلة وتزاوج التنوعات وانتاج الأنسال الجديدة فى ص ١٥١ م ٣ « أن بين ذكورة الخنافس والجعلان تسافد وأنهما ينتجان خلقا ينزع اليهما جميعاً » وقال فى ظهور الخاصيات المتوارثة فى كتابه ص ١٥٨ م ٣ « أن الجعل يظل دهراً ولا جناح له ثم ينبت له جناحان كالنمل يعبر دهراً لاجناح له ثم ينبت له جناحان وذلك عند هلكه ، والدعاميص قد تغير حيناً ثم تصير فراشاً وليس كذلك الجراد والذباب لان اجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور من الأيام »

أصل الانسان

ومسألة التطور

فرغنا من مناقشة مسائل هذا الكتاب ، وانتهينا مما أسلفنا القول فيه — إلى الرأى القائل بتسلسل الكائنات بعضها من بعض ، وتدرجها خاضعة لناموس التطور من حال إلى حال ، ومن مرتبة إلى أخرى — فمن الجماد إلى النبات إلى الحيوان ، حتى الانسان ذلك أن أرقى مرتبة المملكة المعدنية ، يتصل بأحط المملكة النباتية وأرقى المملكة النباتية يتصل بأحط المملكة الحيوانية . جاء فى الرسالة الثانية من رسائل إخوان الصفاء مانصه .

إن أول مرتبة النبات متصل بآخر مرتبة الجواهر المعدنية ، وآخرها متصل بأول مرتبة الحيوان ، وأول مرتبة الحيوان ، بأول مرتبة الانسان وجاء فى نفس الرسالة أن حيوان الماء وجودها قبل حيوان البر بالزمان ، لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر . وهذا يدل على ان العرب قد عالجوا هذه المسائل قبل أهل الغرب .

فاذا تكلموا فى عالم الأحياء قالوا إنه يبتدىء بالمونيرا وقالوا إن طائفة الحيوانات النقوعية هى التى ظهرت أولا فى هذا العالم وكذا الزوفيت (نوع من الحيوان له شكل النبات) ثم الحشرات فالأسماك فالدبابات فالطيور فالحيوانات التى تعيش فى الهواء والماء وأخيرا ذوات الثدى .

وما فرطنا فى الكتاب من شىء يقع موقع الضرورة فى الرد على أصحاب المذهب المادى ، ودحض مايخالف المعتقد الدينى وإنما جئنا بثلة من قول المادية مستشهدين بآرائهم على صدق ماذهبنا إليه ، وما نبغى من ذلك أن

نعيش بالعقيدة لنعكف قانعين بها ،مقبلين عليها،معرضين عن النظر فى العلوم واستمراء نظرياتها والفلسفة واستيعاب مسائلها — وفى ذلك مدار اللاعة ومستقر المعابة لأنه مفتاح الجهل مغلاق الفهم . وإنما نحن نؤثر العقيده ونفضل التدين على الالحاد وهجر هيكل الايمان ونرى إلى جانب هذا أن الدين لايحرم النظر فى الطبيعة — وتعرف ماهياتها وكيفياتها ولا يحول دون تحصيل العلم والاكباب على موائده وترشف سلسبيل مناهله العذبة بل هو يأمر بطلب العلم ولو بالصين ، ويفرضه فرضا على كل مؤمن ومؤمنة

ونحن نعلم أن الأمم مابلغت مبلغها من الحضارة إلا بعد أن تحدث سير النواميس الطبيعية وهذه أمة اليونان مثال صادق لذلك ، ونعلم أن الأمم تتسفل إذا هى أغفلت شأن النواميس الطبيعية وأهملت مراعاتها فى مايختص بالبيئة والغذاء والنسل . وفى مايختص باستسلامها للعادات والملكات المهلكة بل ونعلم فوق ذلك أنه لولا تعرف قوى الطبيعة،وهتك مساتير بعض مافيها من أسرار — لماطار (ريط) فى الفضاء ؟ ولا سخر ماركونى الهواء ، ولا جاب غائص عباب الماء ، ولا استكشف إديسون الكهرباء ، ولا كانت مظاهر هذه المدنيه التى يزهو بها الانسان زهوا كبيرا .

إذن فما بال الناس يرتادون موائل الأدب،ويتفيأون ظلاله،ويتفوقون أفاويقه ، وهم مع ذلك لاهون عن العلم لايأخذون منه حظا موفورا ، وقد أصبحت سبلة هينة لينة . ومنافعه عامة شاملة — وإن عميت على كثير من اهل الجمود والتعصب المقيت .

وبعد . فهذه أوربا قد اهتزت فى القرن الماضى لأبحاث درون الانجليزى ولامارك الفرنسى ، واهتمت بآراء الرجلين اهتماما كبيرا ،وزعم العلماء أن

دارون هذا قد أبدع فكرة تسلسل الانسان من أصل قردى . نقول وهذه آراء قديمة قال بها العرب فى غابر الزمان ، ثم انطوت عليها بطون الكتب ، وطاف عليها طائف النسيان ، إلى أن ظهر دارون وتهيأ له أن يمعن فى دروس الطبيعة ، وتأتى له أن يلتحق ببعث علمى — فانتجع مع هذا البعث ربوعا وأصقاعا كثيرة — ووفق إلى دراسة الأحافير دراسة حس ومشاهدة ، ثم عاد إلى بلاده وقد عمر رأسه بالكثير من العلوم والتجاريب، فكانت له تلك النزعة ، وكان له أن وضع كتابه أصل الأنواع وأدمج فيه تلك الآراء القديمة بعد أن هذبها وشذبها واستجلى غامضها — بفضل تقدم العصر وتكاثر المخترعات والمستكشفات .

نقول ولقد ذكروا أن أول من قال بتدرج الانسان من الحيوان هو ابن الطفيل أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسى الفيلسوف الطبيب — له عدة مصنفات فى الفلسفة والهيئة وهو صاحب الرسالة المشهورة فى أسرار الحكمة المشرقية التى سماها حى بن يقظان أودعها من أسرار العلوم والحكمة مادل على تفوق واقتدار وقيل إن هذه الرسالة من عمل الرئيس ابن سينا . وأنت تقرأ هذا واشباهه مما يدل على أن فكرة النشوء والارتقاء كانت قد اختمرت فى عقول العرب . تقرأه فى رسائل إخوان الصفاء وفى مصنفات ابن مسكويه المتوفى فى آخر القرن الرابع الهجرى .

ولقد كنت صغيرا ، وكنت أسائل الناس — كل ماوقع نظرى على القرد — عن حال هذا الحيوان وأصله فكنت أسمع منهم جميعا حكاية واحدة مغزاها أنه كان إنسانا فعصى ربه وحقت عليه اللعنة فسخطه حيوانا . ولقد كنت أتهيب الخطيئة وأخشى المعصية خيفة أن اسخط فأكون قردا

فلما سمعت بأن علماء أوروبا يقولون إن الانسان من أصل قردى ـ لم يكن هذا ليقع من نفسى موقع الاستغراب، والدهش ، بل قلت فى نفسى إنهم لم يجيئوا بشىء أكثر من أنهم عكسوا الحكاية — فالعامة عندنا تقول إن القرد من أصل إنسانى، والخاصة عندهم تقول إن الانسان من أصل قردى.

وإن تعجب لما تقول به العامة عندنا وتستبعد تصديقه فانا لا نجد فى ذلك من غرابة بعد أن قرأنا فى أحدى الصحف الافرنجية (جريدة الايكودى بارى) أن أحد العلماء الذين زاروا الكونغو فى العهد الأخير يقول بنفس هذا الرأى ويروى أن قبيلة من الناس كانت تعيش بالقرب من (بلونو) من عهد عهيد فأخنى عليها الدهر، وانتابها الفقر المدقع فآوت الى الغابات خيفة الذل والاسترقاق والعبودية قال: وهناك فى جوف الغابات العذراء وتحت تأثير الحياة الوحشية سنوات عديدة تبدلت جسوم أولئك الناس، وتغيرت أشكالهم، واختفى جلدهم تحت طبقة من الشعر وفقدوا ميزة النطق، ولكنهم أصبحوا ذوى خفة لأنهم اعتادوا أن يقضوا أغلب أوقاتهم متسلقين الأشجار ولا تزال الأنسال من هذه الطائفة تعيش فى جوف الغابات الواسعة فى أفريقيا الوسطى ولا يزال الناس هناك يسمونهم بالناس القردة.

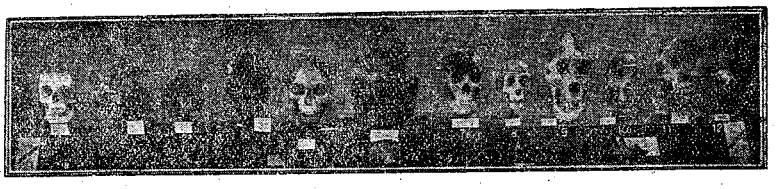

هذه مجموعة تمثل جماجم أعلى القردة وأحط الانسان ثم إنسان اليوم. فالرقم (١) من اليسار يمثل جمجمة انسان هذا العصر، وهكذا تمر من هذا الرقم إلى الرقم

(٧) بسلسلة معنعنة لجماجم الانسان فى عصور مختلفة، وانحاء متباينة، من هذا العالم. أما الجمجمة الثامنة عداً ـ فهى للغورللا. والتاسعة للغورللا أيضاً. والعاشرة للشمبانزى. والحادية عشرة للأورانغ أوتانغ والثانية عشرة للجيبون.

وقد أخذت هذه الصورة من المتحف الطبيعى الأميركى فى نيويورك وإنما رتبوا هذه الجماجم فى المتحف الأمريكى الطبيعى ليقربوا إلى الأفهام فكرة تسلسل الانسان والقرد من أصل واحد. وانما تكرر العدد (٧) فى هذه المجموعة لأن الجمجمة الثانية لهذا العدد هى المقصودة اما الأولى المتوسطة هذه الصورة ـ فمثال تقريبى لصورة ظنية تبين ما كان عليه الانسان الغابر من الشبه قبل نصف مليون سنة.

ولم تكن هذه الأفكار لتقع بخاطر هؤلاء أو أولئك عفواً، ومن غير ماسبب، ولكن هذا يدل على ملاحظة وتفكير أدى بالباحثين إلى أبحاثهم هذه فالشبه الذى نلحظه فى أنواع القردة الراقية وحالاتها، وتكوين أعضائها، والمقابلة التشريحية لهذه الأعضاء، ومقارنة هذا كله بالمنحط من الجنس الانسانى مثل قوم الهوتنتوت (مملكة انغولا فى الكونغو من املاك البرتغال) كلها تبعث على البحث والتفكير، وهى التى حدت بهؤلاء إلى القول بأن القرد والانسان فرعان من شجرة واحدة أصلها مفقود — وهو مايعبر عنه بالحلقة المفقودة.

جمجمة الانسان من ٥٠٠،٠٠٠ سنة

هذه صورة تقريبية للانسان الغابر حسبما يتصورها العلماء ـ أو كما تتناسب مع ماعثروا عليه من جماجم الانسان في العصور الخالية ـ وهى تمثل صورة الانسان من نصف مليون سنة

يقولون إنه كلما اكتسب الجسم خصائص وميزات جديدة ـ كلما اكتسب مثلها أشكالا جديدة قالوا ولقد توصلت الطبيعة شيئاً فشيئا إلى توليد الحيوانات التى وقفت عند حد معين . قالوا وإنما يجب أن يلاحظ أن شكل تركيب الجسم ليس هو الذى يولد فى الحيوان العادات والغرائز، وإنما الذى

تتكيف به أشكال الجسم على مرور الزمن هى العادة والحالة المعيشية وما إلى ذلك . يقول لامارك لو أن القرد الراقى من نوعه كان يفقد شيئا فشيئا ضروريات الأحوال التى تدعوه إلى تسلق الأشجار والقبض برجليه على الفروع والأغصان ، لكانت أفراده بعد أعقاب كثيرة تصبح مضطرة إلى استخدام سوقها وأرجلها للسير والعدو ، قالوا فاذا أبطلت استخدام أرجلها واستخدمت أيديها فانها تفقد بذلك تفرق أباهيم أرجلها بتاتا، وتتحول من الشكل القردى إلى الشكل الانسانى. قالوا إن الهيكل العظمى لأرقى أنواع القردة وأحط أنواع الانسان يدل على أن شكل التركيب العظمى وعدد قطع الأعضاء واحدة، لولا اختلاف فى الفم وطول فى الذراع وتباين فى عقد أصابع الرجلين. ولولا الاختلاف الكائن فى زاوية الوجه (وهى زاوية تعمل من خطين أحدهما أفقيا من أعلى الفك إلى مقدم الوجه، والثانى عاموديا من أعلا نقطة من الجبهة حتى يتقابل مع الخط الأفقى) ذلك إن هذه ناقصة فى القرد من ثمان إلى عشرة درجات ، وقالوا إن مقابلة علم التشريح تظهر ناعلى مابين سكان أواسط أفريقيا (الهوتنتوت) وأورانغ أوتانغ من راقى القردة التى يطلقون على واحدها إنسان الغاب، والتى تسكن الغابات فى أفريقيا والهند ـ من الاتصال، سيما فى الاعضاء البدنية، والوظائف الجسدية ، والهيكل العظمى، فانها واحدة فى الجنسين . وقد علل لامارك الاختلاف الحاصل من زيادة ذراعى القرد وكبر أبهام رجليه، بأنهما تأتيا للقردة من العادة والاستعمال ، ومن التمرينات الرياضية التى كانت حالتها الوحشية تضطرها إليها، واستدل بذلك على أن بعض أطراف الجسم عند طائفة من الناس تنمو أو تضمر بالنسبة الى الاستعمال المستمر أو الراحة الدائمة . قال وإن الأعضاء الصوتية فى القردة الراقية تشابه

التى فى الانسان لولا أن كيسين غشائيين قائمين إلى جانب حنجرة القرد يعترضانه إذا هم بالكلام

جمجمة الانسان من ١٢٥٠٠٠

ولقد حدا البحث بأستاذ من أساتيذ جامعة شيكاغو اسمه ريشارد جاردنر الى درس حالات القردة الراقية فنزح إلى غابات الكونغو وعاش ردحا طويلا من الزمن فى هذه الغابات يتسمع حديث القردة ويدون كل مايقف عليه من ألفاظها التى تستعملها للتعبير عن حاجاتها،

وهذه صورة تناست شكل الجمجمة رقم ٢ وهي للانسان من ١٢٥٠٠٠ سنة

فتعلم الكثير من لغتها بالاختبار والتكرار .

قال هكسلى فى كتابه « معرفة الظواهر الحية » . من السهل أن نبين أن الانسان بالنظر إلى المخلوقات لايختلف عن الحيوانات التى هى دونه اوقريبة منه ، أكثر مما تختلف هذه الحيوانات عن التى من صنفها

ويقول ليل إن إرتقاء الانسان حدث فجأة ويستدل على ذلك بظهور نوابغ فى التاريخ لم يسبق لهم أجداد نوابغ .

يقولون هذا ويزيدون عليه أن أهالى جزر فلبين يعشن على الأشجار عراة متمنطقين ببعض أوراق الشجر كالحيوان لايتجاوزن ٤ ½ قدم

تلك آراؤهم فى هذا الموضوع ،

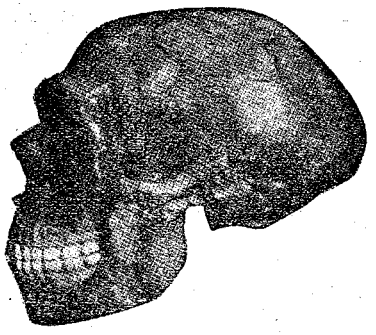

وإنا لذاكرون الى جانب هذه أراء من سبقهم من العرب فنقول: جاء فى الرسالة السابعة لاخوان الصفاء مانصه — أما القرد فلقرب شكل جسمه من شكل جسد الانسان ، صارت نفسه تحاكى أفعال النفس الانسانية .

جمجمة الانسان من ٥٠٠٠٠ سنة

وذكر الدميرى فى «حياة الحيوان» عن القرد مانصه :— وهذا الحيوان شبيه بالانسان فى غالب حالاته ،فانه يضحك ، ويطرب ، ويحكى، ويتناول الشىء بيديه ، وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر، ويقبل التلقين ، والتعليم،ويأنس بالناس ، ويمشى على أربع مشيه المعتاد ، ويمشى على رجليه حينا يسيرا،ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشىء من الحيوان سواه،فهو كالانسان وإذا سقط فى الماء غرق كالآدمى الذى لايحسن السباحة ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة

هذه صورة الانسان من ٥٠٠٠٠ سنة

على الأناث ، وهما خصلتان من مفاخر الانسان،فاذا زاد به الشبق استمنى بفيه،

وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة الخ .

ولقد أثبت علماء التشريح ،فى تشريح طائفة القرده التدرج الآتى — غالغو — لورى — تارزيه — ما كى — سباجو — وستيتى — بابوان — ايتيل — بونغو — چيبون — ماغو — سيمرى — أورانغ أوتانغ أما لامارك فيقول فى كتابه « طبقات الارض » : إن الجنس البشرى يجوز لنا أن نعتبره هو الجنس الأكثر ارتقاء فى طائفة ذوات الاربع الأيدى .

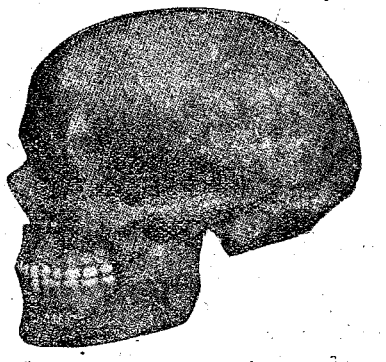

جمجمة الانسان من ٢٠٠٠٠ سنة

ومهما يكن من أمر هذه النظريات ومن قيمتها فى الأهمية ومكانتها الفلسفية فأنها حيال أصل الحياة، وحيال خصائص الانسان وما فيه من استعداد وملكات — مهما يكن من القول بأن بعض الراقى من الحيوان لايختلف فى شكله وحالاته عن المنحط من الانسان ، فان هذا كله لايحل لغز الحياة . وستبقى هذه المسألة سرا مكنونا حتى تتغير نور الشمس بظلمة الرمس ، وحتى يمحو الله آية هذا السيار من لوحه . لقد حاولوا استكشاف

صورة الانسان من ٢٠٠٠٠ سنة

سر الحياة فى المعامل الكيميائية فحللوا وركبوا ليتعرفوا الحياة ولكنهم وقفوا مكتوفى اليدين إذ علموا أن مايحللونه يفقد الحياة بين التحليل والتركيب، وهذا هو السر العظيم الذى عند بابه تقف قدرة الانسان الطامع فى الوصول الى السوبرمان . لقد زعموا أن التطور قد سار مع الموجودات منذ نشأتها حتى بلغ الانسان مبلغه هذا، ولكنهم يلجأون الى الفروض حيال أصل العالم أو الحياة . قالوا فاذا كان التطور قد وصل بالمخلوقات من الرقى الى هذا الحد الذى سلح الانسان بكل مافيه من قوة تسخر له الطبيعة، فلماذا لانتظر فى مستقبل الأيام إنسانا كاملا، تكون نسبته لنا كنسبتنا للمنحط من إنسان ذلك العصر البائد ؟ ولعمرى ليس من يبغض ذلك . ولكن انى تحقيقة ؟

ولقد وقفوا إلى استكشاف جماجم الانسان فى العصور الخالية من ٥٠٠٠٠ سنة وتخيلوا لها صورا ظنوا أنها تتناسب مع إنسان، ذلك العهد كل ذلك ليقربوا بين الانسان والقرد ولكن الهوة لاتزال قائمة، والحلقة لاتزال فاقدة ، مع ماجاءنا به العلم من استكشاف واختراع .

كما انهم وقفوا من قبل ذلك الى استكشاف القاعدة المادية للحياة فأطلقوا عليها اسم البروتو بلازما Protoplasma . فازادهم هذا كله إلا حيرة وارتباكا، ولا قربهم من محجة الحقيقة قيد شعرة ذلك لأن معرفة (الكم والكيف) ماهيات الاشياء وكيفياتها شىء — والقدرة على الابداع شىء آخر .

من أين جاءت الحياة لهذه البروتوبلازم ؟ هنالك يظهر عجز الانسان ويقف عند حده مهما حاول من مكابرة أو مهاترة ، وهنالك تنهار الدعامة

التى يقوم عليها المذهب المادى وتتصدع أركانه

لأنهم يعيشون فى جلودهم فلا يزكون وجداناتهم فهم فى غمرة المادة يعمهون على حين أنهم يهاجموننا يريدوننا على أن نخرج من دورنا وقد عشنا آمنين بمناسكنا مطمئنين إلى مساكننا، مندمجين فى حسناء، وكان أولى لهم أن يدلونا على ماهو أنفع وأبقى مما نحن عليه حتى نستطيع أن نقارن بين ما نحن به مؤمنون، وما يدعوننا اليه إنما هم يعيشون فى أجواء من الشكوك والريب والظنون والمفترضات.

بقيت مسألة التحول ومداها ـ نقول: والرأى الشائع فى العهد الأخير أن للتحول حداً لا يعدوه، فاذا بلغه المتحول عاد أدراجه، وهكذا (ماتم شىء إلا بدا فى النقصان) وهى قاعدة معروفة سائغة حتى عند الاقتصاديين إذ يقولون بان فدان الأرض الذى يحتاج إلى كمية معينة من السماد ينتج نتاجا طيبا إذا تعهده صاحبه بما يحتاجه فاذا زاد السماد نقص المحصول. والرأى عندى أن هذا ما يؤيده الواقع فى كل ظاهرة من ظواهر الوجود ـ وهذه مدنياتنا القديمة تشهد بان الانسان الغابر كان قد بلغ شأوه من الكمال النسبى ثم عاد القهقرى، وأن المدرسة المادية قد هيمنت على العقول ردحا طويلا من الزمن نالت فيه حظها من الحياة، وعما قريب سيأخذ ظلها فى التقاص وسيحل محلها ماهو انفع للناس وأبقى ـ (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) ؟

حسين حسين

تنويه ـ أسلفنا القول فى هذه المقدمة بأننا لا ننزع نزعة ارنست هكل فى موقفه حيال الدين، وواضح من هذا أننا نقدس الأديان ونجل المتدينين. وحسب المتدين أنه صاحب عقيدة تقيده فى كل شؤونه التى تتصل بالأفراد والجماعات، ويكون له منها وازع وعليه رقيب، فصاحب العقيدة اجتماعى يرعى الواجب ويقدس الحق، أما منكر هذا أو الكافر به، أو المعطل، فاباحى متمرد على النظم الاجتماعية والقوانين الوضعية، والشرائع السماوية، يؤثر منافعه الخاصة ايثار أبيقورس للذة الحسية.

ولقد وقع بعض الخطأ فى هذه الطبعة وهو مالا يند عن عقل اللبيب، فمنها ماجاء فى ص٩ س١٤ ـ ابن سينا والوجه ابن رشد. وماجاء فى نفس هذه الصحيفة فى السطر الثانى ـ تعتقدون والوجه تظنون الآية فى آخر الاصحاح الخامس من انجيل يوحنا. وندر أن توفق الى مطبوع عربي تقرأه غفلا من تحريف فى الحروف أو تصحيف فى المفردات، لهذا نحن نستميح القارئ عذراً اذا هو وقف على شىء من ذلك.

على حين أنا على يقين من أن الكمال لله وحده فما كان لنا ان نتوسم تأييداً مطلقا وتحبيذا عاما شاملا لعملنا هذا ولا يقع بخاطرنا ان مخلوقا من المخاليق قام بعمل أرضى الخاصة والكافة من أهل جيل من الاجيال. من اجل هذا نحن نتقبل كل نقد انسرحت نفس صاحبه من غواشى الحقد، والنقد آداة الاصلاح. ومن الناس من يزن الكلام بميزان الحق وينظر الى الامور بعين التحقيق أولئك هم اهل النصفة دعاة الاصلاح. ومنهم زمرة تعمد الى المهاترة وتضليل العقول ـ يدعون العلم بكل شىء ويأكلون على كل مائدة تطفلا وجهلا. وهم علم الله ليس لهم فى حلبته جمل ولا ناقة ولا يذكرون منه فى مقدمة ولا ساقة، وأنى كان للنوق آثار فى الانوق؟

وفى الكتاب «شجرة نسبية لسلسلة الحيوانات الفقرية» نقلناها الى العربية بعد جهد جهيد، وعناء شديد، لصعوبة ترجمة ما تحويه من الاسماء الغريبة، وقد عن لنا أن نأتى هنا بالاصل والترجمة معا تبيانا لمن يرغب فى الرجوع أو التحرى وهاك هو على الصحيفة التالية:

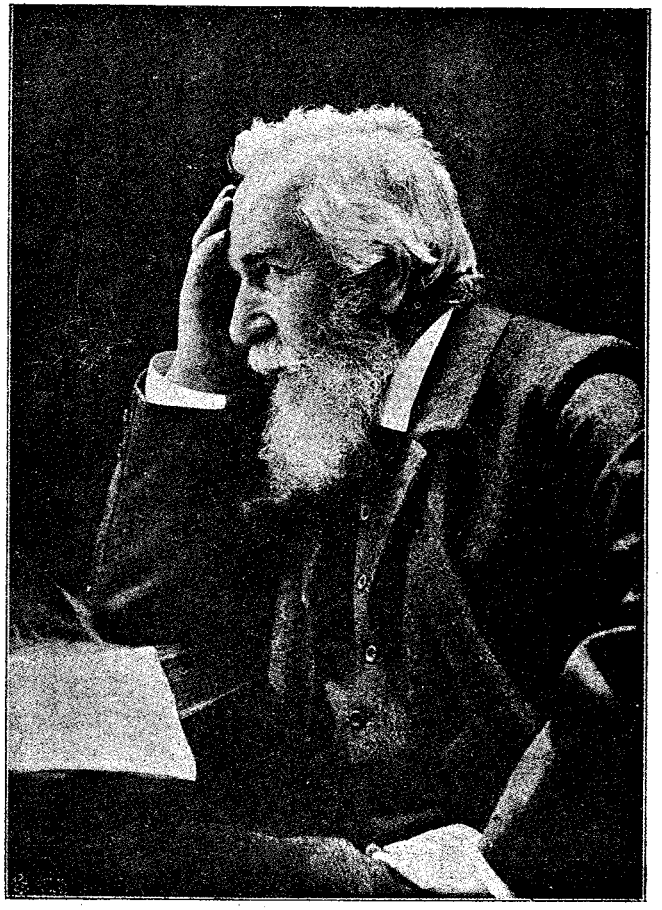

ارنست هيكل

Stegocephala	مستورة الرأس
Frogs	الضفدع
Mailed	مدرع
Urodela	الامفيبيات المذنبة
Monotrema	موحدة المخارج
Marsubialia	الخريطية
Insectivora	آكلة اللحوم
Insect-eaters	الحشرية
Whales-cetacea	الحيتان
Chiroptera	غشائية الجناح ـ خفافيش
Carnassia	الجوارح ـ الضوارى
Rodents	قراضة
Ungulates	ذوات الاظلاف
Mammalia Mammals	ذوات الثدي
Amphioxida	السهمية
Lancelets	ذوات الوتر الرأسى
Skull-less	عديمة الرأس
Acrania	عديمة الرأس
Ganoides	الاسماك العشرية
Scaled-fishes Tell-Bany	الاسماك ذات العظام
Fishes-Pisces	الاسماك
Dipneusla	الاسماك ذات التنفسين ـ مائى وهوائى
Tocosauria	الخشاش ـ كالضب
Stem reptiles	أصول الزواحف
Chelonia Tortoise	السلاحف
Halisauria	الزواحف العوامة
Sea-Lizard	ورل البحر
Pterosauria	الزواحف الطائرة
Orang-satyrus	الاورانغ
Platyrrhinae	بلاتورنيه
Westernapes	القردة الغربية
Anthropithecus	الانسان القرد
Craniota	ذات الجماجم

Prospondylia	قسم الفقارية الاولى
Provertabrates	الفقرية
Archichrania	الجمجمية ـ كالجمجمة
Selachii	الغضر وفيه مثل الترسة
Primitive fishes	الاسماك الاولى
Paladipneusta	ذوات الرئة المسطحة
Progonam - phibia	قسم الانفيبيات الاولى
Protamphibians	الانفيبيا
Proreptilia	قسم الزواحف الاولى الهوام
Proreptiles	الزواحف ـ الهوام
Promammalia	قسم ذوات الثدى
Prodidelphia	ذوات الرحمين الاولى
Promarsupials	« الخريطة الاولى
Mallotheria	« الصوف الوبرية
Proplacentals	« المشيمة الاولى
Prosimiae	القردة الاولى
Lemur	اشباه القردة ـ القردة الكاذبة
Prothylobates	ذات الفلق المتقدمة
Progibbon	الجيبون الاولى
Pithecanthropus	القرد الانسانى
Ape-man	القرد الانسانى
Homo	الانسان الاول
Myxinoides	مخاطية لا هيكل لها
Petromyzontes	راضع الصخر ـ الثعابين
Lampreys	ثعبان البحر
Cyclostoma	حلقية الفم
Amphibia	الامفيبيا ـ ذات الحياتين
Batrachia	المقعدات
Flying lizard	الورل الطائر
Land lizard	ورل الارض
Reptiles	الزواحف
Catarrhinae	القردة الشرقية
Gibbon hylobates	الجيبون

مقدمة المؤلف

في مستهل شهر ابريل من سنة ١٩٠٥ تلقيت دعوة جاءتني من أهل «برلين» يطلبون الي فيها القاء محاضرة علمية هناك في نادي الموسيقى الموجود في تلك المدينة

ولقد تمنعت بادي الرأي معتذرا وشاكرا لما تبينته في سطور الدعوة من آيات المواربة، وعبارات المداهنة، فكتبت اليهم اعتذارا قلت فيه «اني لا أستطيع القاء محاضرة على ملأ من الخلق، بنيته على أسباب ثلاثة: اعتلال صحتي — وشيخوختي — وتزايد ما كان علي من الواجبات التي تتطلب كدا ونصبا. ثم شفعت هذا الاعتذار ببيان هام في الموضوع كنت قد طبعته في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٠١»

بيد أني كنت مرغما على الرحيل الى برلين — لشدة الحاح من كنت أجلهم من صحبي هناك. ولأنهم بينوا لي أهمية القاء محاضرة على متعلمي برلين. تجمع شتات ماوقفت عليه في أربعين سنة من طريف الآراء وقيم الفكر في (التطور). ولما أرادوا أن يذهبوا الى مكان التوكيد وطريق التثبت — جاءوا مزكين رأيهم هذا بأنهم يخشون على المدارس والجامعات، بل ويضنون على النشء وعلى حرية الفكر في المانيا أن يذهب بها التعصب الديني الغالبة صبغته، ووقوف المعتقد بين تعصب الارثوذكسية وتطرف الكثلكة

واتفق أني كنت في ذلك الحين أرقب وقوف الكنيسة (الدين) أمام (Monistic Science) العلم عدوها اللدود وبذلها شيئا من التسامح للتقرب منه وتقبل التمشي معه الى حد كانت فيه مشوهة الصورة حيال عقيدة التطور التي ناهضتها ثلاثين عاما

ولقد كنت أرتاح كثيرا، كذلك كنت أعلق أهمية عظمى على ماقام بين العلم والدين من العراك. على حين أني كنت أبتئس كلما فكرت في أني اخترت هذا الباب ليكون موضوع بحثي في محاضرة عامة. وأني تقبلت دعوة أهل برلين

وما مضت أيام قلائل وأنا أحضر تلك المحاضرة وأستعد لالقائها أن تلقيت كتابا من «برلين» يقولون فيه ان عدد السامعين للمحاضرة قد ازداد زيادة لا يتسع معها دار مجمع الموسيقى قالوا — فاما أن يعاد القاء المحاضرة . واما أن تقسم قسمين . فاستصوبت الرأي الأخير وألقيت المحاضرة معادة مرتين (فى ١٧ و ١٨ ابريل) . على أني قد اضطررت أيضا لالحاح الكثير علي الى القاء محاضرة وداع ثالثة

ولم أك خطيبا بطبيعتي ، ولا ممن يؤثرون في الجماعات اذا قاموا فيهم محاضرين . على حين أني كنت أعالج التدريس فى جامعة « بينا » الصغيرة زمنا ليس بالقليل . ولم يتهيأ لي تعلم الآداء على حال أستطيع معها اظهار ما يمكنه فؤادي من الآراء في صورة فعالة مؤثرة

لهذه الأسباب ولغيرها ، لم يكن لي حظ في الأندية العلمية والمجتمعات العامة . بيد أني مع هذا كنت على اعتقاد تام أني موفق كل التوفيق ، ومنتعش الانتعاش كله لظهوري فائزا منتصرا بحق في المحاضرات الثلاث التي ألقيتها في مدينة «برلين» . وما كان هذا من قوة تأثيري على نفوس السامعين بالبراهين الخطابية المؤثرة والأدلة القولية الخلابة . وانما كان سبيلي في اقناع السامعين واستفزاز نفوس الحاضرين أن ألقي عليهم الحقائق الحية القائمة على الثبوت واليقين والتي تنحدر الى العقول من غير ما تريث ولا استئذان — ، في سياق محكم فلا يسمعون هذه الحقائق حتى تقع من أنفسهم قانعين بنظرية التطور

أما أولئك الذين يناهضون هذا الرأي ويستخبون معارضته فسيرون في مؤلفي نواتج أعمال ثابتة مقنعة — يرون ذلك في أمثال تاريخ الخلق وتطور الانسان « وأسرار الكون » وعجائب الحياة Wonders of life, Riddles of the Universe Evol . of man , History of creation ولست أبغي مراعاة العواطف وانما جبلت على أن أسلك سبيلا سويا لأظهر الناس على نتائج ما وصلت اليه أبحاثي في نصف قرن فاذا آنس القارىء في قولي شيئا من الشدة في الدفاع عن ما أقف للذود عنه

فاستغرب مني ذلك قلت له ان الحقيقة بنت البحث . وأن ليس لشيء فضل على شيء الا بالمنازعة لتبيين وجه الأفضلية فاذا اشتد الجدل بين ناضل ومنضول ، احتكت الآراء بعضها ببعض ، وكان ذلك باعثا لها على الاهتداء الى الصواب

ولأن كنت ممن نشأوا فى جو « برلين » فكنت فيها تلميذا ومعلما ، وكانت لي صلة تامة بالمجتمعات العلمية — فلم تكن لي سابقة تحاضر قبل هذه الرحلة الا محاضرة واحدة ألقيتها في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٨ وكان موضوعها تقسيم العمل في الطبيعة وفي حياة الانسان . من أجل ذلك كنت مسرورا جد السرور لموقفي هذا الذي وقفته في نفس هذا المكان (دار المجمع الموسيقي) بعد ست وثلاثين سنة . ذلك المكان الذي كنت أستمع فيه أقطاب أساتذة جامعة برلين منذ خمسين سنة

واني لأختم هذه المقدمة بتقديمي وفير الشكر لأولئك الذين بعثوا الي بهذه الدعوة ولمن سهلوا لي اقامتي في تلك العاصمة ، كذلك أشكر من صميم فؤادي الذين حضروا محاضراتي بعناية زائدة وتقبل ظاهر

« بينا » ٩ مايو سنة ١٩٠٥

ارنست هيكل

فصل المقال

في

التطور

الفصل الاول

الجدل في مسألة الخلق

التطور والعقيدة

في القرن التاسع عشر ، ثارت ثورة فكرية ـ ونزع العقل يناقش فكرة التطور ، فاحتد الجدل بين الناس ، وزاد العراك بين العقول الولادة فنشأت عن ذلك صورة جلية من صور نظرية التطور

والحق :ان مسألة التطور الطبيعي للأشياء ـ كانت قد هيمنت عليها ثلة قليلة من أهل العقول الجبارة منذ ألف سنة خلت

ولئن كانوا قد ناقشوا هذه المسألة ، من بعض وجوهها في ذلك العهد وبحثوها بحثا مجملا ـ فانهم ما كانوا ليتعهدوا كل أنحائها على التحقيق ، بل وقف بهم البحث عند حد النظر في ناموس الحياة والموت للعالم ، وفي مبعث الأرض وأصل سكانها

ذلك كان شأن نظرهم في التطور ، وأنت تجد لسلطان التطور أثرا في كل شيء حتى في الحكايات المبتدعة والأساطير الموضوعة المنبثة في الديانات القديمة . على أن نظرية التطور لم تستكمل شكلها ، بل ولم ترتكز على دعامة التحقيق العلمي الا في القرن التاسع عشر ـ بل ولم تجد لها أنصارا وأشياعا تعرفوها وعاشت في عقولهم ناضجة الا في الثلث الأخير من ذلك القرن

ولم تعرف الوشيجة التي تربط العلوم والمعارف بعضها ببعض ، ولا الآصرة التي تجمع بين فروع العلوم وتوحدها راجعة الى مرد واحد هو الفلسفة « الوترية » الفردية Monistic Philosophy الا في عشرات السنين الأخيرة .

كان السائد على عقول الكثير من أسلافنا ، والغالب على معتقداتهم والمتغلغل في نفوسهم ، استبعاد أن يكون أصل العالم ، قد نشأ بذاته « ومن غير علة » أولى

ولقد كانوا يغلون في ذلك ضالين في تيه مظلم ـ لا يستأنسون الا بأساطير الأولين ، ولا يطمئنون الى غير ذلك ـ فحدا بهم هذا الى فكرة الخالق .

يقولون : كما أن الانسان تعوزه الحنكة والذكاء لصناعة ما تصبو اليه نفسه . كذلك الحال مع الخالق فانه خلق العالم بالحكمة والقدرة ، وبمشيئته على نمط خاص

تلك خرافات أهل الاديان من المتقدمين . ومنها خرافات السالفين من الساميين وأساطيرهم التي تأنس بها ، كما تأنس لروايات موسى ، التي استقت كلها من معين واحد ، وأخذت مصادرها من قصص البابليين .

ولقد كان لهذه الأساطير الأثر الشديد في منشآت ومنتجات الأوروبيين لتمسكهم وتأثرهم بالتوراة . ولقد كان يحدو بهم ذلك الى انصياعهم خانعين لمؤثرات الدين ، ومؤمنين بالمعجزات ـ لبثوا على حالهم هذه حتى نهض العلم وشمل العالم وقامت آراء التطور الخالصة من كل أثر ، البعيدة عن كل تحيز ، المستمدة كل قواها من معين فلسفي محض ـ قامت هذه الآراء أمام الدين بالمرصاد .

وأنت تجد في التعاليم الدينية الخلابة أعجوبة خلق العالم ، وتجد المعجزات Miracilous theology وتجد أيضا مايسمونه (السببية) causality علة الوجود . أما العلم فيعاف ذلك كله وهو لا يؤمن الا بناموس التطور والتعقل المحض وهو السبب الحق (والسببية الآلية)Mechanic causality وكل خطوة يخطوها هذا العلم (this science) تكون سببا في اظهار فساد برهان الدين وروايات المتدينين والناظر في ماهية التطور العقلي ،وصفته العلمية : يقف أمام حقائق خمس وهي :ـ

(١) اتحاد هذا العالم (٢) أرضنا هـذه (٣) الحياة العضوية (٤) الانسان كأرقى المخلوقات (٥) النفس كجوهر مجرد عن المادة

من أجـل ذلك نشأت بالتعاقب والتسلسل حالة جعلت لكل قسم من الأقسام المذكورة ماينا‌ظره في العلم الحديث وهاك تقسيمه

(١) علم الكون (٢) علم طبقات الأرض (٣) علم الحياة (٤) عـلم الانسان (٥) علم النفس

أول من وضع فكرة معقولة في فلسفة الكون من طريق التطور، الفيلسوف النقادة المعروف «عمانوئيل كانت» سنة ١٧٥٥ في كتابه تاريخ الكون الطبيعي ـ بالبحث الآلي، على مقتضى قانون « نيوتن »

ظهر هذا السفر النافع باسم مستعار وأهدي الى فردريك الأعظم الذي لم يره ولم يكن للكتاب حظ الشهرة والذيوع في أول ظهوره حتى غاب في عالم النسيان تسعين سنة، الى أن نبه عليه، « ألكسندر فون هامبولد » اذ استرعى نظره عنوان الكتاب حيث طبع على غلافه « الأصل الآلي للعالم، واثبات ذلك على مبدأ نيوتن » وبهذه الطريقه يتضمن الكتاب شرحا وافيا لطبيعة الكون « الورتية » الواحدية

والحق: ان « كانت »، قد استطرد في البحث فأفاض في ذكر الخالق واستزاد في نعته بالحكمة ووصفه بالمشيئة اللانهائية . فانه يؤمن بأن الله قدسن للعالم قانونا يسير بموجبه لا يتحول عنه أبدا . وهذا يجعل للمشيئة التزام خطة معينة لا تحيد عنها أبدا، ولا تبغى عنهـا حولا ـ وهو تقييـد للمشيئة — أما الفلسفة الشفعيه (المثينة) التي ظهرت في مابعد فلم يكن لها اعتبار كبير هنا

ثم جاء بعد ذلك بأربعين سنة « بطرس لابلاس »، ووضع نظرية النشوء الطبيعي للعالم على قاعدة رياضية ثابتة بينة . يظهر ذلك في كتابه المشهور (الآلية السماوية)

ولما ظهر كتابه ـ « نظام العالم » عام ١٧٩٦ ـ قوض أركان خرافة الخلق التي سادت على العقول، وصدع أركان أساطير موسي التي في التوراة، واجتاح كل هذه

البدع، وزعزع العقائد من أساسها .

«ولا بلاس» هذا، كان وزيراً لوزارة الداخلية في عهد نابليون، ثم كونتا فرئيسا لمجلس الشيوخ، وكان أبيا كريمـا لا يسكت عن ضلال ولقد وقفت الكنيسة ردحا من الزمن تتمحل لحقائق العلم وتقاومها

وحاولت ما استطاعت أن تخفي الحقيقة. أو تعارضها، بالهام من الأساليب اليسوعية؛ وعبثا كان ذلك . اذ أنها اضطرت في آخر أمرها أن تذعن لقانون « كوبرنيكس » .

فاذا كانت الكنائس قد حادت الآن عن معارضة قانون « كوبرنيكس ولابلاس » وكفت عن مناوأتهـما . فالواجب أن نرد ذلك الى سببين اثنـين . أما الأولـ فشعور الكنيسة بوهن سلطتها الروحيـة . وأما الثاني — فلأن الجهل مهما كان، فانه لا يقوى على مغالبة العلم، ولا هو يستطيع أن يباهت أمثال هذه الحقائق .

ودليل الصحة، وآية الاقناع للايمان بنظرية التطور الكوني على مقتضى ناموس الطبيعة ماتراه من ظهور وخفاء الملايين العديدة من الشموس والنجوم. وليس يستمرىء هذا الرأي الا من ألم بالرياضيات الماما تاما، وبرع في علمي الفلك والطبيعة وكان على شيء كثير من الاستعداد الطبيعي الذي يؤهله للنظر في عويص المسائل بنظر ثاقب

ففي كل نقطة من نقط المطر، وفي كل موجة من موجات البحر، وفي كل ثورة ابركان، وفي كل حصاة تذروها الرياح ـ في كل واحدة من هذه برهان على التغيرات التى تنتاب سطح هذا السيار .

وأول من أبان هذه التغايرات بطريقة علمية ـ «كارل فون هوفجوتا» عام ١٨٢٢ في حين أن علم طبقات الأرض لم يستقر عـلى دعامة صحيحة الا عام ١٨٣٠ حيث أبان « شارل ليل » الأصل الطبيعي في تكوين الطبقة السطحية الجافة للأرض، وتكوين الجبال الرواسي، واستوضح ماكان من الفـترات التي تم فيها نشوء الأرض عـلى ناموس يتسق مع القوانين الطبيعية

على حين أن ماوقفنا عليه من ارتفاع الصخور المنضدة التي تتضمن بقايا الحيوانات

الحفرية ، قد كشف لنا عن بعد تلك العصور التي تكونت خلالها الصخور المترسبة في أعماق الماء ـ حيث يرجع الى ملايين السنين

وحتى ذلك العصر ـ عصر التكوين العضوي «التعضون» في هذه الأرض ، تلك الفترة الزمانية التي أخذت فيها نباتات الأرض وحيواناتها في النشوء — حتى هذه أيضا تقدر بأكثر من مئة مليون من السنين .

منذا الذي يعرف هذا كله ويعلم بنتائج علم طبقات الأرض ، وكذا علم الحفريات ، ولا يقول بأن هذا يذهب بأسطورة الدين في مسألة الخلق ؟ يقولون ان الله قد خلق العالم في ستة أيام

واجتهد كثيرون من المؤمنين في التوفيق بين العلم والدين ، وحاولت منهم طائفة في التوحيد بين رواية (كتاب) موسى في خلق العالم وبين علم طبقات الأرض ، وعبثا كان ذلك .

أما نحن فنقول على التثبت والتحقيق ـ أن في دراسة علم طبقات الأرض وفي أظهاره عصور التطور على هذا الشكل ـ ان في هذه لبيانا لا ينقض على تقدم العلم واتساع نطاق دائرة المعرفة ، اذ أنه كلما وصل العقل الى مثل هذه المشكلات ، تساءل عن السبب الآلي الذي يحدث هذا التغيير . على أن علم طبقات الأرض وهذه أهميته ـ قد أهمل الاهمال كله في أكثر دور التعليم ، وقد أضيف الى علم تقويم البلدان ، لتثقيف عقل الناشيء ، ولينبت فيه فكرة التطور

والذي يستوعب مباديء علم طبقات الارض ـ ينصرف الى التجاريب اذ يجد اينما ولى وجهه ، في الصخور ، وفي المياه ، وفي الحفريات ، وفي الجبال بل وفي كل أثر من أثار الطبيعة ـ باعثا على التأمل والاستبصار .

***

ان تدبر أثار التطور في النهج الطبعي صعب الملاحظة ، اذ أنه يحتم على الملاحظ أن يميز بين سبيلين مختلفين من سبل النشوء الحيوي لم تتبين أساسهما العملي الا بعد

أن استكشفنا سنة الحياة العضوية عام ١٨٦٦ . أما السبيل الأول فمبني على علم الاجنة Embryology. وأما الثاني فقائم على نشوء الأنواع Phylogeny ولم يعرف التحول في المانيا الا بأنه علم التحول الجنيني ، ولقد ظل كذلك الى أن سقط هذا الزعم من أربعين سنة

ألا انما هذا شأنهم في الحياة ، ولم تسقهم اليه المصادفة ، ولاهم انصاعوا الى التأثر به من غير ماسببية عملية . ذلك أنهم برأوا عملهم بتجاريب (ميكروسكوبية) وعمليات تحقيقية انتهت بهم الى حيث قرروا أن كل ماتراه من أرقى أنواع النبات أو الحيوان ان هو الا نتيجة أصلها ـ حبة غاية في الغرارة والخداج أو بيضة طائر .

ولقد كان الرأي الشائع حتى فجر القرن التاسع عشر ، أن كيان الجسم على مافيه ، من تركيب عجيب ، وتكوين تام الوضع ، قد تتضمنه البيضة ذات الغرارة بكل ما فيه ، وأن التراكيب العضوية المتباينة تتمشى في سبيل النماء واستكمال الصورة فحسب ـ بتأثير ناموس التحول ـ وهو عبارة عن تمايز هذه الاعضاء وتحيزها اذ تكون متدابجة قبل بدء دور النشاط الحقيقي فيها

ظل هذا الرأي شائعا مقررا حتى عام ١٧٥٩ ، حيث ظهر العلامة الالماني القدير « كاسبار فردريك ولف » وكان ابن حائك في «برلين» بمافند الرأي القائل بالتكوين الأول عام ١٧٥٩

ولقد استدل على بطلان هذا الرأي بقوله : « انك لن تجد مثلا ـ في بيضة الدجاجة أثراً للعظام ، أو العضلات أو الأعصاب ، أو الريش وتلك أشياء معروفة معنعنة لكل دارس باحث . بل وان كل ماتراه ان هو الا عبارة عن قرص مستدير متكون من طبقتين تعلو أحداهما الأخرى »

ولقد أثبت من بعد ذلك أن الأعضاء لا تستكمل الشكل التكويني التام الا بتدرج التحول من أصل هذه العناصر البسيط ، وأن في متناول يدنا تتبع هذا القانون ، درجة بعد درجة مستوضحين فيه أوجه النماء ، وضروب النشوء العضوي على وجه التحقيق .

ومهما يكن من شأن هـذه الاستكشافات الفجائية وأثر تلك النظريات التي قام عليها مذهبه هذا (تولد الحياة مستقلا عن الأسلاف) ـ فانها والحق يقال كانت في جو جهلها كل الجهل ـ ولاقت معارضة كبيرة ورفضا باتا من أولي الأمر اذ ذاك.

لبثت على هذه الحال حتى ظهر «أوكن» سنة ١٨٠٦ وأستعادها سيرتها الأولى من البحث والتزكية وعزز هذه الحقائق الخالدة في (يينا)

وحذا حذوه باندر «Pander» فميز الطبقات الجرثومية وعرفها عام ١٨١٧

ثم جاء أخيرا «كارل ارنست فون باير» سنة ١٨٢٨ وجمع بين الملاحظة والاستقراء في كتابه، علم تكوين الأجنة، قال: هنا لك أخذ علم تكوين الأجنة مكانة بين العلوم مقرراً بقواعد التجربة الحسية.

مر ردح من الزمن، ثم جاء عصر البحث في علم النبات ـ ولقد ظهر ذلك عام ١٨٣٨ لما ظهر «ماتتياس شليدن» من «يينا» وهو ذلك الباحث النابه الذي هيأ علم الحياة بقاعدة ثابتة اذ وضع نظرية الخلية عام ١٨٣٨ ولم يسلم الناس بأن بيضة النبات أو الحيوان ليست شيئا الا خلية بسيطة في الأصل ـ لم يفقهوا ذلك الا في القرن التاسع عشر ـ وحتى انهم لم يعلموا أيضا أن ماعدا ذلك من الأنسجة والأعضاء ان هي الا من ذلك الأصل العضوي البسيط اذ تنشأ ثم تتدرج في شوط التكوين مع تكرار الانقسام وتوزيع العمل في الخلايا حتى صارت علي ما ترى. وأهم خطوة خطاها ذلك العلم هو التسليم بأن الأنسان قد ينشأ من (خلية) كهذه (تلك الخلية التي استكشفها بايرعام ١٨٢٧) وأن الأنسان يخضع لنفس القوانين الطبيعية وأن تطوراته الجنينية تشابه كل المشابهة ذوات الثدي لا سيما القردة وما الأنسان منافي حال نشأته الأولى الا كرية من «البروتو بلاسما» محوطة بغشاء ـ لا يزيد محيطها على $\frac{١}{١٢٠}$ من القيراط (داخلها نواة أكثر ثباتا)

ان في هذه المستكشفات الهامة التي نطق بها علم الأجنة لآية مقنعة للعقل ـ اذا تذكر الأنسان أن بناءه الآلي قد بدأ في نشوئه من خلية بسيطة لاغبار في أصلها

عما سواها من خلايا ذوات الثدي ثم تدرج في تطوره الجنيني الى أن بلغ منتهى ما بلغ اليه ـ وأن علم التشريح المقابل قد استخضع ذلك من زمان بعيد

وأنت ترى ذلك أيضا حتى في كتاب «لنيوس» الذي سماه نظام الطبيعة (١٧٣٥) والذي بين فيه أن الأنسان هو أعلا مراتب ذوات الثدي.

ولقد استطرد العلماء في سبيل مستكشفاتهم الى أن وصلوا ـ الى (نشوء الأنواع) وهي التي يجب في بحثها أن يستنير الباحث لها بما مر من المستكشفات في علوم الأجنة والتشريح وأضرابها. وأول مايقع بخاطر الباحث في الأنواع ـ هو هذا السؤال: ما أصل هذه الأنواع المختلفة في الحيوان والنبات؟

وكيف نستطيع أن نبين العلاقه التي تربط الأنواع المتشابهة حتى تصير أجناسا، ثم نربط هذه حتى نجعلها مراتب؟

أما «لينيوس» فقد أجاب على هذا السؤال من حيث الخلق ـ معتمدا على رواية موسى فقال: ان مايوجد الآن من الحيوان والنبات المختلفة الأصل لا يزيد على الصور التي خلقها الله في بدء الخلق.

وأول من أجاب على هذا السؤال اجابة علمية حقة هو العلامة الفرنسي «لامارك» عام ١٨٠٩ في ثبت كتابه (فلسفة الحيوان) اذ أثبت أن المشابهة في الشكل والتركيب بين الأنواع المتعددة ترجع عادة الى رابطة حقة في هذه الأنواع ـ وأن كل الكائنات العضوية متسلسلة من صور مبدئية قليلة غاية في البساطة، أو بالأحرى ـ من صورة واحدة. وانما نشأت هذه الصور الأولية من مادة غير حية بالتولد الذاتي. والمشابهة بين متعدد الأنواع المتلاحمة تظهر تماما بالوراثة من صور وأشكال أصلية أما أسباب المغايرة فراجعة الى مايحوطها من البيئات المختلفة والى تنوع العمل الذي تقوم به الاعضاء القابلة للتهذيب.

وأن النوع الأنساني لم تعده هذه المؤثرات بطريقة التهذيب الذي كان واقعا على سلسلة ذوات الثدي ـ القرد أقربها الى الأنسان

ولقد كانت آراء « لامارك » ـ مبعث استنارة أفادت علم الحياة العضوية كل الفائدة ، ومشكاة اهتدى بنورها ـ « جوته » في تأملاته ـ تلك التي بعثت في الناس فكرة التحويل والمغايرة أو نظرية التحول

على أن حظ « لامارك » البعيد النظر في الأمور — كان كحظ « كاسبر فريدريك ولف » منذ خمسين عاما . ذلك أن نظريته كانت قد غشيتها سحابة النسيان ، ردحا من الزمن . فباتت مهملة مغفلة الى أن وليها « شارل داروين » النابغ العظيم فأظهرها في صورة تستمرئها الأفهام عام ١٨٥٩ ـ

والعجيب أن توفق المصادفة بين هذين الجهبذين فتتفق ولادة « داروين » مع ظهور كتاب (فلسفة الحيوانات)

ولست أجدني بحاجة الى تعريف المذهب الدروبني ـ وقد تعرفه القاصي والداني. بيد أني أذهب هنا الى تعيين السبب الذي روج فكرة « داروين » وسار بها الى هذا النجاح العظيم ، وتلك الشهرة الفائقة معزيا ذلك الى سببين اثنين . أما الأول ـ فراجع الى مابذله العلامة الانجليزي هذا ـ من فائق العناية وكثير التعب والكدح ـ في استجماع البراهين الحسية القائمة على ركن ركين من التجاريب والخبرات ـ عابرا في سبيل ذلك نصف قرن حتى نظم نظريته في التحول فأخرجها ناضجة نافعة . وأما السبب الثاني فيرجع الى ابتداعه نظرية الانتخاب الطبيعي .

تلك النظرية القائلة بتغاير الأنواع المبينة بيانا تعليليا ـ وهي مايجب علينا أن نسميها بحق اسم الداروينية

وما نحن بقادرين هنا على فتح باب المناقشة سائلين عن قيمة هذه النظرية من التحقيق ، وتحولها في عالم التفكير بما نضجها من محدث النظريات كنظرية « ويزمان » في البلاسما الجرثومية (١٨٤٤) أو نظرية « دي فري » في التغاير الفجائي (١٩٠٠) ذلك لأننا نبحث في أثر النظرية الداروينية . وما كان لها من الشأن في عالم المعارف ـ فنجد أنها كانت في المرتبة الأولى من مراتب العلم من حيث تطبيقها على نشأة الأنسان ولبثت على ذلك أربعين عاما تعارض معتقد الدين من غير توان أو تسامح في مناوأة الكنيسة وفي معارضة معتقداتها .

وتحول الانسان شأن هام في هذه النظرية ـ نظرية التحول فاذا صح ما يقال من أن الكائنات العضوية لم تخلق بمعجزة راجعة الى قوة الخالق ـ وانما خلقت بتهذيب طبيعي وقع على صورحية تقدمتها — اذا صح ذلك كان للأنسان كل الحظ في هذا النظام منتسبا الى أشد ذوات الثدي قربا منه وهو ما يدعو « لينيوس » (البريمات)

على أن هذا الاستنتاج الطبيعي الذي نادى به « لامارك » والذي لم يهتم به « داروين » في مبدأ أمره لم يكشف عن خطته الا الرجل العظيم المتفقه في علم الحيوان . « توماس هكسلي » الذي أظهر الناس على ماوفق اليه « لامارك » في هذا الموضوع ـ بالقائه ثلاث محاضرات (عام ١٨٦٣) في مكان الانسان من الطبيعة . ولقد أبان وأفاض في هذه المسألة التي هي مسألة المسائل ـ مستشهدا على صحة رأيه ـ بثلاثة شواهد ـ التاريخ الطبيعي للقردة — واتصال الانسان الجنيني والتشريحي بما دونه من الحيوانات مباشرة وما استكشف من الآثار المتحجرة للانسان الغابر .

ولقد تقبل داروين من صديقه ماوصلت اليه عقليته من نتاج البحث وعمل التجربة بعد ثماني سنين . ثم هو نشط فزاد النظرية وضوحا ـ وألف سفرين جليلين في ذلك (أصل الانسان والانتخاب الجنسي) عام ١٨٧١ معززا رأيه بالممتع من البراهين راجعا في ذلك الى تحول الانسان من أصل قردي

ثم تابعت اكمال النظرية بنفسي عام (١٨٧٤) ولقد بدأت ذلك عام (١٨٦٦) فعالجت هذا الأمر مستعينا بعلم التشريح وعلم تكوين الأجنة ... مستدلا بذلك على مابين صور الانسان الجنينية وغيره من سلسلة الحيوانات المنقرضة من المقاربة ـ ولقد نضجت هذه النظرية بتقدم معرفتنا في هذا الموضوع حيث ظهر ذلك في الطبقات الخمس من كتابي (تحول الانسان) كذلك قد جمعت مؤلفات جمة ألفت في هذا الموضوع ـ في العشرين السنة الماضية ـ وغالب ظني أنكم على علم بما يحويه مؤلف من

هذه المؤلفات ـ كذلك أنا أعتقد أنكم ستعودون تسائلون أنفسكم في أمر النزاع القائم في العصر الحاضر بين العلم والمعتقد الكنسي

ولا مرية في أن نظرية التطور العامة ووصولها الى حد الانسان ستلقي أمامها مقاومة شديدة من الكنيسة التي تتحرش بكل ماجاء به العلم مما يخالف مابين يديها .

ذلك لأن ماجاء به العلم يناقض أشد المناقضة ، رواية موسى في الخلق ويعارض غير هذه من المعتقدات التي روتها التوراة ، والتي لا تزال تجد لنفسها متسعا من جو معاهدنا الابتدائية تعيش فيه وتساكن أدمغة نشئتنا .

ولقد خامر أهل الدين وأنصارهم ، وكذا أصحاب ماوراء الطبيعة ـ خامر هؤلاء الزعم بأنهم تغلبوا على مذهب « داروين » وحطموه تحطيما ونقضوا أركانه حجرا بعد حجر ـ بما أثاروه حوله من الزوبعات القلمية متهكمين على فكرة تطور الانسان من أصل قردي .

على أن هذه الصورة الكتابية قد كاد لها حظ من النجاح في سبع أو ثماني سنين خلت ، بعد ظهور « داروين » . ذلك لأن مذهبه لم يلق اقبالا من علماء علم الحياة ـ الا ثمت طائفة قليل عددها ـ ولقد شاهدت ذلك بالتجربة . أقول : اني لما ألقيت محاضرة عامة في مذهب « داروين » ـ في مجمع عام ، سنة ١٨٦٣ وكان ذلك لأول عهد السامعين بملاقاة أمثال هذه الآراء وكنت هناك أعزل من غير ما نصير ولا معين . فلاقيت تأنيبا عظيما من السواد الأعظم هناك . اذ أنكروا علي شدة اعتقادي بنظرية عقيمة كهذه اذ نعتها العلامة الحيواني « الفيرستيني جونتجر » بقوله ان هي الا أضغاث أحلام

ولقد كان الاقبال على علوم الطبيعة منذ نصف قرن ، يختلف تمام الاختلاف عما هو عليه الآن ـ وهذا أمر يصعب تعليله لناشىء في العلم أو مبتدىء في الفلسفة . والحق ان مسألة الخلق ، ومسألة وجود مختلف الأنواع من النبات والحيوان في هذا العالم ، وكيف صار الانسان كائنا حيا ، كلها أشياء غامضة لا يقوى العقل على ادراكها ـ ولم يستطع العلم حلها للآن بما يقنع به العقل ويطمئن اليه الفؤاد .

منذ نيف وسبع وسبعين سنة ، ألقى « ألكسندر فون همبولد » محاضراته في نفس هذا المكان ـ جمعت في كتابه المشهور ـ « عناصر الكون والصفات الطبيعية للعالم » ولما كان الموضوع يحتاج الى الخوض في هذه المسائل ، لذلك ألم الرجل الماعا في حديثه الى عالمنا هذا وتكوين سكانه فقال « ان مسألة كيف تكونت الأشياء أمر لم يستقر على قاعدة التحقيق حيال العلم أبدا »

يقول « جوهان مولر » ـ وهو عالم من فحول علماء الالمان في علم الحياة ـ في مقال له مشهور (عام ١٨٥٢) موضوعه ـ « تناسل القواقع في هولوفيرياتة » Holophurians ان تدخل المختلف من أنواع الحيوان في الخلق أمر لا مرية فيه وهي حقيقة يؤيدها علم الأحافير ـ وهو رأي حق لا مشاحة في أنه سيبقى كذلك مادمنا من العلم عند هذا الحد ، ولقد حادثت مولر الذي أعده أكبر أساتذتي في صيف ١٨٥٤ . وكانت محاضراته في مقابلة علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ـ أمتع ما سمعت أذناي من المحاضرات . ولقد أخذت لسماعها وتأثرت بها جد التأثر ـ ثم توسلت اليه أن يسمح لي بزيارة دار عادياته ـ لدراسة الهياكل وغيرها فكان عند طلبي مجيباً . وكان « مولر » وهو في الرابع والخمسين من سني حياته ، يقضي بعد ظهر يوم الأحد منفردا في معرض التحف وكان يصرف وقته هنالك متمشيا في ردهات الغرف روحة وجيئة ماسكا بيديه معا ملقيا أياها على خصره ، سابحاً في عالم التفكير معنتا عقله في معرفة ذلك اللغز المقدس والسر العجيب ـ ليتعرف سبيل الاتصال بين ذوات الفقار ـ فحدا به ذلك الى ما رآه من صفوف الهياكل العظمية .

وكان الاستاذ الجليل يتحول بين آونة وأخرى الى منضدة كانت قائمة هنالك في زاوية من الغرفة ـ تلك المنضدة التي كنت أزاول عليها رسم صور ذوات الثدي ، والزواحف ، والحيوانات المائية « هي الحيوانات البرية البحرية » والاسماك ،

وكنت أنتهز هذه الفرصة فاستوضح بعض ما خفي علي من علم التشريح . ولقد تجاسرت مرة فالقيت عليه هذا السؤال : ـ

« ألا تكون ذوات الثدي بما هي عليه من التوافق الداخلي بدلا من التخالف الظاهري قد تكونت جميعها من أصل واحد ؟ » ـ فأحنى الاستاذ رأسه ثم قال : ـ « ان أمكن لك أن تحل هذا اللغز اذن تكون قد قمت بأجل عمل ، ولخلفت أكبر أثر . » ـ

وفي شهر سبتمبر من عام ـ ١٨٥٤ ـ أي بعد ذلك بشهرين ـ رافقت الأستاذ الى « هليجولاند » لأدرس عجائب المخلوقات البحرية باشرافه. ولما ألقينا بشباكنا في البحر وكان نصيبنا من الصيد في أول الامر « هلاما » ـ نوع من السمك ـ سألته رأيه في تغاير هـذا النسل . فاذا كان الهلام من أصل واحـد رجع الى أصل السمك الاخطبوطي ـ أفلا يكون من المعقول أن يرد أصل كل هذه الى أخطبوطيات أقـل غرارة وأبسط تركيبا من كل هذه الاشكال ؟ ؟

فاستمع الأستاذ لهـذا السؤال مصغيا ثم قال ـ « ان هذه مسألة غامضة ، ونحن مفلسون كل افلاس حيال أصل الأنواع » .

« وجوهان مولر » يعد من فحول علماء الغرب في القرن التاسع عشر ، فاذا عد علماء هذا العصر ـ كان هو في صف كوفيه ، وباير ، ولامارك ، وداروين ـ لانه بعيد النظر خصيب العقل محترم الرأى الفلسفي ذو مكانة عظيمة في علم الحياة.

على أن مولر يقارن « العلامة « اميل دي بواريمون » بالاسكندر الأعظم ، حيث قسمت مملكته العظيمة بعد موته الى ممالك صغيرة مشتتة .

وكانت كل محاضرات « مولر » تنحصر في مواضيع أربعة ـ أربعة علوم ـ علم تشريح الانسان ، وعلم النفس ، والتشريح المرضي ، وتشريح المقابلة.

والحق أنه يجب اضافة علمين آخرين على ماتقدم . هما : علم الحيوان ، وعلم الأجنة.

ولما قضى الرجل عام ١٨٥٨ ، ما كان لأحد غيره أن يقوم بكل هذه العلوم ـ فاقتسمها أربعة أساتيذ ـ كان كل واحد منهم يدرس علما من العلوم الأربعة . على حين أنك تجد الصبغة العلمية أظهر واتقن في محاضرات « مولر » مما هي في محاضرات

أخلافه الأربعة ، مات عام ١٨٥٨ قبيل أن ينشر (داروين والفردوللاس) نظريتهما في الانتخاب الطبيعي على صفحات جريدة (جماعة لينيوس العلمية) . ولامراء عندي في أن ذلك اللغز العجيب ، لغز الخليقة ، كان قد خضع لعقل (مولر) الناضج ، فمحصه كغيره تمحيصا نافعا مفيدا

على أن أصحاب العلم الصحيح من علماء علم الحياة ، وعلماء التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات ـ كل العلماء من أساتيذ تلك الفترة وجهابذة ذلك العصر ، وقاده الرأي فيه ، كانوا اذا تمحلوا لحل لغز الخلق المغلق الفهم ، المستعصى ادراكه خرجوا من لدنه كما دخلوا ، ونالوا منه كما ينال الريح الصرصر من الحجر الصلد . من أجل ذلك بقيت مسألة خلق العضويات غامضة مستغلقة ، من غير أن ينتابها التحقيق أو يتولاها الاستيضاح ـ حتى عام ١٨٥٨ ، وكان السواد الأعظم على اعتقاد أنها من المسائل الغير القابلة الحل .

وأنت تجد الالهيين ـ اللاهوتيين ـ وأحلافهم من أصحاب النظر في ماوراء الطبيعة يتخذون هذا المبدأ دعامة يدعمون بها مذهبهم ، مستدلين بذلك على صحة دعواهم . وهذا دليل بين على قصر العقل وضعف العلم

وليست تكون أعجوبة الخلق حيال هؤلاء النبغاء ـ أقل من أنها من عمل تلك القدرة غير المحدودة التي أخرجت الانسان الى هذا الوجود .

ومهما يكن من شأن هذه القدرة الفائقة ، ومكانة هذه الآراء من التدليل والبرهنة ـ فانها قد ظلت من المضحكات نحو ثلاثين سنة حتى جاءها عصر كانت فيه قد ظلت على ذلك فتره لم تعد الثلاثين عاما ـ تلك الفترة التي كانت مابين (ليل وداروين) ـ أي بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٥٩ ـ الى أن عرف الانسان التطور الطبيعي حتى نادى به علماء علم طبقات الأرض فادركه العالم ادراكا كليا صحيحا في ذلك العهد ـ كان الشائع أن الناموس الطبيعي يسير على نظام غير آلي ـ في تكوين الجبال وفي حركات الأجرام السماوية . وانما يكون نقيض ذلك حيث تكون الطبيعة العضوية ، وحيث يكون الخلق ، والحياة

في الحيوان والنبات .

والنـاس يذهبون في اعتقادهم حيال تقدير الحكمة والقدرة في الخلق مذاهب شتى ـ وكذا شأنهم أيضا في الخالق والمدبر للكون .

يقولون ان كل شيء في العالم غير الآلي انما يسير بنواميس السببية الآلية التي يرجع أصلها الى مملكة عالم الحياة

وقفت الفلسفة صامتة أمام هذا الاشكال. وحاول الناس من طريق التأمل والتفكير في مابعد الطبيعة وفي علوم الكلام معالجة ذلك ، فلم يوفقوا الى حل معقول ـ يكون شأنه شأن علم اليقين والتحقيق ، المصبوغ بصبغة العقل العلمي الناضج.

وانما شأن مابعد الطبيعة أنه يصور عالما خياليا تخرجه الرأس ـ من غير أن تتأثر تلك الرأس، ولا تخضع تلك الصورة ، لما وصلت اليه من المشاهدات ، وماوفقت اليه التجربة من الأعمال الجليلة ، والشؤون ذات الأثر الخالد .

تلك حال تامة ، وصورة حقة ، تتفق مع حال ألمانيا فى هذه السبيل ، وحسبك ماتراه من نظريات (هيجل) وناموس « المثل الأعلى التام » عنده ، حيثما أحرز هذا النظام كل مكانة هنالك، منذ صارت هذه الفلسفة (الفلسفة المثنية)، فلسفة رسمية في بروسيا. وانما حظت فلسفة «هيجل» هذه الحظوة، لأنها تقول بأن الارادة الالهية والنظام الملوكي يمثلان أرقى درجات العقل وأن كل الصور النظامية الأخرى أقل من هذه منزلة عند العقل . أما سبب الاقبال على عويص نظرياته في ما بعد الطبيعة ورواجها، فلأنها توءمن بنظرية التطور ـ بيد أنها تقرر أن التطور الظاهري ـ كان في حيز أرقى وأبعد من حيز الطبيعة في حيز الأثير الصرف والروحانية المطلقة أنما يعيش بمعزل عن عوالم المادة ـ يعيش في أثير نقي ، بل في عالم روحاني صرف بعيداً عن مكان في فلسفته بعيدا كل البعد عما استجمعه العلم التجريبي في تطور العوالم والأرض وقطانها

على أننا لا ننسى أن (هيجل) نفسه قرر في أسلوب المزاح بأنه لم يوفق الا الى واحد فهمه من الكثير من تلاميذه ـ وحتى هذا التلميذ لم يفهمه فهما حقا .

والبحث الصحيح يقتادنا الى حيث الوقوف أمام هذا السؤال : ماهي القيمة الحقة لنظرية التطور في عالم العلوم ؟ ونحن مضطرون للقول بأنها تقع في أختلاف بين . ان الحقائق الثابتة لأشياء خاصة في التطور ـ أو للتطور الفردي ـ سهلة الملاحظة والاستقراء ، كذلك أيضا شأن تطور سطح الأرض والجبال ـ جبال علم طبقات الأرض من حيث التحقيق .

والظاهر أن التطور الطبيعي للعالم ، قام على الأساليب الرياضية . ولن تجد أبداً بيانا آخر لمسئلة الخلق بالمعنى الصحيح يدل على الخالق الأول في هذه المناطق العلمية، وهو ما يحدو بالناس الى البحث عن أصل الأنواع المختلفة من الحيوانات والنباتات، سيما في ذلك ـ خلق الانسان . وتلك مسئلة تظهر أنها بعيدة جد البعد عن النشوء الطبيعي ـ كذلك كان الاعتقاد في النفس وطبيعتها وأصلها ـ وهذا من عمل علم ما بعد الطبيعة للبحث في كنه هذا السر الخفي العجيب

أما (شارل داروين) فجاءنا بمشكاة نستضيء بها اذا نحن نزعنا الى تبديد ماغشى هذه المسئله من ظلمات الجهل وترهات الغباوة . جاءنا بكتابه أصل الانواع (عام ١٨٥٩) فأبان في ثبته أن تاريخ الخلق لم يكن من عمل الاعجاز المكتوبة ـ وانما هي ظاهرة طبعية ـ يقول : وانما كان التنازع للبقاء بين الأجناس سببا في درجها في سلم الرقي ومراتب التحسين وهو من عمل التطور الذي كون عجائب تلك الحياة الآلية

الآن وقد تقبل علم الحياة نظرية التطور ـ وعرف الناس أن التطور يلحق ما الى ذلك من كل ناحية ـ وأن الألوف من المسائل الفسيولوجية والتشريحية التي تظهر للناس عاما بعد عام لتزيد ايمانهم بهذه النظرية . فانما يدل التناسل المحدث على ما أحاط نظرية (داروين) من المقاومات الشديدة ـ وما كان من مناهضة نظرية (داروين) أيضا لكل هذه المعارضات المهتاجة والمقاوماوات الثائرة

وأولى تلك المعارضات التي أعترضت نظرية (داروين) ـ نزوع الكنيسة ضد هذه النظرية بكل ما كان لديها من أيد وقوة ونفوذ وسلطان ـ ذلك لأنها كانت

على اعتقاد تام أن تلك ـ خرافة الخلق عند أصحاب الدين

ولقد آنست الكنيسة عونا قويا من الفلسفة الشفعية فيما بعد الطبيعة تلك الفلسفة التي لا تزال تدرس في أكثر الجامعات . بيد أنها تخاطر كل المخاطرة لتورطها في هذه السبيل الوعرة ـ وتلاقي العقبة بعد العقبة اذا حاولت أن تستقر على قاعدة التحقيق العلمي

ولقد كان لنظرية (داروين) أثر على مذهب المعتقدين بالخلق المستقل القائلين بأصول مختلفة للأنواع ـ أشد وأكثر من نظرية (لامارك). والحق أن (لامارك) كان قد سبق (داروين) في تقرير هذه النظرية ـ بخمسين سنة ـ ولكنه لم يوفق لتوفية نظريته حقها ـ ووضعها في أسلوب يقنع به العقل مطمئنا

على حين أن (داروين) نفسه لم يأمن جانب العلماء وبعضهم ممن لهم القدم الراسخة في حلبة العلم ، والباع الطويل في جو الفلسفة، وكان يرجع ذلك الى واحد من سببين. فاما أن يكون ذلك لعدم احاطتهم احاطة تامة بعلم الحياة ، أو لأنهم كانوا يذهبون الى أن (داورين) تمادى في سبيل التأمل والاستبصار حتى عدا مقام التحقيق ، وفات مدار التجربة

ولما ظهر (داروين) للناس بنظريته هذه عام ١٨٥٩ ـ وانبثقت كما ينبثق النور على الدجى ـ كان مثل علم الحياة الرسمي في ذلك العهد، كمثل جو حلك ظلامه واكتثفت عتمته ـ ثم أدركه نور الهداية باشعاعه على هذا الجو ، فأستضاء

أما أنا فكنت اذ ذاك اتأهب للرحيل الى جزيرة « صقلية » رغبة في الدرس وحبا في الاستبصار ، كنت مستقلا بدراسة الشفاعيات، درس بعض الحيوانات البحرية المجهرية (المكروسكوبيه) تلك الحيوانات التي صارت في أحسن تكوين تفوق كل الكائنات العضوية الأخرى في جمال تكوينها وتنوع صورها

على أن عنايتي بدرس هذا القسم الهام من أقسام الحيوانات هاته ـ التي عنيت بوصف أكثر من ٤٠٠٠ نوعا منها بعد ما عالجت في سبيل التحقق منها بالمشاهدة

والتجربة ، أكثر من عشرة سنوات وانتهى بي ذلك الى حيث وقفت على حجر الزاوية من بناء نظرية (داروين)

على حين أني كنت أجهل مذهب (داروين) هذا ـ في أول عهد أوبتي من (مسينا) الى (برلين) في ربيع عام ١٨٦٠

وكل ما نقله الي صحبي هنالك من أخبار هذا المذهب كان ينحصر في أنهم خبروني بأنه قد ظهر في جو انجلترا رجل ممسوس جاء بمذهب كان كعبة أنظار الناس ـ وعبث بكل أركان مذهب أصل الأنواع

هنا لك (ببرلين) وقع بخاطري ـ أن علماء (برلين) المحققين الذين يعتد برأيهم ويرجع اليهم في مواقف التحقيق ومواضع البحث الدقيق ـ مثل العالم بالمجهريات (الميكرسكوبي) المعروف ـ (اهرنبرج). والمشرح الشهير، (ريخرت). وأستاذ علم الحيوان ـ (بطرس) والجيولوجي «والعالم بعلم طبقات الأرض» (بايرتش) ، وقع بخاطري اذ ذاك أن أمثال هؤلاء كانوا متحدي الرأي في حكمهم على مذهب (داروين) واتهامه بأنه مشعوذ

أما خطيب (أكاذيمية برلين) (بواريموند) فقد تريث في حكمه على (داوروين) لأنه علم أن نظرية التطور ـ ان هي في الحقيقة والواقع الا ذلك الحل الطبعي الوحيد لمعضلة الخلق . في حين أنه كان يسخر من الذين يحاولون تطبيق هذه النظرية على غير أساس من العلم ، ولطالما صارح برأيه في أن علاقة الأبحاث الخاصة بالأنواع المختلفة كان يجب أن يكون لها من الشأن في نظر الطبيعين ما لشأن البحث في سلسلة انسان أبطال (هوميروس) عند علماء اللغات بالموافقة

على أن العالم النباتي العظيم (الكسندر برون) ـ فقد تفرد من بين هؤلاء تلقاء رأيه في مذهب (داروين) في نظرية التطور

أما أنا فأقول والحق يقال اني آنست في هذا الأستاذ الجليل والعلامة الفاضل ـ شجاعة أدبية طيبة، وايناساً لطيفاً ، حينما تصفحت لأول مرة كتاب (داروين) وكنت أتأمل في عميق مافي الكتاب من المسائل العريقة حيث يتعمق (داروين) في الطبيعيات

وحيث يبني مذهبه في التطور على أساس الاقناع ودعامة التحقيق ، ولقد كان مايعن لي من الشكوك التي كانت تختلج صدري منذ دراستي علم الحياة ـ يتلاشى أمام جواب كان يحضرني في تلك الحال

لاقيت أستاذي الشهير (رودلف فيرخو) عام ١٨٥٢ في (ورتزبرج) ـ وكانت العلاقة بيني وبينه متينة جدا ـ فكنت له تلميذا وكنت له مساعدا ، وكان هو على اعتقاد خاص من حيث هذه النظرية ، لذلك تراه قد قام بتمثيل دور هام فيما قام حول هذه النظرية من الجدل العلمي يعارض غيره في الآراء أشد المعارضة ، وعندي أنه من الرجالات المعدودين ذوي الرأي الصحيح والمقام الجليل . ولذا اتبعه في رأيه من فحول العلم وجهابذة الفلسفة عدد غير قليل ، خلال نصف قرن . وأنا أحد الذين تتبعوا (فيرخو) في تطوره العقلي في العهد الأخير : فالفترة الأولى في حياته العلمية تبتدىء من سنة ١٨٤٧ الى سنة ١٨٥٨ في (وارتزبرج) ، وهو يظهر بمقدرة عظيمة كان لها أثر خالد في الطب انتهت باستكشافه الفذ في علم التغاير المرضي الحويصلي في العشرين السنة التي وليت هذه الفترة أي من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٧٧ يعالج السياسية وزاول علم الانسان وكان في أول أمره من أنصار المذهب الدروينى وممن عمدوا الى تقويته ثم ساوره الشك فأدى به ذلك الى رفض هذا المذهب ، ويبتدي تاريخ هذه الفترة من عام ١٨٧٧ ـ لما قام وأعلن في محاضرته المعروفة «حرية العلم وأثر الحكومات الحديثة فيها» رأيا قوض به دعائم تلك الحرية ورفض مذهب التطور باعتباره مذهبا ضارا بالحكومات وأراد أن يمحو أثره من دور العلم

وكان هذا التطور عظيما ذا أثر كبير . واني لاقف في زيادة الاستيضاح هنا ، حتى اذا انتقلت الى الفصل الثاني من هذا الكتاب وفيت الموضوع حقه ، زيادة في شأنه ، ودليلا على خطورته

ولعلك تسائلني لم أرجأت مناقشة هذه المسألة الى فصل آخر . فأقول لك : اني عمدت الى ذلك لأني هناك أجدني مضطراً للتوسع في مثل هذا الموضوع الذي له

اتصال بمسألة ذات بال ـ هي تسلسل الانسان من القرد .

أما الآن فأقول : ان (مسألة الذكاء) كما يسمونها في نظرية التطور لم تجد رواجا في جو برلين بل قوبلت بمعارضة شديدة ، أكثر مما عهدته في موائل التربية ومراتع العلم في المانيا . وأنت تعلم أن هذا المظهر في برلين أثر من آثار «فيرخو» . واننا لا نستطيع هنا أن ننظر في تاريخ النزاع حول فكرة التطور الا مقصورا على الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر أما مذهب « داروين » فقد لاقى من النقد والمعارضة كل جظة من ذلك ، في كل مكان هنا وهناك . وفي آخر عشرة الاعوام ، مابين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٤ ، أخرجت المطابع عددا وفيرا من المصنفات الخاصة بهذا المذهب ، العاملة على تدعيمه على أسس علمية قويمة وتنميته بما يزيد الرغبة في الاقبال عليه وفي نزوع العقول الى أستيعابه . ولقد كانت أول عنايتي بذلك عام ١٨٦٦ ، اذ أخرجت كتابي في العلاقات الآلية العامة في العضويات ، لا بين عن كل موضوعات نظرية التطور وعلاقتها بالعلم الصحيح ، والفلسفة «الوترية» ثم عدت بعد ذلك ففحصت كل نتائج هذه المؤلفات في عشرة الطبعات التي ظهر بها مؤلفي « تاريخ الخلق » .

أما في كتابي « تطور الانسان » فقد حصرت كل همي في أن أردت تطبيق مباديء التطور من كل وجوهها على الانسان ، وأن أضع صورة ظنية تقريبية وأن أضع جدولا تقريبيا عن سلسلة آبائه التي تقدمته في العصور الأولى في عالم الحيوان

أما الأجزاء الثلاثة الخاصة بقانون نشوء الأنواع النظامي (١٨٩٤ ـ ١٨٩٦) فيحتوي على القسم الطبيعي لعالم العضويات الطبعي ، جعلته قائما على قاعدة تاريخية ولقد ظهر في مجلة الكون التي كانت تدافع عن فكرة داروين ، منذ عام ١٨٧٧ ، كما ساعدت مصنفات عديدة على نشر هذا المذهب واتساع نطاق البحث فيه

والحق أن كل ما كان من ذلك من حيث انتشار المذهب أو مؤازرة العلم له وقيامه على قاعدته القويمة في الثلاثين السنة الأخيرة ولقد أظل مذهب التطور كل فروع علم الحياة ، حيث اعترف به كقاعدة ضرورية لذلك العلم على أن آلافا من المستكشفات

ومظاهر الملاحظة والتجربة التي لاحظها العلماء بالنظر في أقسام علم النبات، والحيوان، والانسان، كانت تزيد من جلاء مذهب التطور وبيان نظريته في أسلوب واضح بين وهذه المستكشافات تظهر جلية في تقدم علم الحفريات وعلم الأمراض، وعلم التشريح المقابل، وعلم الأجنة، وعلم الاستيطان، وعلم وظائف الأعضاء، ولقد زادت معلوماتنا بهذه المستكشافات وكم أكتسبت فكرتنا في وحدة الفلسفة (الوترية) كل ذلك يظهر في كل كتاب من كتب علم الحياة الحديثة واذا قارنا بين هذه المستكشفات وبين الذي كان يرويه علم التاريخ الطبيعي أمكننا أن نتعرف المسافة التي قطعها العقل البشري في تطوراته وانك لواجد أثر التطور بينا في فروع علم الانسان، وتاريخ الانسان، والاجتماع، وعلم الأخلاق، وعلم التاريخ، فالتطور قد أحكم صلة هذه العلوم بعضها ببعض وهي لاتستطيع أن تخرج من حيز هذا المذهب، اذا لاحظنا ذلك كان موضع سخرية أن نرى المجلات التي تبحث في الدين ومابعد الطبيعة معتقده أنها تقضي على مذهب «داروين» زاعمة أنها صرعت مبدأ التطور

* * *

في فجر القرن العشرين، راجت نظرية التطور . وكان لها الحظ الأوفر بين النظريات الخالدة . وبدأت الكنيسة تبدي شيئا كثيرا من الملاينة والموادعة باسمة في وجه العلم حتى أنها حاولت التوفيق بين معتقداتها ومذهب التطور

حاول ذلك بعض الفلاسفة واللاهوتيين في عشرة الأعوام الماضية ، وكانت منهم طائفة رشيدة عاقلة ، عملت ماستطاعت لتحقيق ذلك ، وعبثا كان ماصنعت. أذكر من أولئك اليسوعي «اشريخ وازمان» (لوكسمبرج) ـ وكان من المبرزين وكان أعلم علماء عصره في علم الحشرات فتوفر على البحث والاستقراء في علم الحيوان ، واختص في ذلك بدراسة حياة النمل وما يكون من تطور حياته في بيوته ، تلك الأحياء الصغيرة التي تدل على تفوق وأحكام كبيرين في كل عمل تعمله . ولقد دلنا هذا العلامة على ان الحالات التطورية التي نلحظها في النمل ، متسلسلة من أنواع خاصة من الحشرات .

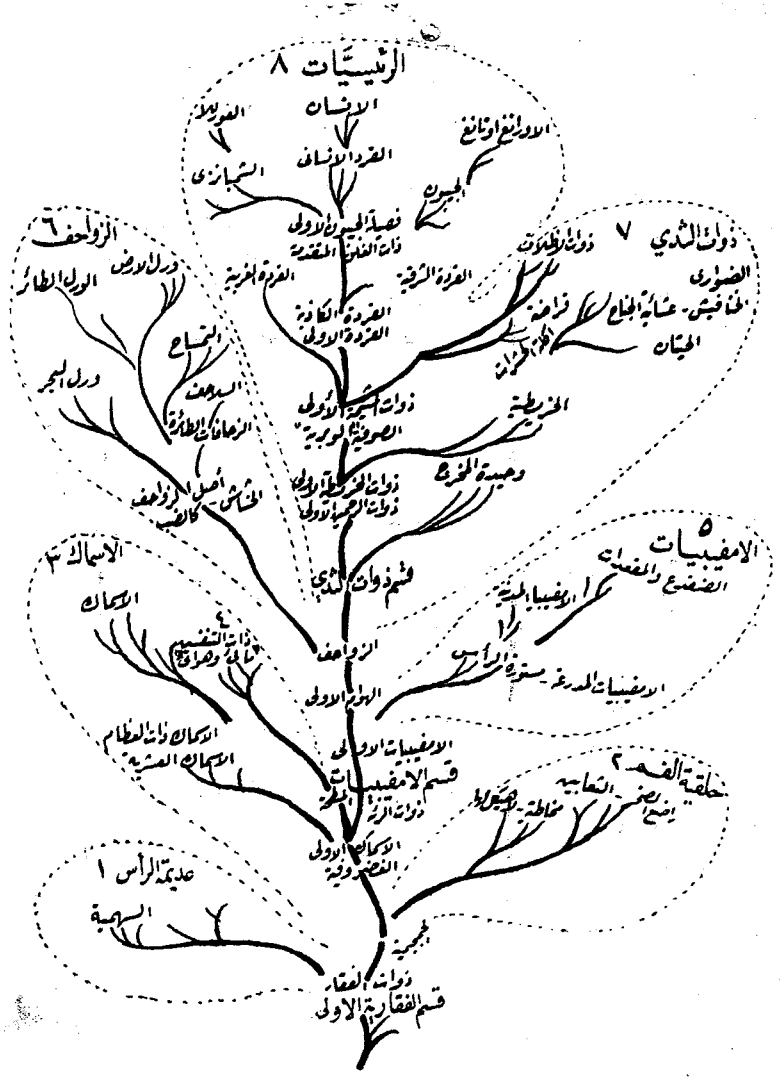

الشجرة النسبية لسلسلة الحيوانات الفقرية

لتتبين أصل الاسماء الواردة في هذه الشجرة عليك بالجدول الوارد فى آخر المقدمة

ظهرت مقالات «وازمان» الطريفة في شرح نظرية «داروين» في ظاهرة الحياة عام (١٩٠١ — ١٩٠٣) وفي المجلة الكاثوليكية ولقد جمعت الآن في مصنف واحد معنون بعنوان (علم الحياة ونظرية التطور الحديثة).

ان كتاب «وازمان» هذا لمثل أعلى في فن سفسطة اليسوعيين وهو ثلاثة أقسام كل قسم منها قائم بذاته. أما القسم الأول فيحتوي على مقدمة مسهبة في الكثلكة، وفي نظرية علم الحياة المحدث على وجه الاطلاق، وفي نظرية (الخلية) ونظرية التطور على الأخص، وأما القسم الثاني فيهمنا فيه (الفصل التاسع). وهو أفضل ما أدمج في الكتاب من كلام، وأشرف ماهو فيه من معنى، وعنوان هذا الفصل «نظرية الثبات ونظرية التطور». هنالك في هذا الفصل يفيض هذا العالم النافع، بما حصل عليه من تجربة، وما استكنه من دراسة طويلة الأمد، في نظريات علم العلاقات المتبادلة في العضويات ووصف عادات الحيوان وما استطلعه من وصف حالات النمل وأسراته ثم يذهب في كلامه الى أنه لاسبيل الى تفهم كل هذه الحالات على حقيقتها الا بتطبيق نظرية مذهب التطور عليها. وأنه من غير ذلك لا تتسق أنظمة هذه الظاهرة في مبدأ الحياة على دعامة التحقيق مطلقا وكذلك هو يذهب الى أن القول بالثبات، والخلق المستقل، قول مستغلق الفهم غامض لا يعقل وأنه لا يمكن تطبيقه على هذه الحالات وأنه لو أدخل على هذا الفصل بعض التغيير لكان جديرا بأن يلحقه بكتاب «داروين» أو «وازمان» أو غيرهما من أصحاب مذهب التطور.

أما الفصل الأخير وهو الجزء الثالث من الكتاب فلا يتسق مع الفصل التاسع أبدا. ذلك لأنه يجري على قاعدة نقيض مذهب التطور في الانسان. حيال ذلك يقف القاريء تعروه الدهشة وتتولاه الحيرة، فيسائل نفسه. أصحيح أن «وازمان» كان يذهب هذا المذهب في معتقده، وفي تقبله أمثال هذه المتناقضات؟ أم هو يخادع قراءه فلا يريد أن يظهرهم على حقيقة معتقده وشاء من أجل ذلك أن يمهد أفهامهم لتقبل المعتقد الصحيح فذهب بهم هذا المذهب؟

على أن كتاب «وازمان» كان هدفا لسهام الناقدين من نبهاء الدارسين، وفضلاء المتعلمين . نذكر من هؤلاء (اشريخ وفرانسيه)

وبينا ترى الرجل في بيانه ـ صريحا لا يتمشى كلامه الى مناحي التأويل، ومتجهات التقول، تراهم وهذه الحال متشبثون بما يبرأ الرجل منه ـ لا يطمئن لهم خاطر الا اذا دسوا عليه ما يشاءون من القول الزيف ليستميلوا الناس الى الاعتقاد بأن الرجل في علمه على وفاق تام مع الروح اليسوعية .

آية ذلك ـ ماجاءنا به (اشرخ) مفندا كل هذه المفتريات ، دالا على ما فيها من المتناقضات المتعافة — والمتباينات الضالة التي قامت عليها تلك الحركة ـ حركة (التطور الاكليروسي) . ولقد لخص نقده في موجز يقول فيه . (لو كانت نظرية التطور تتفق مع المعتقد الكنسي (الديني) على الحال التي تتبينها بها هنا ـ لكان ذلك من الأمور التي لا يستمرئها العقل ، لأن (وازمان) يقول صراحة ان هذا الوفاق مستحيل أن يقع ولأنه دال على ذلك ، بالدليل الذي لا يتسرب اليه ثم شك .)

والحق ان مذهب (وازمان) في التطور لمن الأمور التي لا قبل لمخلوق أن يستوعبها أو يتفقها لأنه أفسد هذه النظرية افساداً

ولقد حاول بما فيه من الروح الدينية الغالبة — أن يبرهن على أن أمثال هذه الأقضية ـ مما لا يمكن للعقل أن يستخضعها — حدا به ذلك ، اعتقاده — بقصة خلق العالم — على ما هي عليه من الغرابة الدينية حتى يتاح له أيضا، أن يقول بنسبة تأسيس علم التطور ـ (لأوجست) القديس ـ و (لتوماس) القديس . لا (داروين ولالامارك). (فاذا كان هذا العالم انما يسير على نظام طبيعي محكم ، كان تدخل الخالق في شأن هذا النظام وفي تحويله — غير معقول) وكان للانسان كل اختيار من حيث العمل. ذلك لأنه حي بروحه ـ ولأن تلك الماهية الروحية يستحيل أن تكون أو تنشأ عن المادة حتى ولو كان ذلك من عمل القدرة المقدسة اللانهائية (غير المحدودة) ولأنه يستحيل أن تكون على حال هي تلك الحال التي نألفها في النباتات والحيوانات .

بينا ترى (فرنسيه) يقدم لنا بيانا مسهبا . نافعا قيما ، موضحا فيه أعمال اليسوعيين التي تناولت متنوع الفروع العلمية ، تجد ذلك في رسالة اسمها (العلم اليسوعي) طبع (فرانكفورت) عدد ٢٢ — ١٩٠٤ . في مجلة اسمها «فريفوت».

وهو يقول بحق . وانما الخطر كل الخطر في تدخل الروح اليسوعي تدخلا نظاميا في العلم ذلك لأن نظريتهم هذه مهما غلوا في اثباتها وتمادوا في البرهنة على صوابها ـ لن تجد من الناس من يؤمن بها ، أو يصانع أهلها ، أو يشايع معتنقيها.

ومهما يكن من أمر هذا المذهب العلمي الديني ـ فاني لا أماري القول اذا أنا قلت أن الأب (وازمان) وأشياعه — قد قاموا بخدمات نافعة جليلة في سبيل تقدم العلم .

على أن المذهب الكاثوليكي — وهو أشد المذاهب المسيحية أثرا، وأكثرها انتشارا ، لم يقو على الوقوف أمام مذهب التطور ، بل هو جنح مرغما لتقبل نظريته واعتناقها واقرارها . تلك النظرية التي تتمشى مع مذهب (داروين ولامارك) في التسلسل والتي لم تظهر وتعرف تماما الا منذ عشرين عاما .

هنا لك عرفت هذه الشجرة العظيمة شجرة الخلق — مقطوعة الجذور ناقصة الفروع العالية منها.

على حين أن هذه النظرية لا تؤمن بالتولد الذاتي ولا بخلق الانسان من غيره من الحيوانات . أما بقاء هذه المستثنيات فقصير ، وأما علم الحياة فلا يبذل في هذه السبيل كبير عناية ـ على أن الدين يقنع من ذلك بالقول : بأن كل هذه الأنواع المعنعنة، ان هي ألا منشئة من مخلوقات بسيطة الأصل والشكل ، وفاق ماقاله « داروين » في أصل أنواعه .

أما الاعتقاد بمعجزة خلق العالم ، فقد انحصر في القول بأن الله قد خلق الصورة الأولى التي صدرت عنها كل الأنواع الطبيعية بالتطور

حيال ذلك — يطلق « وازمان » هذا الاسم « الأنواع الطبعية » على كل الأنواع التي تمت بصلة الى أصل واحد . واذا شئت أن تستوضح ذلك المعنى، قلت

ان هذه التسمية عنده « وازمان » تقابل ما يذهب اليه أهل النظر والتقسيم الوصفي للعضويات اطلاق اسم لكل المخلوقات المتقاربة الى الأصول الأولية . وعنده أن الاربعة آلآلاف النوع من النمل متصلة الخلقة تكوّن في مجموعها نوعا طبيعيا واحدا . كذلك شأن الانسان عنده ـ فانه يقول بانه يكون نوعا طبيعيا خاصا من غير اتصال بكل ماعداه من ذوات الثدي .

تلك الأقاويل السفسطية التي يتمحلها « وازمان » اذا هو نشط يبين الفارق بين « الأنواع النظامية والأنواع الطبيعية » تلقاها منبثة أيضا في مصنفه الفلسفي (آراء في التطور) . حيث ترى مايذهب اليه من تقرير الفارق بين التطور الفلسفي والتطور العلمي ، أو بين التطور في أصل واحد وفي أصول مختلفة .

وأنت تقرأ له في الفصل الثاني عشر من هذا المصنف — رأيه في « الخلية » وفي التولد الذاتي ـ وهو بالمعنى الأوضح ـ خطل سفسطي مبين ، ومن عهد ظهور الحياة على الأرض حتى الآن ، كانت هذه المسئلة في علم الحياة — مسئلة المسائل صعبة الحل ، مغلقة الفهم .

والمعترضون على الرجل كثار ، والناقدون مذهبه شيع متعددون ، نذكر من يتهم العلامة « الدكتور (هينريش شيميت) من « بينا » نذكر هذا الدكتور وقد ذاع مؤلف نافع له في هذا الموضوع . والقاريء يهجم على ممتع الآراء في الموضوع ويستعرض أشكالا من لذيذ الفكر ، والوانا من مستملح الأعتراضات ، حتى اذا قطع في الكتاب مرحلة ، ووقف عند باب التولد الذاتي والاستاذ « رينك » (عام ١٩٠٣) تبين له كيف أنحى الرجل باللائمة على الاكليروس ، وكيف شنع بهذه الطائفة ونددد بتهافت آرائهم ، وسقم أفكارهم ، وتناقض أقوالهم في هذا الموضوع .

هم يعدون النباتي العظيم الأستاذ « رنيكل » من « كيبل » بين أولئك المتدينين المعارضين لمذهب « داروين » — ويطلقون عليه هذا النعت لأنه من زعماء جماعة « الهيرنهوز البروسية » على أنه في أصل معتقده — يتفق تمام الوفاق مع الأب

الكاثوليكي « وازمان » — في تأملاته حيال النظر في مسئلة التولد الذاتي . ذلك أن الرجلين على اعتقاد راسخ بأن ظهور الحياة على الأرض لأول عهدها بالظهور ـ انما هو يرجع الى أعجوبة عظيمة شاءت القدرة اللانهائية « غير المحدودة » أن تخرجها على هذه الحال . تلك القدرة التي يسميها « رنيك » ـ « العقل المدبر لهذا الوجود » .

أما أنا فقد تحديت اظهار معارضة ذلك ، للعلم في آخر ما ألفت ـ في كتابي المسمى « لغز العالم » وأيضا في كتاب (عجائب الحياة) . على أني قد عنيت عناية خاصة . بدرس (المونرا) لأول عهد ظهورها في عالم الحياة ـ وقد كان أن غاية ما أبلغني اليه البحث في ذلك ـ حيال تصور هذه الظاهرة ، كرية من (البروتوبلازما) مخضرة اللون عديمة النواة . وانما تظهر الحياة في هذه الظاهرة بالنماء وبتشاطرها الى شطرين اثنين

وأنت في حال تصور أصل (المونرا) وتعددها واتخاذها أصلها الأول من تجمع مركبات غير عضوية من الزلال ـ وتحولها الى حالات متباينة في تطورها ، حتى تبلغ الى أن تكون خلايا ذات نواة . كل هذه وأشباهها من الأمور التي لا تتفق مطلقاً مع المعتقدات اليسوعية ـ تجد (وازمان) في مؤلفاته يتهرب منها بكل ما أوتيه من قوة فكرية ـ ويغفلها كل اغفال ، فرارا من التورط في أبحاثها .

ولئن كانت الصبغة لا تزال شديدة الأثر في ألمانيا ، وكانت سلطة الكنيسة الكاثوليكية غالبة ظاهرة ، في حياة الأفراد والجماعات هنالك في ذلك الجو حتى في حزب الوسط ، فان هذا التغير أو الانتقال الذي ينتاب بعض جهات ألمانيا لكفيل بتغير حال التربية مهما اعترض ذلك من الحوائل .

***

في عام ١٨٧٧ طلب (فيرخو) الى الحكومة الالمانية أن تمنع درس مذهب التطور من مدارسها خيفة أن يصدع هذا المذهب معتقد النشء ويذهب بالبقية الباقية من مما ورثوه عن أجدادهم من الدين . فكان هذا الطلب عند أولى الأمر القابضين على

دفة التعليم مجاباً، وتقبله وزراء المعارف من زعيم حزب التقدم معتبطين متهللين، وكان على أثر ذلك أن حرم على النشء تعلم مذهب (داروين) ، وحيل بينهم وبين دراسة علم الحياة فاقيم بين الناس وبين البحث في هذه العلوم الحية حجاب صفيق . الآن وبعد أن مضى على ذلك خمس وعشرون سنة ـ نهض اليسوعيون فأصبحوا يتطلبون نقيض ذلك واعترفوا صراحة واستباحوا لأنفسهم ماحرم على أسلافهم من تحدي البحث في محدث العلوم ، وطريف النظريات . ذلك أنهم أيقنوا أن نظرية التطور ، قد بلغت أشدها . وتم اكتمالها على دعامات علمية قويمة فجاءوا من بعد ذلك يحاولون أن يوفقوا بين هذه وبين العقيدة . أنه لتاريخ مخز ـ على أنا نجد أمثال هذه من المخزيات اذا نحن عنينا بدرس تنازع الحرية الفكرية، وتعرف الأمم الأوروبية الأخرى نظرية التطور

والطبقة المتعلمة في ايطاليا لا تنظر الى (البابوية) الا بعين الاستخفاف وبكل ما في ذلك من استهانة متناهية . ولقد أتيح لي أن أقضي سنين عديدة في جو ايطاليا ـ فلا أذكر أني لاقيت من بين المتعلمين الايطاليين انسانا تقع عليه صفة التعصب الديني ، ويلابسه نعت قصر النظر وحصر الفكر في منطقه ضيقة ، كأولئك الكاثوليك الألمان الذين أعرفهم ـ وأعرف أنهم من حزب الوسط في مجلس الريشستاغ . وليس أدل على رد الفعل الخلقي الذي غشي الكثلكة الالمانية ـ من تسمية البابا هؤلاء ـ بأنهم جنوده الشجعان ، وبأنهم خير من يكون قدوة لغيرهم من سكان البلاد الأخرى .

على حين أن تاريخ الكنيسة الرومانية أفصح لسان لمن عرف كيف يستنطقه ليعلم أن ألد عدو قام في وجه الحرية العلمية، وحرية التعليم ، هو الفاتيكان محاولته بأبدع الوسائل وأغرب الحيل ـ لمحاربة حرية العلم وحرية التعليم .

وكان على امبراطور المانيا الحالي أن يعتبر أن أقدس ما عليه من واجب أن يحافظ تقاليد الاصلاح الديني فيفتح لألمانيا باب العلم على مصراعيه وبذا يكون الألمان

على خطة (فردريك) الأكبر ـ وقد حاول تنفيذ هذه الخطة بكل ما أوتيه من قوة وأيد ـ وعبثا كان ماحاول آية ذلك أنه خضع لسلطة رجال الدين، وخضع لسلطان الكنيسة وأستظل بظل الدين ففنيت كل سلطة له في السلطة الدينية ، وضحى كل رغائبه الاصلاحية ، وميوله النفسية ، وما كان يتطلبه ذلك من النشاط للعمل ، والنهوض الصحيح ـ فكان سائرا مسيرا ـ وفقد كثيرا مما كان يرجى منه من الاصلاح والنفوذ ، لتورطه في هذه السبيل . وكان من جراء ذلك أن قامت الصحف الكاثوليكية في شهر سبتمبر من عام ١٩٠٤ تنشر على الناس أخبارا تنم عن قرب انضمام الامبراطور الألماني ورجال البلاط الى الكنيسة الكاثوليكية .

وما هذه الرواية ببعيدة التصديق أو متعسرة احتمال الوقوع في بلاد تفخر بأن المذاهب المسيحية الثلاثة ـ الارثوذكسية والبروتستانتية والكاثوليكية ـ كلها تجد رواجا ونفوذاً وقبولا في جو المانيا وفي دوائرها المختلفة أكثر مما هي ترى ذلك في غير هذا الجو . والرأي عندي أن السبب في ذلك انما يرجع عادة الى تأثر نفسية الالمان بالأوضاع السياسية وتطورها من حال الى حال ـ ثم الى اضطراب العقول ، وأيضا يرجع الى سذاجة المزاج في الشعب ، وبساطة أخلاقه ، ولبان عريكته الى حد يجعله لا يميز بين الواجب والجائز ـ وهل يستطيع أن يمعن النظر في الأشياء ـ بل يتقبل ما يراه من غير بحث ولا تنقيب .

وبينا نرى التعليم في كل مدارسنا ، خاضعا لنير العقيدة اذا به مطلقا من كل القيود عند جيراننا من الأمم الأخرى . خذ فرنسا مثلا وهي الأبنة البارة للكنيسة ، تجدها لا تخضع لسلطة أمها كما نخضع نحن هذا الخضوع المستكين ـ ذلك أن فرنسا أخذت تفك نفسها من سلاسل القيود القديمة فنشطت الى الأصلاح من بعد ذلك فاحلت مباديء الأصلاح الديني محل علاقتها مع الكنيسة الكاثوليكية على حين أن المانيا مبعث الأصلاح ومستقر الحق ، تعمل على نشر الدين ما استطاعت اليه من سبيل ـ فيتسابق أعضاء الريشستاغ ورجال الحكومة في تمهيد السبيل لليسوعيين ، وفي

تمكين روح التعصب المذهبي من النشء في المعاهد ـ وفي تقوية هذا الروح ـ روح التعصب الديني ،في نفوس الناشئين من المتعلمين

وختاما لهذا الفصل نقول : لنكن على اعتقاد ـ أن آخر عصر لنظرية التطور في حياة تاريخها ـ هو أن يتعرفها اليسوعيون وتتغلغل في علومهم لغاية غير الغاية الأصلية لها ـ فتجيء على عكس ما ينتظرونه منها ـ ذلك . أن يحل العلم الصحيح محل الايمان الأعمى .

الفصل الثاني

النازع القائم بين المخلوقات على شجرة الأنساب

اتصال نسبنا بآصرة تربطنا الى القردة وأصل ذوات الفقار

أسلفنا القول في الفصل الأول من هذا الكتاب — على نظرية التطور ، وجئنا للقاريء بلمع يتبين منها الباحث مبلغ ماوصل اليه المعارضون لهذه النظرية ، ومقدار ما بلغوا اليه من نقض هذا الرأي ، وتحديهم دحضه ، والعمل على نقيضه . على أنا اذا تابعنا البحث في مقارنة الفكر المتباينة ، والآراء المتضاربة كثيرة الذيوع في هذا الموضوع — انتهينا من ذلك الى الرأي السائد عند الناس منذ القدم المتغلغل في أدمغتهم ، الراسخ في عقولهم — أن مسئلة خلق العالم لا يحيط بها عقل ، ولا هي تخضع لتفاعيل العلوم المادية — ولقد قام ذلك على خرافات المتقدمين ، وأساطير الأولين ، ولم يتعرف الناس سبيلا الى الاعتقاد أو التسليم بالنشوء الطبيعي حتى هذا العصر الأخير ، ولا هم آمنوا تماما بنظرية التطور الا في فجر القرن العشرين ـ كان ذلك بعد أن خضعت الكنيسة لهذه القوة ـ قوة العلم التجريبي ، وسلمت بنظرية التطور هاته ، على ما هي عليه من العدوان مع العلم ، والكراهية لكل عالم .

وكان من الحق على العلم حيال هـذه النهضة ، أن يذكر « وازمان » الأب اليسوعي ولا ينسى فضل تعاليمه وقيمة تأثيرها في هذه النهضة .

ولو كان « وازمان » هذا على شيء من الشجاعة الأدبية ، الى حد يستطيع معه أن يجهر بكل ما يعتقد ، ويصارح الغير بكل ما يكنه ضميره ، ويطمئن اليه عقله ، لو أن الطبيعة كانت قد حبته بهذه الميزة ، لكان علمه أعم ، وفضله أنفع وأتم ، بل ولكان قد حرر نفسه من قيود الدين ، وأغلال الكثلكة ـ فكان لنا أن نقول بأن له أسوة بالكثير من مشهوري اليسوعيين ـ نذكر من بينهم الكونت « هونسبروخ Hoensbroech » والأستاذ العظيم ـ الجيولوجي الكبير « رينارد Renard »

(من غنت) . على حين أن تاريخ نظرية التطور لابد ذاكر له «وازمان» ما كان له من الشأن ، والأثر البين قبالة أعتناقه المذهب الداروينى باسم المعتقد المسيحي .

ان في درس حياة هذا الرجل لدليلا لا ينقض على أنه كان من أشياع مذهب التطور ، الذين يؤثرون هذا المذهب العلمي الخالص الجلي على العقيدة الكنسية الغامضة

ولأنت مستجل ذلك ـ عند ما تتفقه تلك المسئلة الكبرى ـ مسئلة « تسلسل الأنسان من القرد » ـ هنالك ترى ما بين هذه المسئلة ، وبين الاعتقاد بأن الله « سبحانه وتعالى » قد خلق الأنسان على صورته ، من التناقض والتنافر .

أما نظرية تسلسل الانسان من القرد ، فلم تتمكن من عقول الخلق الا منذ خمس وأربعين سنة ، حيث أستقرت على مستقر ثابت تدعمه نظرية التطور ـ وحيث ذاعت آراء « داروين » المنبثقة من ينابيع علم طبقات الأرض . والحق أنهم جاءونا بهذا الرأي بعد أن وفقوا لما وفقوا اليه من فضائل علم الطبقات الأرضية على الأخص ، وبعد أن أمنوا على أنفسهم التهافت اذا هم صارحوا الناس بأمثال هذه الآراء الطريفة .

فاما أن يكون الأنسان قد ظهر في عالم الحس ، كما ظهر غيره من الحيوانات ، بعمل خالق خاص ـ كما تحدثنا بذلك رواية موسى في خلق الأنسان ، وكما ذهب اليه « لينيوس Linné » « لينيه » وكما قال به « أجاسيس Agassiz ١٨٥٨ » «ان هي الا فكرة مجردة للخالق» . أم هو الأنسان قد نشأ عن الحيوانات ذوات الثدي على رأي العالمين الفاضلين «لامارك» «وداروين»

ولنعد بالبصر كرة أخرى على نظرية تسلسل الانسان من القردة ، لنعلم قيمة هذه النظرية عند الباحثين ، ومكانها من العلم ـ وما حدا بالعلماء الى البحث فيها ـ ومن هؤلاء الذين عنوا بوضعها فنقول :

ان أول واضع لهذه النظرية ـ نظرية تسلسل الأنسان من القردة وأول « مبرهن على صحتها » بالبرهنة العلمية هو العلامة الكبير « عالم مشهور في علم الحياة » ـ « يوحنا لامارك » . ولقد تابع البحث في كتابه فلسفة الحيوان الذي ظهر عام ١٨٠٩

في تطور الانسان وقرب النسبة بينه وبين القردة في ذلك التطور ـ وما كان براه في تلك الحالات من أحكام الشبه سيما بين الانسان والراقي من القردة مثل «الشامبانزي » والأورانج أوتانج » ، فشبه الانسان بالقرد في المشيء منتصبا ، وفي أشكال الأيدي والأرجل ، وفي أسلوب النطق ، وفي الاستعداد الراقي للذكاء ـ كلها أشياء كانت تبعث « لامارك » على الاكباب على الدرس ، والبحث والاستقراء والملاحظة ـ حتى اقتادته الى ماوصل اليه من النواتج الباهرة ، التي بهربها العالم أجمع .

وما ظهرت نظرية (لامارك) في جو العلوم ، أن طاف عليها طائف النسيان ، ردحا من الزمن ، فكان أمرها بدءا . حتى أن جاء « داروين » بعد نصف قرن من ذلك الحين ـ وأعاد لها سيرتها الأولى ، وأخذ يجمع نتائجها ، مجدا في بحثه بكل ما استطاعه من حول وأيد ـ واضعا نصب عينيه تلك الفكرة « لابد أن أوفق الى الأصل والى تاريخ الأنسان »

أما « برون Bronn » الألماني مترجم هذا المذهب ـ فقد زعم في أول أمره ، أن هذا المذهب ـ مذهب موقت لا يعيش الا فترة معينة ، ولذلك توقف عن متابعة العمل . ولما سأل «ولاس» «داروين» في ذلك قائلا : هل أنت تستطيع أن تنجز عملك هذا ؟ أجابه « كنت أود التهرب من هذه المسئلة ـ لكراهة الخلق لها كل الكره ـ على أني أعتقد اعتقاداً لاتشوبه ريبة ـ أنها من ألد وأنفع المسائل التي يتحتم على المفكر أستيعابها . »

وتاريخ ظهور هذا العمل الجليل يرجع الى عام ١٨٦٣ . حيث قام العالمان النيران ـ « توماس هكسلي » في انجلترا (وكارل فوت) في (المانيا) ـ مناديان بأن تسلسل الانسان من القردة ، شأن من أكثر الشؤون التي أدت اليها نظرية داروين ، وكانا في ذلك يدللان على صحة القول بظاهر العمل ـ فأقاما هذا العمل وشيداه على اساس عملي مبين .

ولقد ظهر مصنف هكسلي في (مكان الانسان من الطبيعة) فكان لظهوره الأثر

الأكبر في جو العلم ، وحلبة الطباعة ، على حين أنه استوضح هذه النظرية بجلاء تام في ثلاث محاضرات. أما الأولى فقد أبان فيها التاريخ الطبيعي للقردة الراقية وأما الثانية فقد تحدي فيها البحث في الصلة القائمة بين مايلي الأنسان من الحيوانات من حيث التكوين الجنيني والتشريح وأما الثالثة فقد تعمد البحث فيها ـ في البقايا الحفرية للانسان في العصور الغابرة .

ولما كان عام ١٨٦٦ ـ عالجت البحث في نظرية التحول ، مستعينا في ذلك بأصول علمي التشريح ، والأجنة ، وجعلت كل اهتمامي في أستقصاء درس ذوات الفقار وتقسيمها الوصفي والطبيعي وانتقالها في كل طور من أطوارها منذ كانت في العصور الأولى . ومن هذا يصبح علم الأنسان قسما من أقسام علم الحيوان. ولقد عمدت الى اظهار كل ماوصلت اليه من هذه الأبحاث ، وصور تلك النظرية التطورية، في كتابي الذي وضعته (تاريخ الخلق) . ثم اضفت على ذلك ماعن لي وما وفقت اليه أخيرا ـ في الطبعات الحديثة من الكتاب .

على أن (داروين) نفسه قد خص نظرية التطور بمؤلف خاص يبحث في عمل التطور ليس الا. ولقد ظهر المجلدان اللذان وضعهما في تسلسل الأنسان ـ عام ١٨٧١. وفيهما بحث ممتع يبين مذهب الرجل في تقرير نظريته ـ الأنتخاب الجنسي ـ او نفوذ الانتخاب ، وأثره في الحب الجنسي ، وما يتفق مع هذا من القوى النفسية ـ وآثار كل هذه التفاعيل في أصل الانسان .

ولئن كان حظ هذا الشطر من مذهب (داروين) ـ من نقد الناقدين، أكثر من غيره ـ فانه والحق يقال ، أجل وأعظم مافي نظرية الرجل ـ بل هو عمادها الذي قامت عليه . وليس يدل ذلك على أهمية هذا الشطر ، من حيث مبدأ التطور فحسب، ولكن نفعه قد شمل أيضا ـ علم النفس ، وعلم الأنسان ، وعلم الجمال .

ولما كان عام ١٨٦٦ ـ وكنت عمدت على أن أشتغل بجد في نظرية التسلسل، كنت لا أقصر همي في منطقة واحدة من البحث في تسلسل الأنسان من القردة ـ وانما

كنت أبحث أيضا في نظام هذه السلسلة الهائلة ـ التي تبين علاقة القديم بما قبله من الأجداد المتباعدة في سلسلة ذوات الفقار الدنيا . والحق اني لم أقنع اقناعا تاما ، بما وفقت اليه من بحثي هذا . فكنت مرغما والحالة هذه على التهرب، ومحاولة اغفال أمتع، وأنفع ، ما في هذا الفصل ـ من غير بحث موءد الى نتيجة مقنعة . وأهملت استيضاح الكيفية التي بها تبدأ ذوات الفقار ـ أخذ أصلها من غير ذوات الفقار والوشيجة التي تربط آخر تلك بأول هذه .

بيد أني فوجئت بعد ذلك باستكشاف نافع ، أنارلي طريقي صوب هذا الموضوع ويسر لي الوقوف على ما لم أكن به أعلم . ذلك ، هو استكشافات « كوالفسكي Kowalevsky » الذي كان له الأثر الأكبر في علم تكوين الأجنة وفي نشوئها ، وفي الصلة القائمة بين أحط ذوات الفقار «Amphioxus» بغيرها من غير الفقار « Asidia »

واتسع من بعد ذلك نطاق الاستكشاف ، وتوافرت عوامله ، العام بعد العام ـ فكانت كلها عوامل فعالة ، وأسبابا مفيدة ، يشع نورها على عالم الطبقات الجرثومية حيث تقدم بذلك علم الأجنة على حساب تزايد هذه الفواعل ، وتهالك العلماء ، والباحثون على هذه الأبحاث ـ فتهيأ لي اذ ذاك أن أكمل بحثي ، وأن أبين وجه الشبه بين (الجاسترولا) ذات الطبقتين «Gastrula » في الحيوانات التي تتكون من أنسجة في رسالتي التي كتبتها في الاسفنج . ثم أستطردت من هنا في البحث مستنيرا بقانون التوالد فعرفت كيف يتمشى ناموس التسلسل في الحيوانات ذات الخلايا من (الجاسترولا) ذات الطبقتين . وعلمت أن هذا الأصل العظيم الذي نفرضه فرضا ، والذي تتصل به الأجداد الأول للأنسان، قائم على أساس متين ، زاده متانة على متانته ـ « مونتيسللي ـ Monticelli»

هذه الحيوانات التي تتكون من أنسجة ، من صور ذات خلية واحدة ترى بالمشاهدة ، في حال تقاطع الجرثومة في البويضة الحية وفي نشوء الجرثومة ذات الطبقتين

من أصل جرثومي واحد

ولما شرع العلم ، وأظلته المخترعات ، وأحاطته الاستكشافات بسياج يؤمنه اجتياحات الريب ، وغوائل الشك ـ وكان الأنسان قد نشط نشاطاً عظيماً في العصر الأخير ـ حتى وصل الى المقابلة بين علم التشريح المقابل وعلم الأجنة المقابل ـ لذلك آنست من نفسي نزعة شديدة تبعثني على تعقب البحث في أهم المسائل ـ وهي مسئلة الانسان وتطوره . ولما هممت لذلك جعلت أولا اساس له ، « ناموس التوالد » ـ متتبعا سيرة الانسان الأولى في حياته الجنينية ، مشفعا كل حالة بعلتها ـ في حالة تطور الانسان . فكانت كل هذه الأمور متينة حسنة لا يعرف الشك اليها سبيلا . وكان كتابي « تطور الانسان » الذي حاولت فيه اتمام هذا المجلد الثاني قد ظهر سنة ١٩٠٣ محتويا على ثلاثين فصلا ـ في مجلدين اثنين . أما الأول من هذا المصنف فيبحث في علم الأجنة . وأما الثاني فموضوعه ـ نشوء الأنواع .

ولئن كنت أحس أن في عملي هذا شيئا كثيرا من الوهن ـ ومفاوز عديدة للنقد ـ فاني من ناحية أخرى أعتقد تمام الاعتقاد ـ أنه نافع للعلم كل النفع ـ مفيد للمتعلمين والباحثين . سيما ما كان منه خاصا بشجرة الأنساب ، في عالم الحيوان ـ وخطأ كان ذلك . لأن مدرسة البحث في علم الانسان المتحدة ، سيما المدرسة الالمانية ، آنست من نظرية التطور ـ أنها غير قائمة على دعامة التحقيق ، بل أنها انما قامت على الفرض والحدس ، وأن ما جئنا به في شجرة الأنساب لم يكن من الاقناع بمكان جليل

وكان زعيم الحركة هذه في المانيا لذلك العهد ، الاستاذ الجليل رئيس جماعة البحث في علم الانسان « رودلف فيرخو Rudolf Virchow » كما أبنت ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب . على أن شهرة هذا العلامة ، وشدة معارضته لذلك الرأي — قد أثرا في هذا العمل ، ومنعا تلك النظرية من نيلها حظها من الذيوع والانتشار ، ومهما يكن من هذا الشأن ـ ومهما كان من معارضة المعارضين ، وتحرش المتحرشين ، فاني لم أتوان في تصحيح الخطأ ، وتقويم المعوج من النظرية ـ مستعينا على ذلك باتصالي

بأستاذي الجليل ، وتخلفي على محضره نحو نصف قرن ، وعلاقتي به علاقة الصاحب لصاحبه ، بل الأخ لأخيه .

ولن تجد من بين أشياع « فيرخو » ومريديه ، أو تلاميذه الكثير عديدهم ـ من يقدر هذا الرجل العظيم ، ويعرف له خدماته النافعة للعلم ، مثلي . ليس بين كل هؤلاء من يعترف للرجل عن حق ، وعن اختبار وطول تجربة ـ اعترافي له بخدماته الجليلة التي قام بها لعلم الطب ، وليس أدل على ذلك مما شاع عنه عام ١٨٥٨ ومما استكشفه ونفح به العلوم المرضية في ذلك الحين ـ وحسبك نظريته في الخلية التي اشتهرت شهرة لم تنلها نظرية أخرى من قبل ، والتي خطت بالطب الحديث خطوة واسعة ، والتي تعد في عالم الطب ، فخر هذا العصر وشمس نوره .

لقد خدمني الحظ فوفقني لأن أبدأ دراستي الطبية ـ في « وارزبرج Wurzburg » عام ١٨٥٢ ـ وكان لي الحظ كل الحظ في الحضور على علماء أربعة من أشهر وأجل وأعظم علماء العصر ، في علم الحياة ـ وتتلمذت عليهم ، فكنت أتخلف على دروسهم بكل شغف وانتعاش ، قاطعا في ذلك ستة مقررات ـ وهاك اسماء هؤلاء الاساتذة الأجلاء « البرت كوليكار Albert Koliker » « رودولف فيرخو Rudolf Virchow » « فرانز ليدج وكارل جيجنبر Franz Leydig & Carl Gegenbaur »

أولئك هم الذين علمهم درست ، وعنهم أخذت العلم ، وأولئك هم الذين عولت عليهم في كل ما عولت من رأي في علم الحياة ، وفكرة في علم المقابلة ، وفي المقررات « الميكروسكوبية » وتسنى لي من بعد ذلك أن أدرج في سلم العلم ، وتهيأ لي أن استمريء مادونه العلامة « جوهانس مولر Johannes Muller » من نافع الآراء ، وسامي الفكر .

ولقد انتفعت (بفيرخو) وأخذت عنه الكثير من الحقائق العلمية ، مثل التحليل ، والتشريح ، وكذلك علم الانسان واستجماع مقرراته ـ المرتكزة على قاعدة اتحاد عناصر

الطبيعة ـ واتحاد العقل والجسم، ذلك الاتحاد الذي يقول به(فيرخو)في مقاله العلمي المسمى « العوامل الفعالة للتأليف ـ في علم الطب » عام ١٨٤٩

على حين أن رسائله الشائقة التي نشرها في صحيفة التشريح المرضي ، وعلم وظائف الأعضاء ـ كانت تفيض على العلم الحديث بالممتع من الآراء ، والنافع من الفكر ، حيال أعاجيب الحياة .

والنزاع قائم أبداً ـ منذ عرف التاريخ ـ بين المذاهب ، تتوسمه بين الاحقاقيين والعقليين والماديين ـ بين هؤلاء والمتدينين من الحيويين والباطنيين وانضم الى صفوف الحيويين مع « يعقوب موليسكت Jacob Moleschott» « وكارل فويت Carl Vogt» « ولودويج بخنر Ludwig Buchner» أيضا .

والحق : أني مدين للعلامة«فيرخو» بشيء كثير ، أنا ذاكره له مع الفضل الجم، والاغتباط العظيم ، فلولاه ما استطعت تدعيم نظرية الاتحاد بين الطبقتين العضوية وغير العضوية ويرجع له الفضل في تمكني من (الفلسفة الوترية) حيث كنت أعمل معه كمعيد .

ولم يقف بي علم الرجل عند هذا الحد ، وانما كنت دائما أوالي تعاليمه — فكنت أستضيء بمشكاة علمه على البعد والقرب ، ولقد كانت تعاليمه في الحالات المرضية نبراسا ينير قلبي ، انتفعت بها النفع كله ـ حينما نشطت للتبحر في مناطق العلم فكنت أدرس نظريات الرجل الخالدة مستعينا بها على تقديراتي التي استمدها من مفهوماتها ـ وكان ذلك حتى بعد ثلاثين سنة خلت من عهد أن عكفت على دراسة تكوين الشفاعيات وحلقات الوصل من ذوات الخلية وكذلك نظرية الخلية النفسية التي أدت اليها دراستي من الناحية النفسية في مقررات «فيرخو »

ولقد كان لوجوده في (وارنزبرج) أثر هائل في الجو العلمي، وكان عهده هناك عهد حياة وعمل ، حتى اذا ولى وجهه شطر « برلين Berlin » عام ١٨٥٦ ـ تغيرت الحال ، وتحول هو أيضا عن الطريق التي ارتسمها وسار عليها من قبل ـ فعالج الاشتغال

بالشؤون العامة ، السياسية والاجتماعية والمدنية وراض نفسه على العمل للمصلحة العامة . ولقد استفاد جو برلين من نهضته هذه ، وانتفع الالمان باشتغال الرجل ـ بهذه الأمور، وما أنا بمسهب في ذلك الموقف الآن ، ليعلم القاريء مكانة الرجل السياسية ومبلغ تضحيته المصلحة الخاصة في سبيل انجاح المصلحة العامة ، وليعلم أيضا أثر الرجل في الجو السياسي حيث كان رئيسا لحزب التقدم . لان تقدير مثل هذه الأمور، يختلف باختلاف الانسان الذي يريد أن يقدرها ، فيختلف باختلاف الناظر اليها : ومالنا نعرض الآن عن امتحان موقفه أزاء التطور ـ سيما ما يختص بنظرية التسلسل عن القردة . وهو الذي كان ينزع اليها دائما أبدا في أول أمره ـ ثم انتقل من هذه الخطوة الى حال الشك ـ ومنها انتقل الى معارضة هذا الراي بكل ما استطاع .

ولما كان عام ١٨٥٩ ـ وجاء داروين يعيد لنظرية لامارك سيرتها الأولى ـ كان المتوقع حدوثه عند الناس أن « فيرخو » ، سيقف حيال ذلك ، موقف المدافع عن النظرية ، الذي لا يسكت عن ضيم ، ولا يصبر على ضغينة .

أما هو فقد ناقش نظرية الوراثة ـ بعد علم غزير وزمن طويل ، ودرس كثير، فبين بالتحقيق قوة التكافؤ ـ حيث كان يدرس علم الأمراض وتغيراتها ، ولقد عني عناية خاصة في كل تلك الأبحاث ـ بدرس علم الأجنة وبحثه بحثا وافيا ، فلما أن نال منه قسطا موفورا ـ توصل من ذلك الى درس مسئلة أصل الانسان .

وكان المعروف عند الخلق اذ ذاك ، والمشهور عنه في ذلك العهد ، أنه ماجاء الا ليحارب كل معتقد ودين ، على أنه كان ينكر التجاوز عن حد التجربة الى أبعد ما يصل اليه العقل ـ كان ينكر ذلك في الحالين ـ في حال المعتقد الاكليروسي وفي حالة نسبية اللاهوتية للبشر .

وبعد سنة ١٨٦٢ صرح « بامكان النقلة من نوع الى نوع قال وانما ذلك كان ضرورة علمية »

وفي سنة ١٨٦٣ قمت لأول مرة بمناقشة مذهب داروين في مجمع «سنتين» العلمي.

فكانت ثلة قليل عددها من العلماء تجند هذا العمل وترى من ورائه نفعا ، ومن درسه فائده أذكر من بين هؤلاء العالمين الفاضلين ـ « فيرخو » « واسكندر برون » « alexander Braun »

وفي سنة ١٨٦٥ بعثت اليه بمحاضرتين كنت قد القيتهما في « يينا Jena » على أصل الانسان وشجرة نسبه ـ تقبلها بكل امتنان ـ وجعلها ضمن « مجموعة محاضراته العلمية العامة » ولما كنت كثير البحث مع الأستاذ ، وكانت تقع بيننا محادثات طويلة ، ومباحثات كثيرة ، كنت أتبين منها حقيقة مذهبه ـ لذلك عرفت أنه كان على وفاق تام في أصل النظرية ـ على أنه كان شديد الحذر ، كثير التريث في كل ذلك . والحال أنه يصرح بذلك حينا بعد حين ، نذكر من ذلك محاضرته التي القاها في مجمع اتحاد العمال ـ في « برلين Berlin » عام ١٨٦٩ ـ وكان موضوعها ـ جمجمة الأنسان وجمجمة القرد وليس من ينكر على الرجل تغير حاله حيال مذهب «داروين» من بعد عام ١٨٧٧ . وفي ١٨ سبتمبر ـ القيت محاضرة في «مونخ» ـ كان موضوعها «التطور الحديث ، وعلاقته بالعلوم جميعها » . القيت هاته المحاضرة بعد الحاح شديد من المنيخيين أصحابي ـ ولقد كانت هذه المحاضرة أساسا بنيت عليه من بعد ذلك رأيي في « أحجية العالم ، وعجائب الحياة » والقاريء يمكن له أن يقدر ماهية الشجاعة الأدبية التي تتوافر في انسان يحاضر في عاصمة « بافاريا Bavaria » جهرة ـ ويناقش مسائل لها مساس بالدين ، ويبحث في أمور تتناول العقيدة ـ هذا البلد الذي يفخر دائما بأنه من الكثلكة في أكبر مظاهرها

تسائلني أيها القاريء الكريم ـ ما كان أثر هذه المحاضرة في نفوس السامعين ، وعند أهل هذا البلد ـ فأقول : انهم كانوا من ذلك على مذهبين اثنين ـ ففريق كان قانعا مطمئنا مسلما بكل ماقلته ، وفريق آخر كان يظهر امتعاضا وأنفة ، رغبة عن ذلك القول ـ وتقززا منه ، تبينت ذلك في المجمع الذي القيت فيه المحاضرة ، وفي الصحف أيضا . ولقد فارقت البلد في اليوم التالي ـ موليا وجهي شطر ايطاليا ـ انفاذا

لتصميم كنت قد ارتسمته من قبل . على أن «فيرخو» لم يبط «مونخ» الا بعد يومين من تاريخ القاء محاضرتي ـ فنزلها في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر ـ اجابة لطلبات الشعب هناك من ذوي الوجاهة وأصحاب النفوذ .

هناك في ذلك البلد ـ وفي هذا التاريخ القى الأستاذ محاضرته المعروفة في « حرية العلم ـ في حالته الحاضرة » وكان مغزى محاضرته ينحصر في « أن هذه الحرية يجب أن نقف عند حد ، وأن نظرية التحول لا تزال ظنية صرفة ، غير قائمة على دعامة التدليل ، وليس يجب أن تدرس في المدارس ، لأنها بذلك تكون خطرا يتهدد الحكومة. يقول: ولا يسوغ لنا أن نعلم الناس أن الأنسان من أصل قردي ، أو من أي أصل حيواني أيضا .

وأنت ترى «فيرخو» الشاب يذهب هذا المذهب جهرة في عام ١٨٤٩ . الذي يدل على أنه لاينكر أن هناك الها خالقا للأنسان ، ولكل حالاته ، ثم هو بعد ثمان وعشرين سنة من هذا التاريخ ـ يصبح مانوي « ثانوي العقيدة » سياسيا مشهورا ، ثم هو لا يأنف من أن ينكر كل ذلك ، ويحاول التخلص من كل أمثال هذه المعتقدات .

وانك لتراه يعلم من قبل أن كل مافي الأنسان يتوقف على مادة الحياة فيه ، ثم لا تلبث أن تجده يقول نقيض ذلك ، ويذهب الى أن النفس ـ انهي الاجماع لغير مادي . وما كان السبب في هذا التغاير ، والعلة لذلك التباين ، الا أثرا من آثار الكنيسة التي كان ينتمي اليها الرجل ، والتي كانت قد ملكت عليه كل عواطفه ، وحالت بينه وبين عقله .

أما الصوره الحقة « لفيرخو » التي يريد الانسان أن يستخلصها من محاضرته في « مونخ » ـ فقد ظهرت جلية واضحة ـ فيما كتبته الصحف على أختلاف نزعاتها ـ من اكليريكته ، وحرة ، وسياسية .

ولما أطلع « داروين » على ترجمة المحاضرة باللغة الانكليزية ، وأراد أن ينصف الرجل في الحكم عليه ـ تناول يراعته وكتب يقول :« ان خلق « فيرخو » لمعيبة

والي لاتعشم أنه سيحسن ذلك ان عاجلا أم آجلا »

وفي عام ١٨٧٨ — عمدت للرد على الرجل ضمن ما كتبته في «حرية العلم وحرية التعليم» في ذلك الكتاب الذي ضمنته أهم ما كتب في الموضوع

ومنذ ذلك العهد ـ عهد وجوده في « مونخ » حتى عهد احتضاره أي بعد ذلك بنحو خمس وعشرين سنة ـ كان الرجل معارضا ـ كل المعارضة لمذهب التطور . وكان يجهر بذلك عادة في كل محاضراته السنوية التي كان يقوم بالقائها في مجالس العموم

ولقد كان الرأي عنده « أنه لا يمكن البتة تسلسل الانسان من أصل قردي أو أي أصل حيواني أيضا . »

أما حيال هذا السؤال : « اذن متى خلق الانسان؟ » . فانه عاجز عن الأجابة لامحالة ، يحاول التهرب من هذا المأزق تارة ، ويلجأ الى تمحل الاجابة بمثل ما كان عليه القدماء من غباء مستحكم ، واستسلام مبين ، تلك الاجابة التي كانت شائعة معروفة قبل ظهور « داروين » . وهي تنحصر في هذا القول « أنا لاندري كيف هبطت الحياة الى هذا العالم ، ولانعلم كيف نشأت هذه الأنواع المختلفة » ثم ظهر الأستاذ « رابل Rabl » يحدثنا بحديث عجيب ، يدل على شيء كثير من دخائله وأطواره المتباينة ـ فيقول : ان الرجل في آخر عهده كان يؤمن بمذهب التحول تمام الايمان ـ وكان اذا خلابه منفردين ، صارحه بذلك ، في سياق ما كان يدور بينهما من الأحاديث الخاصة . والذي يؤسف له ـ أن الضعف في شجاعة الرجل الأدبية كان مستحكما ، فكان يسر هذا الرأي للأستاذ « ربل Rabl » وما كان يجرأ على الجهر به علانية للجمهور ـ بل هو كان على نقيض هذا الرأي مع الكافة من الناس . فكان المعروف لدى الخلق ، سيما عند المعارضين لهذا المذهب ، والاكليريكيين ، الذين يستحبون « لفيرخو » مناقضة مذهب التحول ـ كان الشائع عند هؤلاء وعند العامة من الخلق ، أن « فيرخو » من أعداء مذهب التحول

وأنت تقرأ ذلك مفصلا في الكتاب المسمى (فيرخو كمعارض) لمؤلفه (روبرت

درك) ـ عام ١٩٠٢ . . . وتتبين التناقض ظاهرا بينا والاضطراب شاملا وعاما ، حيث تقرأ محاضرته التي القاها عام ١٨٩٤ في مجمع علم تاريخ الأنسان وأطواره (بفيينا Vienna) ـ ويظهر لك مبلغ ما وصل اليه الرجل من التدليل العلمي ـ الذي يقع من عالم بعلم الأمراض ، ومشهور كهذا هنالك حيث يقول في هذا الموضوع ـ ان الأنسان المتسلسل من القرد ، لم لا يكون متسلسلا من غنم أو فيلة ؟ يتبين المطلع من هذا حرج مركز الرجل ، وضيق نطاقه العلمي ، وأضطراب نظامه الحيواني ، كذلك أيضاً في مقارنته بين الحيوان والنبات .

والحق أن كتاب الرجل هذا ، يعد حجة لدى المجمع الألماني ـ لعلم تاريخ تحول الانسان ـ الذي ظل ردحا طويلا من الزمن يناهض مذهب داروين .

ولئن كان من بين هؤلاء المعارضين من ذاع صوته في ميدان العلم) أمثال ـ (كارل فوت Carl Vogt) ـ و (سشافهوزن Schaa fhausen) . فان الحق نور لاتطفئه الشهرة ، ولا تذهب به الصيحات .

ولقد عاش مصنف (فيرخو) في جو الطباعة ببرلين ، وكان له الشهرة الحقة ، والحظ الأوفر بين غيره من المصنفات ـ وعند أهل المذاهب السياسية الالمانية ـ الاحرار منهم والمحافظين ـ عشرين سنة كاملة .

وكان كل حزب بما لديهم فرحين ـ وكان أهل Kreutzzeitung وأصحاب Evangelische Kirchen Zeitung ـ مغتبطين فاخرين بما كان من ـ انتماء أحد أكابر العلماء النابهين ، الى ما كانوا عليه من مذهب المحافظة حيال مذهب التحول .

وكانت مفخرتهم في ذلك العصر ـ أن زعيمهم هذا ـ قد انتصر على العلم ، وأن العلم بكل سلطانه لم يستطع أن يقاوم آراء الرجل ، ولا هو قام يناهض ماجاء به من واضح النظريات . موجهين ذلك الى نظرية القرد ، قاصدين النيل من زعيمها وحاميها ـ « ارنست هيكل Ernest Heakel » .

وما كانت الطمأنينة تبدو على المواطنين من أهل زيتنج « Zeitung » بل وما كانوا يستأنسون بقادة الرأي الأحرار ، الذين أطلقوا أنفسهم من اسر التقاليد الباطلة ، والذين هم الى البحث العملي ، والى تحقيق نظرية القرد — راغبون . حتى محرر صحيفة « Volks Zeitnug » فولكس«زيتنج» (ببرنشتين Bernstein) ذلك الرجل الذي كان يبذل كل قواه في نشر الآراء العلمية المحدثة ، وبثها في الناس — حتى ذلك الرجل — رفض بتاتا أن يسلم بما يكتب في مسئلة القرد ، ورفض « فيرخو » أياها

وليس يتاح للانسان أن يلم بكل ماجاء في هذا الصدد من ألوف الآراء — ومن أقوال الكتاب ، ومحاضرات العلماء ، في العصر الأخير — أو في ثلاثة القرون الأخيرة ، ان معظم ما نقرأه في هذا الباب — من أقاويل منمقة — وتفاصيل معنعنة جلها مدون بانفعال ديني ، وتحت تأثير عاطفة دينية جبارة ، من غير تفكير في البحث الرشيد ، ولا المام بالموضوع مع التحقيق ، وما الى ذلك من الدرس العميق — الذي يتطلب الاحاطة بعلم الحياة .

والعجيب في هذا الباب — أن أشهر الأساتيذ ممن غامروا هذه الأبحاث ، وضربوا في تلك المسائل الصعبة بسهم — قد عمدوا الى تحقيق نظريتهم — بما هو واقع من الشبه الظاهر بين الانسان والقرد هم يذهبون هذا المذهب — ولم يحفلوا كثيرا بأصلهم ، ولا هم أعنتوا عقولهم في دراسة تلك الشجرة المتفرعة الغصون — التي نمت اليها نحن وأجدادنا من قبل — بصلة . فكان مثلهم في ذلك — مثل من ينظر في الفرع من الشجرة من غير ان يتعرف جذعها ، أو يقف على أصلها . على حين أن البحث هذا ميسور لكل من يكد فكره لدراسة أصلنا الحيواني ، متغلغلا بين ثنيات هذا التاريخ العجيب ، ليعلم منتحاه وليقف منه على سر الموضوع

أجل . نقول انه ميسور للباحث اذا هو عني بالبحث في مبدأ تكوين ذوات الفقار — ثم تطرق من ذلك الى حيث يقف على تاريخ تطور ذوات الفقار أيضا .

ونحن لم نقف على معارضة معارض ، أو نقد ناقد ، لتلك النظرية الخالدة — نظرية (ذوات الفقار) . وقد وليتها سنون كثيرة . والمعلوم عند العلماء أن واضع هذه النظرية — هو العلامة الجليل « لامارك Lamarck » — وأنه وضعها في أوائل القرن التاسع عشر عام ١٨٠١ . ومعلوم أيضا أن رصيفه الباريسي « كوفيه Cuvier » جاء من بعد ذلك فعقب على رأي «لامارك» في الموضوع — وعرف ذوات الفقار بأنها أحد الأقسام الأربعة التي دعم بها نظرية (لامارك) حيث بحث المملكة الحيوانية بحثا دقيقا .

والبين المحقق بالحس والمشاهدة — أن ذوات الفقار من أدنى الأسماك ، والحيوانات التي تعيش في الماء والهواء ، الى القردة حتى الأنسان — كلها تتفق في هيئاتها التكوينية ، وفي خصائصها الظاهرة ، وفي صلتها بالكيان الآلي ، وتختلف تمام الاختلاف في كل ذلك ، عن غيرها من الحيوانات ولقد كان « لجوتا Goethe » حظ السبق في البحث في هذه النظرية — فنظر فيها قبل أن ينظر فيها (كوفيه) بنحو ١٤٠ سنة — حيث كان يتعمق في درس الموضوع درسا صحيحا من ناحية علم التشريح المقابل — هناك في « يينا » وفي « ويمر weimer » . فأقر التآلف الآلي ، عن طريق الورقة — وهي العضو الأصلي العام — ولقد وفق الى ذلك في حال توفره على دراسة الحال التطورية في النبات . ولما أن تم له ذلك — استطرد منه الى حيث البحث في تطور ذوات الفقار وانتقالها في أدوارها المختلفة من حال الى حال ، بيد أنه هنا وجه كل عنايته لدرس الجمجمة فآنس فيها من قاعدة التطور ، ما آنسه في عالم النبات .

ولما جاء (كوفيه) — وجعل علم التشريح المقابل — علما مستقلا خاصا ، أصبح هذا النوع من أنواع علم الحياة ، ذا قيمة عظيمة — ونشأ نشأة جديدة ، فتخصص وانقطع لدراسته الكثير من اعلام العلم ، وأقطاب النبوغ — أمثال : «جوهانس مولر Johannes Muller» «وكارل جيجنبور carl Gegenbaur » «وريشارد أوين Richard Owen » « وتوماس هكسلي Thomas Huxley » وغير هؤلاء

ممن يلجأ اليهم كل دارويني — معتصما بآرائهم للدفاع عن نفسه في حال مهاجمه ، مكابر ، أو مهاتر ، أو متعنت .

ولئن كانت ثمت فوارق نشهدها في تركيب المخلوقات ، ان ظاهرة في حالاتها الظاهرة ، أم غير ظاهرة — في دخائل كيانها ، لئن كان ذلك في بعض المخلوقات — كالأسماك ، والمخلوقات التي تعيش في الماء والهواء ، والزحافات ، والطيور ، وذوات الثدي ، فان هذه الحالات ترجع عادة الى وسائل استعمالها اعضائها ، والى ما يحوط تلك المخلوقات من الفواعل والمؤثرات ، وعمل الوراثة ، وما كان لكل منها — من الميزات والخصائص .

وعلم التشريح المقابل — مشكاة منيرة ، يستضيء بها كل من تابع التحقيق في هذه الموضوعات ، ولمن أراد أن يؤمن بهذه النظرية ، ويطمئن عقله اليها — لهذا الذي يرغب في الاقناع بالحس الظاهر — أن يستعرض جماع هيا كل عظمية . هنالك في هذه الحال يقف قانعا مطمئنا الى القول بتوافق تكوين الأجسام في ذوات الفقار .

ان نظرية المقابلة في علم الأجنة ، من حيث التطور ، ليست من المسائل السائغة لعقل كل مخلوق ، ولا هي من الأمور التي يستمرئها كل فهم ، أو يصل اليها كل ساع ، على أنها من الاهمية بمكان عظيم وما كان يتهيأ للانسان أن يهتدي اليها الا في العهد الأخير ، وكان الفضل في استيضاحها واستبانتها ، لقانون علم الحياة ، ذلك لأنه كان يسعد المفكرين والعلماء المجتهدين على تحقيق آمالهم والتوفيق بين العلم الحديث وما يسعون اليه من نشدان . ولم يمتع تاريخ العلم بذلك الا منذ أربعين سنة

انه ليحدثنا : أن كل ذي فقار من أي شكل كان أو أي نوع من الأنواع — انما ينشأ من خلية واحدة ، بيد أنه يأخذ في تدرج حياته — طريقا خاصا ، وتقع عليه من أجل ذلك خصائص خاصة ، فيوسم بمياسم معينة ، وتكون له أشكال مغايرة ومهما يكن من أمرها فانها . كلها لا توجد في غير ذوات الفقار أبدا .

ثم هو يحدثنا أيضا — أنا نرى فيها على الأخص (Chorda Larva) جذين

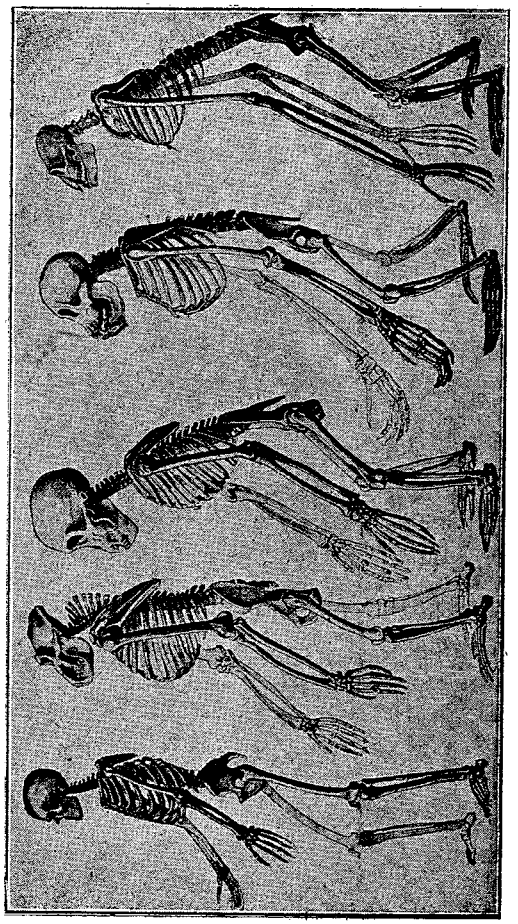

الجيبون — الاورانغ أوتانغ — الشمبانزي — الغورللا

أمثلة من الهياكل العظمية الراقية من القردة والانسان

الحشرة الوترية في الدور الأول من انقلابها ـ وهي على شكل دودي بسيط الخلقة ـ من غير أطراف ولا رأس ولا حتى أعضاء راقية بالمعنى الصحيح الذي يقع على هذا الاسم . وانما يتكون جسم هذه ـ من ستة أعضاء أولية غاية في البساطة . . ومن هذه يتكون مختلف المئآت من العظام والعضلات . وغير ذلك من الأعضاء التي سنفرد لبحثها بابا خاصا فيما بعد ـ حينما نتكلم على طبيعة ذوات الفقار

والحياة الجنينية في نشوئها وفي تكوينها ، وفي كل حالة من حالاتها ـ متشابهة تمام الشبه ، في الانسان والقرد ، وفي الحيوانات المائية الهوائية والأسماك . ومانشهده في هذه من شؤون المشابهة ، وحالات المضارعة ـ عن طريق قانون الحياة ، وناموس التكوين ـ ظاهرة هامة في أنسال ذوات الفقار ناشئة في هيئة أولية بسيطة — تلك هي « chordoea » الوترية .

والحق : ان المغامرة في هذا المسلك الصعب ، والتحقيق في البرهنة والتدليل على ناحية الالحام والاقناع ، وأشباه ذلك من الشؤون الهامة الجليلة ـ في علم الأجنة المقارن ، لا سبيل اليها الا بالاكباب على الدرس طوال السنين ، والتوفر على العمل ردحا من العمر ليس بقليل ، للوقوف على تأثير التطور في الأحياء ، ومعرفة تفاعيله في الموجودات

وعلماء علم الأجنة في هذا العصر كثيرون « نخص من هؤلاء التابعين للمدرسة التجريبية » الذين لم يصيبوا نجاحا في ذلك . وانما طريق الرشد في ذلك وسبيل الهداية ـ المؤدية الى غاية ماينشده كل عالم أو باحث ، والذي يسارع الى تدليل مابعده من تريب أو مباهتة ـ ذلك هو علم النباتات وعلم الحيوانات المنقرضة (الحفريات) .

هنا لك ترى البقايا المتحجرة ، وتشهد من صور النباتات والحيوانات المنقرضة ، ترى في كل ذلك ما يسعدك على تفهم تاريخ الموجودات ، وسبيل تتابع ظهورها واختفائها ، في كل الأنواع .

وأما علم طبقات الأرض ـ فقد أبان لنا عن القانون التاريخي للصخور السديمية ، التي تكونت على مر الأيام والأعوام ، من الطين في المحيط

أما عصر تكوين الحياة ، واكتمال هيئتها على الأرض ، فانما يرجع الى عديد الملايين من الأعوام . وأما تقدير هذه الملايين فاختلف فيه — وذهبت طائفة من العلماء أنها تقدر بأقل من مائة مليون سنة ، وقالت جماعة بأنها تقدر ببضع ملايين من السنين فاذا اتخذنا أقل ما يمكن من هذه البضع السنين ـ وهو العدد ٢٠٠ مليون سنة ـ لوجدنا أن هذا العدد ينقسم الى الخمسة العصور التي وليت الأرض في حال نشوئها وتكامل بنائها وأن العهد الأول من هذا التاريخ كان أطول العهود الخمسة ، فبذلت فيه الأرض نصف حياتها في طور تكوينها ، أي نصف مائتي المليون ، ذلك ـ لأن الظاهر في الصخور السديمية لهذه الطبقة ، أنها مركبة من أحجار صفيحية بللورية ، وأن حالتها التكوينية قد عبثت بالبقايا المتحجرة ـ فوقفت بيننا وبين هذه المتحجرات حجابا صفيقا . أما عهد الطبقة الحاوية للحيوانات المتحجرة ، فانا نجد المتحجرات الأولى من ذوات الفقار نجد متحجرات سمك السلور في مبدأ خلقه ، وكذا الجانويدي . ويتبع هذا النوع من الأسماك « الديبنستي Dipneust » « شكل ينتقل من نوع السمك الى نوع الحيوانات المائية الهوائية » وفي النظام « الكاربونيفيري carboniferous System » نجد أربع طبقات من طبقات ذوات الفقار « الحيوانات المائية الهوائية amphibians » ثم تجد من بعد ذلك بقليل في « الصخور البريمية Permian Rocks » الزحافات شبيهة الأورال (الضب) « السحلاية » (Lizard-Like) تعوزنا من بعد ذلك أنواع الطيور الحارة الدم ، أي القادرة على العيش في مختلف المناخ ـ ثم ذوات الثدي . وأول ما تجد من ذوات الثدي في « الطبقة الترياسيكية Triassic » ـ الصخور السديمية « للعصر الميزوزي ـ Mesozoic age » ـ تلك الطبقة المسماة تنوع ـ (مونوتريمي Monotreme) . ثم يعقب ذلك الحيوانات الكيسية (Marsupial) تلك اجداد (Paleceutals) ذوات المشيمة.

أما ذوات الثدي من النوع الراقي ، فتظهر في العصر الثاني أو الثالث والحيوانات الثديية انما تتزايد وتتناوع بمرور هذه الأجيال الى عصرنا الحاضر ، حيث تمر بالطبقة

الأولى (Eocene) ثم طبقة أخرى تابعة لها (Oligocene) ثم الطبقة المتوسطة في الأرض (Miocene) ثم الطبقة العليا (Pliocene)

وتبتدي هذه الطبقات من أحطها من الأجداد الأقدمين ـ ذوات المشيمة ـ منقسمة الى أقسام أربعة ـ

(١) أكالة اللحوم	(1) carnassia
(٢) ذات القواصم القارضة	(2) rodents
(٣) ذات الحافر	(3) ungulates
(٤) الطبقة الأولى من المملكة الحيوانية	(4) primates

والطبقة الأولى من المملكة هذه تحوط كل ما بقي من ذلك . وكان يذهب (Linné) لينيه في ترتيب أنواع الحيوانات ـ الى أن الانسان وأرقى القردة وكذا القردة الامريكية (Lemurs) كلها كان يعدها من درجة واحدة .

أما ترتيب العدد الكثير من أنواع ذوات الفقار ، وتعرف أنظمتها ، وتسلسها بعضها من بعض ، فانما يرجع ذلك الى تاريخ نشوئها وتطورها ، ودرجات كل منها من الرقي في صفوف الكمال التكويني ، وتدرج أشكالها الجسمانية ، كما يحدثنا التاريخ بذلك. آية ذلك ما نقرأه في علم التشريح المقارن ، وعلم الأجنة .

ان في ما أنقرض من الحيوانات والنباتات ، وفيما وجد من الحفريات ـ لدليلا لا ينكر على تسلسل الانسان من سلسلة طويلة ، تجمع بين طرفيها المنحط والراقي من ذوات الفقار .

وليس ثم دليل على ذلك الا التطور ، وتاريخ تسلسل كل هذه الصفوف ـ التي تم لها من أشكالها ، ومن هيئاتها الجسمانية ، نظام تدريجي محكم .

هذا ما نقوله مزكين بذلك رأينا ، وليس لأولئك الذين هم من حزب المعارضة في نظرية التطور ، أن يباهتونا . أو يحاجونا بما يزعزع هذا المعتقد ، أو يصدع هذه النظرية ، ان هم في ذلك الا صامتين ، فالأسماك ، والحيوانات المائية الهوائية ،

والزحافات ، والحيوانات الكيسية والمشيمية ، والقردة بتنوعاتها المختلفة ، من أحطها خلقة الى أرقاها في النوع (القريب الشبه للأنسان) ، كل ذلك كان منظما في سلسلة متسقة محكمة ـ يقف على قمتها الانسان

ما كان لأحد من العالمين ـ أن يغامر بنفسه في هذا البحث ويسارع مصدرا هذا الحكم ، لولا ماأظهرنا عليه التاريخ من الحيوانات والنباتات المنقرضة (الحفريات) — ولولا أنه وقف يحدثنا أن في هذا لعبرة لمن اعتبر ، ودليلا لمن في الاستدلال رغب ، وان ذوات الثدي من ذلك لم تظهر الا متأخرة بالنسبة الى تلك الطبقات ، فذوات الفقار انما تظهر في العصر الثالث من القسم الثاني « وهو القسم الأقصر » في تاريخ تكوين الأرض . ومالها في العصر الميزوزي (Mesozoic) الا ممثلات من أشكال حقيرة صغيرة ـ حال شيوع الزحافات على الأرض وتسلطها . التي يقدرها بعض علماء طبقات الأرض بنحو — ٨ — ١١ مليون سنة ويقدرها غيرهم بعشرين مليونا أو أكثر في تلك الفترة فترة سيادة الزحافات في الأرض وانتشارها عليها ، تتزايد تنوعات هذا النوع ، وتكثر فيه الأشكال العجيبة المتباينة ، نرى من بين هذه التنوعات . الزحافات العوامة (Halisauria) والزحافات الطيارة (Pterosawria) . والزحافات الأرضية الكبيرة الأجسام (dinosauria) وكانت في العصر الثالث متأخرة الظهور — فنشأ عن ذلك أن طبقة ذوات الثدي ، استفحلت وعظمت ، فحفظت لأنفسها السيادة والغلبة على هذه التي كانت محدثة الظهور في تاريخ الحياة .

ولقد نشطت ثلة من علماء الحيوان في عشرات السنين الأخيرة . لدرس تاريخ الانساب في الحيوانات ذوات الثدي وسلسلة اتصالها بعضها ببعض ، فانتهوا من أبحاثهم وتحقيقاتهم الى الأصل الذي يربط كل هذه الأنواع المختلفة . ذلك أنهم قالوا: بأن كل ذوات الثدي ، من أحط طبقاتها الى الانسان ، تمتاز بخصائص فعّالة (ميزات تأثيرية) تميزها عما عداها من كل الحيوانات الأخرى ذوات الفقار . من

هذه الخصائص : الشعر ، وغدد الجلد . وأغتذاء الرضيع بلبن أمه . وتركيب الفك الأسفل بشكل خاص . واتصال عظام الأذن بهذا الفك . وخصائص أخرى في تكوين الرأس . واستدارة الركبة . وكثرة الكريات الدموية الحمراء . وكذا الحائل الذي يكون بين غطاء الحجاب الحاجز ويفصله عن التجويف الصدري. تلك ميزات تقع على ذوات الثدي دون غيرها من ذوات الفقار .

بيد أن توحيد طبقة ذوات الثدي . قد أصبح أمرا مجربا لا يعرف الشك اليه سبيلا . لأنه قام على دعامة التحقيق . وأساس التجربة .

ماذا يقولون الآن حيال (مسئلة القرد) بعد تقرير هذه الحقائق الثابتة المعترف بها ـ الجلية الوضوح ؟ أنها لتتنزل عن كثير مما كان يعلق بها من الاهتمام . وكل ما يبحث فيه الآن نحو طبيعة الانسانية أو ماضي تاريخ هذا الانسان . أو مستقبله. أو حياتنا الجسمانية . كل هذه شوئن لاتزال مطمئنة . على أية شاكلة : سواء أكان أصل الأنسان واتصاله بغيره من عالم الحيوان — مأخوذا من أرقى القردة أم هو يمت بحبل نسب الى غير هذا من الأنواع الأخرى ـ مجهولة لنا الآن من ذوات الثدي. وأنها لمسئلة هامة في البحث . سبب ذلك أن بعض علماء الحيوان من اليسوعيين أو بعض اليسوعيين من علماء الحيوان (كذا في الأصل) قد تمحل للموضوع يريد الخلط والعرقلة .رغبة في التضليل. فجاءنا بالكثير من النقد الحادث على هذه النظرية .

وأنت تقرأ في مصنف طريف ممتع . وضعه العلامة الكبير (كرامر Hans Kraemer) طبع من بضع سنين . معنون بعنوان (العالم والانسان) فتهجهم في هذا المصنف الرائع على طريقة مليحة للأستاذ « كلاتش من هيدلبرج » Klaatsch of Heidelberg » يبحث فيه الأستاذ عن « أصل النوع الانساني ونسبته الأولى ويسفر فيه النقاب عن تاريخ الانسان . وتطوره في الرقي .

والحق : انه ليشنع بنظرية تسلسل الانسان من القرد . يقول : « انها الفكرة غير معقولة . وخطرة بليدة » وهو يحتد في تعنيفه هذا . محتجا بأنه لا يوجد بين القردة

الأحياء. مايصح أن يكون أبا للانسان . على أن ذلك لم يقل به عالم مجرب قط . وما كان لعالم أن ينطق بهذا السخف الشائن والتره المقيت . فاذا نحن عالجنا النظر بعين النصفة في هذا الموضوع ـ وجدنا أن شأن (كلاتش) في ذلك . أشبه الاشياء بشأننا في نظرية القرد « Pithecoid » التي قلنا بها عام ١٨٦٦ . ذلك لأنه يقول صراحة ـ « ان القردة الراقيـة من « الغوريلا . والشيمبانزي . والأورانج . كلها ترجع الى أصل واحد عام . ذلك الأصل الذي يقرب من أصل الانسان» من أصل الحيوان (Gibbon) ولقد اطلقت اسم Archiprimas (ارشيبريموس) على أصل الصفوف الأولى العالية ـ الذي هو عندهم شكل قياسي (ظني) للشكل الأول . ولقد عاش هذا النوع في الشطر الأول من العصر الثلاثي . والغالب أنه ماشيء عن ذوات الثدي .

والرأى عندى . أن ماحدا « بكلاتسش » ان يحسب الأصول الأولى تختلف تمام الاختلاف عن غيرها من ذوات الثدي . أو يدافع عنه (غير قابل التأييد) . وهو ذلك الذي حدا (بألسبرج)« Alsberg Wilser» وما قام عنده من الفروض التي أراد بها أن ينكر علينا مذهبنا هذا في التناسل .

ان هذه الأمور ونظائرها . ماوقعت في خواطر هؤلاء المخلوقات. ولاهي جالت في صدورهم متحرجة اياها . ولا هم أعنتوا أفكارهم . وبذلوا الكثير من مواهبهم في البرهنة عليها ـ الارغبة في الحصول على مكانة خاصة للانسان من بين المخلوقات . وقصدا لحفرهوة سحيقة بينه وبين غيره من ذوات الثدي . ثم من بعد ذلك كله . حباً في العبث بأصل الانسان الحقيقي .

واذا كان لا بد لكل فكرة تخلق في الانسان من أصل . يبعث به على خلقها. وكان لابد لها من غاية ترمي اليها — كان منشأ هذه الفكرة حب الخيلاء عند البشر. وتغنيهم بالابهة وتهالكهم على هماهم العظمة . وانما يدين بهـذا المذهب ـ مذهب الرفعة والتعالي . أولئك السادة الاشراف (الارستقراطيون) من كل شعب. وبين

كل جيل من الناس . وثلة من أولئك الذين نالوا من الحياة حظا موفورا باجتهادهم. ناس كهؤلاء ـ يطأطئون الاعناق خضوعا للكنيسة . متأثرين أبدا بنفوذها صاحب الأثر الفعال عليهم ـ لأنها تذهب في نسبة خلقهم الى أنهم خلقوا «على مثال مقدس » ـ تلك هي الصورة المقدسة هي المثال المقدس الذى جبل الانسان عليه. أما الأمراء فانهم اختصوا بأكثر من غيرهم من الكافة . فخلقوا على مثال من (التقديس والبركة) أيضا . ! ! !

وليس لعالم علم الحيوان . او لباحث في الانساب ـ يعبر عامة دهره باحثا منقبا عن صلات النسب بين هذا وذاك. وآصرة الترابط بين مخلوق ومخلوق ـ على الناحية العلمية . حيال هذا الأأن يرجع الى (تقويم جوتا Almanach de Gotha)

هنا لك في هذا التقويم ـ تقع على الحقيقة الناصعة الخالية من كل شائبة ـ محصتها عقول جبارة . ودعمتها بدعامات العلم الحديث ـ الذي يعترف صراحة . بأن مسئلة تسلسل الانسان من القرد . أصبحت من المقررات التي لا ريب فيها ـ والاقبال على ذلك غاية في البساطة والوضوح . وهي هنا في هذا الباب أظهر وأبسط مما هي في غيره من ذوات الثدي . آية ذلك أن أصـل ـ الفيلة والارماديل Armadilles جنية البحر (الفتان) (Sireua) والحيتان ـ أصعب تمثيلا عن أصل الانسان.

لما هم (هكسلي Huxley) بطبع مقاله النافع في (مكانة الانسان من الطبيعة) عام ١٨٦٣ ـ جاء بصورة واضحة . تبين ـ أربعة التنوعات من القردة القريبة الشبه بالانسان مثل: الأورانج (Orang) والجبن (Gidbon) من قردة اسيا والشمبانزي (Champanzee) والغولا (Gorilla) من قردة افريقيا

وانما تختلف الصورة الثانية . من هذا الكتاب عن هذا ، اذ أنها تمثل مثالين من صغار الأورانج والشمبانزي. واقفين منتصبين .للمقارنة بين هذين وبين ثلاثة الصور الهيكلية الأخرى .

والناظر الى هذه الصور الخمس ، يحكم على أنها كلها غير متشابهة تماما — اذا هو

وجه نظره الى ناحية الاجمال والتعميم، وانما التحقيق يعترف أنها كلها متشابهة كل الشبه ـ في التكوين، ونظام الجسم، وفي اتصال كل أجزائه بعضها ببعض.

والحق: ان وشيجة الاتصال بين الانسان، وتنوعات القردة الراقية عديمة الذنب الأربعة، لمستحكم جد الاستحكام، وحسبك دليلا على متانة هذه الصلة — أن تكون عدد العظام المكونة لهيكل الانسان مائتي عظمة، وأن يكون نفس هذا العدد من العظام، هو المكون لهيا كل القردة الأربعة هذه، ناهيك بما هو غير ذلك — من كون الشعر الذي يغطي جسم الانسان هو بعينه ذلك الذى يوجد في جسم تلك، وكذا الغدد الثديية التي ينتعش بها المولود في أبان رضاعته.

وكذلك أيضا ـ حركة القلب ومكانته في الجسم كمعين للحركة الدموية، وعدد الأسنان (٣٢). والأعضاء النافعة في لأنواع. والشعبة الليفية المتصلة بالمخ، المكونة له ـ المهيئة لما نسميه نفسا، ولايزال فينا من يعتقد أنها جوهر أبدى لاينتابه الفناء أبدا

ولقد استباح «هكسلي» لنفسه، وضع هذه القاعدة المكينة، التي يقرها الحق، ويشهد لها الواقع، وعكف يبحث ويقارن بين قرد وقرد، حتى دعم نظريته على قاعدة التحقيق. يقول: ونحن لا نغلوا في القول بتسلسل الانسان من القرد ـ وانما ما نذهب اليه هو «أنه مهما كان من الفروق بين الانسان والقرد الراقي ـ فان ذلك لا يكون شيئا، قبالة الفروق التي تقع بين هذا القرد الراقي وبين غيره من القردة المنحطة»

فاذا أتيح لنا أن نقارن بين هيكل عظمي وآخر ـ للتدليل على ما نحن بصدد منه في هذه النظرية ـ انتهينا من ذلك الى أن ثم نتوء تدل على أختلاف ظاهر في قدود بعض الاجزاء المكونة للهيكل، بيد أن هذه الاقدار المتباينة، انما تنشأ عن تباين في الاستعداد الأصلي، ومن منا يجحد أو يماري ـ فيما بين الناس من التباين؟ ـ ونحن نعرف أن الذراعين في انسان قد يختلفان عن مثلهما، في أخيه الانسان، طولا أو قصرا. والجبهة اما أن تكون عالية أو منخفضة. وكذا الاختلاف في الشعر ـ فاما أن يكون خفيفا أو كثا كثيفا. الخ.

تلك أدلة لا يوهنها الجدل، ولا يصدعها التحقيق قامت تنير عقول الناس. ثم جاء من بعدها علم (الفيسيولوجية) الاعضاء و(علم الحياة ووظائف الأعضاء بمستكشفاته الحديثة.) يقرر ماسبق لنا الكلام فيه. ويؤيد نظريتنا. والفضل في ذلك للذين استكشفوا هذه المستكشفات من علماء علم «الفيسيولوجية» نخص بالذكر منهم ـ العلامة المجرب «الدكتور هانز فريد نتال من برلين Dr. Hans Freedenthal at Berlin»

ويذهب هذا العلامة ـ الى أن الدم الذي يجري في عروق الانسان يخالف الدم الذي يجري في عروق النوع المنحط من القردة. وغير ذلك من ذوات الثدي. ولكنا لانجد فيه أيضا ذلك الأثر الذي نجده في الراقي من نوع القرد.

فاذا استجمعنا كل ما وقفنا اليه من تلك التجاريب العلمية ـ وما وقفنا عليه من أعمال أهل الحنكة والخبرة ـ اذا نحن استوعبنا كل ذلك وعمدنا الى استظهار نتيجة مرضية في حالات الدم. بلغنا من ذلك الى أن طبيعة ذوات الثدي تتصل فيها أشكالها من جهة الدم. الى حد محدود. ولنضرب لك مثلا فنقول. اذا اختلط دم ـ بدم غيره من حي تربطه الآخر قربى النوع ـ كالكلب والثعلب مثلا. أو كالفار والأرنب ـ فان الكريات الدموية الحية الخليطة من جماع ما أخذ من الاثنين تبقى آمنة مطمئنة هادئة. من غير تنافر ولا تناكر. فاذا عكسنا الآية — بأن حاولنا خلط دم نوعين متباعدين في الصلة. فخلطنا مثلا دم الكلب بدم الفأر — أو الثعلب بالارنب. آنسنا للحال تنازعا دائما وهياجا مستمرا يقع بين النوعين من الكريات الدموية الحية. وانما يقع ذلك بين الاثنين تنازعا للبقاء. وتزاحما على الحياة.

فالسائل المائي من الدم أو المصل. يبيد الكريات الدموية من القواضم و «Vice Versa». وكذلك الحال في دم الصفوف العالية الكثيرة التنوع. ذلك أن دم المنحط من القردة. الذي يرجع أصله الى جزع شجرة الصفوف العالية. يتنافر مع غيره من دم الراقي من القردة أو دم الانسان

تلك حال مقررة أثبتها العلم. وعرفتها المشاهدة. اما اذا اختلط دم الانسان بدم

أرقى أنواع القردة ـ فانك لا تجد من التنافر والتضارب . والتناكر ما كنت تراه فيما اسلفنا من أمثال .

ولقد تاقت نفوس بعض عمد العلم الطبيعي وفحول علم الحياة ووظائف الأعضاء (الفيسيولوجية) ـ واطمأنت الى تحدى البحث . فاستطردوا فيه . وأكثروا من التجاريب . واستزادوا من الاختبارات . فوفقوا الى كثير مما انتفع به العلم ودللوا على اتصال كثير من تنوعات ذوات الثدي بعضها الى بعض مباشرة . وانا ذاكرون من بين هؤلاء الاعلام :

الاستاذ اهلنهلث من جريفسوولد Professor Uhlenhuth at Greifswald

والاستاذ نوتال من لندن Professor Nuttal at London

أما (نوتال) هذا — فقد درس الموضوع درسا عمليا على نحو ٩٠٠ من أنواع الدم المختلفة ، مجربا ذلك ١٦٫٠٠٠ مرة . ولقد تابع تجاريبه تدريجيا — ليقرر هذه النظرية ، وليثبت حالات القربى بين المخلوقات بعضها البعض — منتهيا في ذلك الى أحط تنوعات القردة في العالم الجديد (أمريكا) . وأما (اهلنهلث) فقد تابع عمله الى (الليمير) من نوع القردة « Lemurs » وعلى هذه النتائج القيمة النافعة قامت دعامة نظرية اتصال أرقى نوع القردة بالانسان ، واتصال هذا بذلك تشريحيا . ثم جاءنا من بعد ذلك « علم الفيسيولوجيه » علم وظائف الاعضاء ، فاقر ذلك وأثبت من طريق التحقيق . وسبيل التوكيد « النسب الدموي »

فاذا شئت الافاضة والاسهاب — حدثناك بما كان من شأن المستكشفات المفيدة التى أبان عنها — (أميل سلنكا) « Emil Selenka » العالم بعلم الحيوان . ذلك أنه قد ولى وجهه شطر « جزائر الهند الشرقية East Indies » قصدا لدرس القردة الراقية الآسيوية ، مثل الأورانج « Orang » والجيبون « gibbon »

ولقد وفق في سياحته هذه الى كثير من نافع المستكشفات ، والمفيد من علم الأجنة ، فاستجمعها كلها ، وكان شأنه من بعد ذلك ـ أنه قال : ان في المشيمة ـ في

حال أتخاذها شكلها الظاهر ـ لخصائص ذات اعتبار كبير عند علم الأجنة ـ كانت تعتبر الى عهدنا هذا من ميزات الانسان الخاصة به ، ومن خصائص نوعنا التي يمتاز بها عما سواه من باقي الأنواع ـ بيد أنها قد وجدت أيضا في الراقي من نوع القردة ـ ولو أنها لم توجد في غيره من تنوعات القردة المنحطة .

هنالك ـ على هذه الدعامة ، وعلى غيرها من الحقائق الثابتة ، والمشاهدات البينة ـ قد بنيت حكمي بأن مسئلة تسلسل الانسان من راقي القردة الثلاثية ، مسئلة لاريبة فيها . ولاهي بابعد من قولنا بتسلسل الطيور من الزحافات ـ أو هذه « الزحافات » من المائية الهوائية (المخلوقات التي تعيش في الماء والهواء) . تلك الأمور التي لا ينبي عالم من علماء علم الحيوان ، في الاعتراف والايمان بها ـ وقد أصبحت من الثوابت المقررة ، والحقائق المعززة ـ في هذا العصر .

أما الصلة هذه التي نحن بصدد من وصفها ، وشأنها في شكل القربى ، وحالة النسب ، فانها كما عرفها أحد أترابي في أبان الدراسة ، « روبرت هارتمان Robert Hartman » من فضلاء علم التشريح في برلين « Berlin » ذلك الرفيق القديم ـ الذي كان يحضر معي منذ خمسين سنة على الأستاذ « جوهانس مللر » « Johannes Müller » وأنت تقرأ له في مصنفه في هذا الموضوع الذي وضعه عام ١٨٨٣ ـ شيئا ليس بقليل من ممتع الفكر ، وتراه قد قسم الصفوف العاليه من المخلوقات ـ قسمين ، (١) الراقي « Primarü » « ويشمل الانسان والراقي من نوع القردة » (٢) المنحط « simianoe » « ويشمل كل باقي نوع القردة الشرقية منها » « Catarrhine » والغربية « platyrrhine »

والحق : ان العلم الحديث ، قد ظل في حيرة من حيث تعليل هذه النظرية المبدعة ، وتدعيم أساسها تدعيما صحيحا لا يأتيه الشك من هنا ولا من هناك ـ ظل العلم وهذه حاله ، الى أن جاء الطبيعي الهولاندي (إيجين دوبوا) « Eugen Debois » ووفق الى استكشاف البقايا المتحجرة « للقرد والانسان pithecanthropua erectus »

منذ أحد عشرة سنة في (يافا Java)

هنالك تم للعلم مبتغاه، وتعرف الحلقة المفقودة « واسطة الاتصال بين القرد والانسان » ومن ثم تهيأ له أن يدرج في هذه السبيل، لتحقيق قوله بالظاهر المحس ـ فظهرت من بعد ذلك مؤلفات كثيرة، أدمج فيها مؤلفوها من الآراء مايؤيد هذا المذهب، مستدلين بالحلقة هذه التي أبان عنها الزمن ـ معززين مذهب التسلسل

وبعد أن تتعرف هذه العلاقة ـ لايتعسر علينا أن نتفهم ما كان من أمر عالم التشريح «جوستاف شوالب Gostav Schalbe » من «ستراسبرج Strassburg» اذ قال بوجود جمجمة تلحق بالنوع الانساني، يدل شكلها التكويني على أنها بين بين ـ ذلك أنها بين أرقى القرد «homo primigenus» وبين الانسان «pithecanthropus»

وبعد أن مكن العلم لشوالب مامكن، وجرب هو بنفسه كثيرا من التجاريب، وأختبر ما أمكنه ان يختبر ـ بعد أن تهيأ له كل ذلك حيال مذهب تسلسل الانسان من القرد ـ قام الرجل اذ ذاك يدحض حجج (فيرخو) «Virchow» ويفند مزاعمه، ويزعزع مظناته ـ ويذهب بما تمحل له الرجل من أعتراضاته على ما استكشف من البقايا المتحجرة من هذا النوع وغيره من الأنواع — محاولا تمثيلها بأنها من شواذ صفات الأمراض.

على حين أن (فيرخو) قد آنس حالات مرضية ـ كانت تنتاب تلك الحلقة التي بين القرد والانسان، آنس ذلك في البقايا المتحجرة ـ سيما منها سكان المغاور والكهوف.

من أجل ذلك جاء (فيرخو) يعارض هذه النظرية، بكل ما أوتيه من حول وطول — وانما كان يبتغي من وراء ذلك تصديع المعتقد القائل بأن هذه الحلقة، هي الحلقة التي كان العلم ينشدها من زمان طويل ليبرهن بها على أنها — الصلة بين القرد والانسان.

ونحن لانزال حتى الآن ـ نجد من المعارضين لنظرية تسلسل الانسان من القرد،

تكرار هذه الامثال، بمثل ما كنا نراه من أولئك دعواهم في ذلك أن هناك بين الانسان وغيره من المخلوقات ـ «حلقة مفقودة» لم يكشف لنا الزمان عنها بعد

والرأي عندي: أن علة حكمهم هذا الحكم انما ترجع الى واحد من سببين اثنين فاما أن يكون ذلك ناشئا عن جهلهم بالحقائق التي جاءتنا بها علوم التشريح والأجنة، والأمراض. وأما أن يكون ذلك قد نشأ فيهم، من نقص في تزودهم بهذه العلوم أو من نظرهم اليها بعين حولاء.

والحق: ان سلسلة الكيان العضوي ـ التي تصل أحط القردة الى ماهي أرقى من ذلك من القردة الغربية ـ ثم تصل هذه بالأرقى منها من القردة الشرقية الذيلية ـ ثم تتابع سيرها الى أن تصل هذه بغيرها من تنوع القردة الراقية عديمة الذيل ـ ثم هي تنتقل من هذه الى الجنس البشري وقد أبانها العلم وأقرها الواقع المحس، فلم يبق من بعد ذلك ثمت ريبة ـ أو مضض شك.

على أنا نرى طائفة من العلماء ـ أستباحوا لأنفسهم الشذوذ عن جماعة التحقيق والايمان بما قد جاء به العلم، وشهد له الواقع ـ اذ يقولون بارتياب في تسلسل القردة الموجودة الآن من غيرها، من تلك البائدة ـ أو بفقدان حلقة بين أحط ما نعرفه من نوع القرد ـ وأجداده الفاقدة

هم يستأنسون بذلك الرأي، ويغلون في تقديره وفي اله من الاعتبار حيال نظريتنا ـ ولو أنهم عنوا بدرس العلوم الحديثة عنايتهم بالنقد، لعلموا أن علم التشريح المقابل. وعلم الأجنة، مع علم الأمراض ـ كلها قد ذهبت بهذا الزعم الباطل، وبددت غيومه، فلم يعد من الحق لأي انسان بعد هذا أن يباهت أو يحاج، وقد علمنا باتصال الانساب بين ذوات الثدي بعضها ببعض.

وما أنا بمسهب هنا في الكلام على الأنسان، وفي بيان ما كشف لنا عنه العلم الحديث، فأظهرنا على أصل منشأنا — وليس هذا في موضوعنا من الاعتبار في قليل ولا كثير. وأنما كان حقا علينا أن نبحث في الذي وصلت اليه نظرية داروين؟

وفيما وصفه بها (اشرخ) « Escherich » « التطور الاكليروسي » وفيما تكون قيمة كل هذه ، قبالة تلك النظريات الجليلة .

ولقد عنى الآن (وازمان) عناية خاصة بهذه الأبحاث فوفاها حقها من الدرس ـ وأفرد لها بابا خاصا من أبواب مصنف له ـ بحث فيه عن « الأيمان بخضوع الأنسان لنظرية التطور » . والحق : ان ما كتب في هذا الموضوع لما لم يسبق له نظير من عالم يسوعي !؟ ذلك لأنها كتبت ببراعة المهارة ، ودبجت بقلم القدرة في التمويه على العقول — حيث جاء الرجل بلمام حقائق بينة — حتى اذا استجمعها وصور من جماعها صورة ماثلة أمام عين القاريء ـ سلط على تلك الصورة كهرباء يراعه فعبث بها ، وشوهها فاصبحت من بعد ذلك هباء منثورا . وانما شأنه في ذلك أن يعمد الى تضليل القاريء ليبعده من الاعتقاد بالنظرية ، وليحول بينه وبينها ما أستطاع الى ذلك سبيلا

على أنا اذا قارنا بين الفصل العاشر هذا (الفصل الذي يقول فيه هذا القول) وبين الفصل التاسع : هذا الفصل الذي يعترف في سياق كلامه فيه أن نظرية التحول أمر غير مستقر على قرار مكين — وأن ذلك انما يرجع الى مقدرته الدراسية .

من يقارن بين القولين — أي بين ماجاءنا به الآن في الفصل العاشر ، وبين اعترافه الظاهر في الفصل التاسع ـ يتعسر عليه التصديق بأن يراعة واحدة قد أنضجت هذين القولين ـ ودبجت الفصلين ، لما فيهما من التناقض البين ، والتضارب الظاهر . وأقل ما نستنتجه من ذلك ـ ناموس اليسوعيين المتبع عندهم ـ يتلخص في هذين الأمرين : « الغاية تبرر السبب » « وأن الكذب مباح اذا كان الغرض منه خدمة الله ونصرة الدين »

والظاهر ان السفسطة التي يلجأ اليها عادة ـ (وازمن) ، حيال رفعة شأن الانسان ، وتعزيز مكانته في الطبيعة ، وتدليله على أنه قد خلق بمشيئة الله ـ طفرة . قد ورطته في كثير من الخطأ الفاحش . حيث وقع بين رأيين مختلفين — أما الأول: «فتصور الأنسان في صورة حيوانية نقية » تلك الصورة التي عرضتها علينا العلوم ، وأكلتها

المقارنة في التشريح وفي علم الأجنة ـ بين الأنسان والقرد ـ والتي يقال أنها قد سقطت ولم يعد لها من فائدة ـ اذ أنها لم تهيمن في بحثها على الماهية الحقة للأنسان « حياته العقلية » يقول والصواب أن يتحدى البحث نفسية الأنسان ، وهو خير ما يرجع اليه في طبيعة الانسان وفي أصله » .

فاما أن يكون (وازمان) قد جهل كل الجهل ، ونسي أو تناسى كل ما استجمعه من الحقائق الثابتة في التشريح ، وفي علم الأجنة ـ حيث الكلام على «تطور الانسان» ، أو أن يكون قد تعمد اغفال هذه الشؤون لغاية في نفسه . ذلك كان شأن (وازمان) في تفهم ماجئنا به في هذه النظرية ، وهو بعينه ـ شأن (روبرت ويدرشين) « Rodert Wiedershein » حيث تفهمه تاريخ خلق الانسان . وحيث صارح الناس في مؤلف له أسماه ، « الشكل التكويني لانسان هذا العصر ، والاستدلال بصورته هذه على ما كان عليه انسان تلك العصور الأولى » .

وليس ثمت ريبة ، في أن كاتبا يسوعيا كان من كان ـ يحتاج الى حرية في الفكر ، وسعة في الاطلاع ، والمام تاما بكليات الموضوع وجزئياته ، ليكون على بينة مما يكتب ويعوزه أيضا درس طويل في علم الأجنة ، واكباب متواصل على علوم التشريح والمقابلة .

ولو أن (وازمان) قد أعنت نفسه بدرس هيئته وتكوين ذوات الثدي ، وتاريخ حياتها ـ اعناته نفسه في دراسة النمل مثلا ، لكان قد أيقن أنه كان على شيء من التحقيق ـ أنه لابد أن يكون للنوع الأول أصل واحد يرجع اليه ـ كما هو الحال في النوع الثاني . فاذا كان (وازمان) يؤمن بأن في النمل ٤٫٠٠٠ تنوعا ترجع كلها الى سلسلة نظام واحد ، أو بعباره أوضح ـ ترجع الى أصل واحد . كان من الحق عليه أيضا أن يؤمن بأن مافي تنوعات ذوات الثدي من ٦٫٠٠٠ (منها ٢٫٤٠٠ من الأحياء و ٣٫٦٠٠ من الحفريات) ومعها الأصل الانساني . كان من الحق عليه أن يؤمن ـ بأنه لابد لالتزام نظام واحد تسير عليه هذه كما كانت الحال مع تلك ـ ولابد

من رد كل هذه أيضا الى أصل واحد شأننا مع الأولى .

ان ماتوسمه من المخاتلة والمهاترة والمغالطة ـ وما الى ذلك من أشكال السفسطة، وألوان المخادعة ، وما نتبينه من المخزيات في مذهب « التحول عند أصحاب الاكليروس » ـ ليس كل هذا من النعوت يقع على شخصية الاب (وازمان) خاصة ، وانما تقع تلك الصفات على الهيئة اليسوعية (اليسوعيين الجزويت) التي يمثلها ـ ذلك الرجل .

وليس من شك يختلج ضميري ـ بان انسانا عالما كبيرا بالعلوم الطبيعية ـ ذاع صوته في الأقطار «على جهلي به كل الجهل» كالأب «وازمان». يكون بعد طول الدراسة الطبيعية ، و بعد التفكير والتأمل ـ قد كتب، افاضت به يراعته في التحول ـ عن أعتقاد صحيح ، وايمان راسخ بكل ما يكتب ، بل ويكون قد أرضى ضميره قبل أن ينشر آراءه في الخلق ـ وفي كتاباته ما فيها من تناقض بين ، وتنافر ظاهر ، لا يتفق مع الطبيعة في شيء ، ولا تهضمه العقول التي أستوعبت سنن الطبيعة ، واستمرأت تفاعيلها غير المنكرة ـ بل وكيف يتفق ماذهب اليه (وازمان) في مسئلة الخلق ، وما تفصح عنه سنة الطبيعة ، أو ما عرفه من سننها الخالدة ؟ ؟

ذلك شأن وازمان في ما ارتأى وما تعلم ـ وتلك هيَ الأدلة الاقناعية التي قام بها الرجل يعزز رأيه ، وأنما هي سنة متبعة عند أصحاب مذهب التضحية ـ أولئك الذين يضحون كل شيء في سبيل تأييد مذهب اعتنقوه ، أو مشايعة عقيدة دانوا بها

وأنت واجد هذا ـ في كل الآباء اليسوعيين أمثال : الأباء (كاثرين Cathrein) و (برون Braun) و (بزمر Besmer) و (كرنت Cornet) و (لينسميير Linsmeier) و (موكرمان Muckermann) كل هؤلاء وغيرهم من اليسوعيين ـ يسيرون في علمهم سيرة (فرانسيه R. H. Francè) وينسجون على منواله وقد أسلفت القول فيه وبينت أنه يرجع الى (عدد ٢٢ من Freie Wort في ١٦ فبراير عام ١٩٠٥ ـ طبعه فرانكفورت Frankfort)

وما كان (وازمان) ليشذ عن جماعته ـ ويخرج عن هيئته ، وانما هي حالة جماعتهم في ذلك ـ وحالة الجهاد الكنسي المعروف المتبع عندهم :

بيد أني حدثت يوم ١٧ فبراير « وهو عيد ميلادي» ـ بنبأ غريب حملته الي السنة صدق من فينا ـ « Vienna » وهاك هو :

قالوا : ان أبا يسوعيا شهيرا اسمه الأب Father جيز « Giese » قد صارح الجمهور في خطاب ديني عظيم ـ بايمانه بنظرية التحول ـ وليس يقف ايمانه هذا على « نظرية التحول » عامة بل هو يتناول أيضا تطور الانسان ـ يقول: وليس هذا بضار المعتقد الكاثوليكي ـ فالعقيدة الدينية تتسامح في تقبل ذلك !! أليس هذا بعجيب ؟!

ناهيك بما دونه اليراع اليسوعي في ـ الموسوعات الكاثوليكية «المكتبة العلمية لبنزيجار Benzigcrs» وما جاء في ثلاثة المجلدات الأولى من هذه الموسوعات ـ تلك المجلدات التي « طبعت عام ١٩٠٤ في (اينسيدلن وكولون Einsiedeln & cologne) . مفعمة بالمسائل التحولية . هنا لك تقرأ في المجلد الاول ـ البحث في تكوين الأرض . وفي الثاني ـ التوالد الذاتي ـ وفي الثالث نظرية تسلسل الانواع بعضها من بعض . وكلها مدبجة بيراعة «الاب م جاندر M. Gander» وكلها تتفق مع مذهبنا في التطور من نواح كثيرة ـ ثم يعترف فيها صراحة ـ أن هذه الآراء لاتنافي الادلة العقلية أو النقلية . في شيء ، وان التعاليم الدينية لا تعافها ـ

على أنا لا نذهب الى أن العصمة موفورة على هؤلاء في أقوالهم ، وفي كل ناحية من نواحي تقريراتهم هاته ـ وقد لاتخلو بياناتهم من هفوة يساق اليها الكاتب عفواً ، أو حسنة أتاها ، أو سيئة توخاها ، فاذا تحديت سبيل المنطق وأقيسته ، واذا رددت كلامهم الى جهات أقضيته ـ القيت منه الكثير يسارع الى باب المغالطة، ويتشبث بالتزيد من السفسطة .

من أجل ذلك حق علينا أن نقول : بأن (جاندر) مهما حاول حشو ترهاته بين تضاعيف بياناته ـ يضلل بها الجماعة ، ويموه بها على العقول . فانه لن يبلغ أبداً حظه من

ذلك في جو العقلاء ، وعند أصحاب التفكير .

أما من طالع كتاب « جاندر Gander » هذا ـ فانه يقف منه على أقوال غير مرتكزة على أساس صحيح ـ ولا هي من الرجاحة في شيء ـ تلك هي نظريته في « التوالد الذاتي » غير المعقولة مطلقا ـ هنالك حيث يقول ـ « بأن مادة المخلوقات الحية طاهرة مطهرة النشوء » « ولعله كتب ذلك ببراعة القدرة ، ووحي الطهر » .. فاذا درج من ذلك الى الكلام في تسلسل الانسان من غيره من الحيوانات » وهو ما يقره » حاول أثبات القول بأن النفس على أية حالة ـ لابد أن تكون قد ظهرت في هذا العالم بخلق خالق قدير .

وليس من الحكمة في قلة ولا كثرة ، أن ننازل هؤلاء ـ ونسايرهم في اظهار القارئين ، على مفتريا تهم ـ وسخف آرائهم ، لاستجماع كل هذه ـ وتفنيدها واحدة واحدة ، بما جاء به العلم وبما أقره العقل ـ لأ يقافهم عند حد ـ ولتصديع أركان معتقداتهم ، وثلم ما يعتزون به من المذاهب .

وان تعجب من ذلك ـ فعجب تمسكهم بجزء من جزئيات العلم ، يحابون به غيره من الأجزاء ـ ابتغاء مرضاة الدين ، وسعيا وراء محاربة العلم ، وايثارا لتضليل العقول ، وليس أخطر على العلم من ذلك تمويها .

ان في خنوع هؤلاء للأيمان من غير تحقيق ولا اعمال فكر واعتزازهم بماهيتهم الادراكية ، وتشبثهم بفكرة « الغاية تبرر الواسطة » . وائتمامهم « بليجوري Ligusri » و « جرى Gury » وتبجحهم بانتساب أصلهم الى أصول التقديس ، وموائل التكريم ، كل هذه وغيرها ، كانت من المؤثرات التي صبغت بالوانها المعتقد اليسوعي ـ فجاءنا هذا المعتقد ، ظاهرة واضحة في شخص (كارل هونسبروخ Carl Hoensbroech)

وانما يتهدد الخطر العلم من طريق اليسوعيين ، ومن ناحية ذلك الروح اليسوعي ـ الذي يتدخل في العلم باسم الاصلاح ، وانما الضر كل الضر ، من تسرب هذا الروح

في جو العلم ـ وتأثر العلم بالدين . آية ذلك ما نقرأه من مصنفات (فرنسية France) و (اشرخ Escherich) وأضرابها ـ في هذا الموضوع .

وأنت تلقى هذا الروح جليا ظاهرا في هذا العصر في المانيا ـ هنالك حيث ترى الحكومة وقد تواطأت مع المجلس النيابي « الريشستاغ » « Reichstag » لتمهيد السبيل ، وتسهيل الطريق ، واعداد عقول الناشئين ، لتقبل تعاليم اليسوعيين ، ولنصرة هذا المذهب ، وصبغ معتقدات الخلق بلون المذهب اليسوعي الشديد الصبغة .

والمدرسة الالمانية متأثرة بهذا الروح المحارب للعلم المعادي للاصلاح ـ لامحالة ـ والناس هنالك على تقزز نفوسهم من ذلك ، واعتياف أذواقهم استيعاب تعاليمه ، متأثرون بهذا التيار القوي ـ ان قليلا أو كثيرا .

ونحن على أعتقاد تام بأن هذا الأثر الاكليريكي ، مهما بلغت شدته ـ وزادت قوته ـ في مناوأة العلم الحديث ـ لامحالة زائل ، ذلك أنه لا يلبث ألا فترة قليلة في هذا العهد ـ عهد العلم الصحيح ، ورعرعته المنعشة النفوس .

واذا لم يكن العلم قد خطا بالفوز على المذهب اليسوعي ـ في شيء الآن الا ـ انتصاره عليه في ارغامه على تقبل نظرية التحول ـ لكفى بذلك فخرا له في هذا العصر الآن وقد أمن اليسوعيون بنظرية التحول ـ فالمستقبل كفيل بتمهيد عقولهم لتقبل غيرها من صحيح النظريات ـ كتوالد الأنسان من غيره من الحيوانات . هنالك يعلمون أنهم كانوا من أمرهم في تيه مضل . وهنالك يعلمون ـ ان الولاية للحق ، وأن الباطل مهما أستمد له من قوة لا يعيش الا ردحا قليلا من الزمن ، ثم يصرعه الحق ويدفنه

الفصل الثالث

نقد المذهب الروحاني

الايمان بالأبدية ـ والاعتقاد بوجود « آخر »

ما كان لي أن أستطرد في الحديث ، وأتابع القول ، في موضوعي هذا ـ بعد أن قمت بالقاء المحاضرتين الثنتين اللتين قبلت القاءهما ـ كما أسلفنا في مقدمة هذا الكتاب . بيد أن أسبابا كثيرة أرغمتني على تزكية هاتين المحاضرتين بثالثة ـ وهاك بعض هذه الأسباب ، أو أهمها :

(١) لقد كنت مضطرا لضيق وقت التحاضر ـ أن أغفل بعض النقط الهامة اغفالا ـ أو أجملها اجمالا ، بما لا يغني عن شرحها شرحا وافيا ، أو التوسع في بيان مفصلاتها ـ فتيلا . أذكر من هذه المسائل ـ مسئلة ، طبيعة النفس مثلا .

(٢) كنت أطالع ما نضحته يراعات الكتاب ـ من التعليق والتعقيب ، ومن نقد ما استوجب النقد في محاضرتي ، فآنس فيما يأخذونني به من الخطأ محقين بعض الشيء ، وأقنع بانه كان في بعض أجزاء الكلام شيء من الغموض ، وفي كثير من نقط الموضوع ـ شيء من الاستغلاق والابهام ـ منشأ ذلك ـ ايجاز في البيان ، أو تصحف في نقل العبارة ، أو سوء تفهم مراميها .

(٣) لأنه كان من الحق علي أن أعقب على هاتين المحاضرتين ببيان ملحق ، أختتم فيه الموضوع ـ فأظهر الملأ على ما استغلق فهمه ، أو تعسر عليهم ادراكه ـ ثم ألمع من بعد ذلك ألماعا بما كان لتاريخ نظرية التحول من الأثر ـ في ماضيها ، وحاضرها ، وما سيكون لها من ذلك في مستقبل الأيام وتفصيل ما أستحق تفصيله ـ سيما في ذلك ما كان منه متعلقا باحدى المسائل العظيمة الثلاث ـ خلود النفس ـ وحرية الأرادة ـ وذاتية الله .

أما الآن وقد قاربت الدخول في هذه المسائل الخطيرة ـ فاني أستميح القراء عذرا ، اذا أنا توسلت اليهم أن يعيروني أذنا صاغية ، ونفسا واعية ـ وان يدخروا شيئا كثيرا من الصبر ـ كيما يتسنى لهم من بعد ذلك أستيعاب هذه المسائل صعبة الادراك ، واستمراء ما حوته من عميق المعاني ـ وجليل الفكر ـ وليس في ذلك من ابتئاس عليهم ـ ماداموا يستحبون طريق البحث . ويتابعون سبيل الحق ليصلوا الى ما يبتغونه من الحقيقة ـ التي لا تنال جزافا ، ولا يؤنس بها الا بعد كدح كثير ، وصبر متواصل .

لئن كنت قد أكثرت من الردود ـ وزدت من البراهين العقلية . والأدلة المستنبطة من الأستقراء ، ومن علم الحياة ، لئن كنت قد فصلت ذلك تفصيلا في محدث مصنفاتي ـ « لغز العالم » «وأعاجيب الحياة» ، فاني لامحالة متابع البحث من الناحية العلمية على جهة التعميم ، ومن طريق علم الحياة على ناحية التخصيص . لأظهركم على ما كان للعلم الحديث من التأثير الشديد ، والقوة القاهرة ، وما جاءنا به من قوة أقناع . وحكمة تدليل : على أن العلم وهذه حاله من الوضوح ، والأثر البين . كان يقف أمام خزعبلات البشر . وأضاليل الحياة . يفندها واحدة بعد واحدة ـ ليدل الناس على خطأ معتقدهم . وخطل مؤتنقهم . وضلال تصوراتهم . لتنقشع عن أعينهم سحائب العمى . فتستنير قلوبهم بنور الهدى

حيال ذلك يوقنون بالمشاهدة والاستقراء . ويتحققون بالمعاينة والتجربة العلمية ـ أن نظام العالم أو «قانون الكون العام» قد أفصح لنا عن كنه مستغلق صعب المسائل ـ مثل . . . الله . . . والعالم . . . والنفس . . . والحياة .

* * *

انتهى بنا القول في الفصلين الأولين من هذا الكتاب ـ الى تقرير ما وصلت اليه نظرية التحول . وبيان أثرها الفعال . وذكر العراك القائم بينها وبين ماقام في صدور الخلق . وما تغلغل في أدمغتهم من أساطير الأولين . وخرافات المتقدمين ـ

في مسئلة « الخلق » فوقفنا من ذلك على مسئلة خلق الأنواع . وعلمنا أنها تابعة لنا موس عام لاتتحلحل عنه يمنة ولا يسرة . ـ وعرفنا أن الانسان لم يخلق طفرة واحدة على صورته الماثل بها الآن . وانما هو تدرج في سلم الحيوانية ذوات الثدي ـ درجة بعد درجة حتى بلغ من الرقي ـ بفضل التحول الى ما هو عليه الآن .

ولقد أبان لنا العلم أيضا عن الحالة العضوية في تنوعات القردة الراقية ودل على أنها تشترك مع الانسان . في تكوينها العضوي . فكانت هذه المقارنة من أقوى البراهين على ان مسئلة تحول الانسان وتسلسله من ذلك النوع ـ قد أصبحت من المسائل المقررة والحقائق الثابتة . التي لايعرف الشك اليها سبيلا .

بيد أن تلك المقارنة بين القرد والانسان . كانت فيما اسلفنا من هذا الكتاب مقصورة على الحالات العضوية البحتة. ولم تتناول البحث في ماهية الانسان العقلية الا الماما ولاهي تمحلت للنفس البشرية وحولها هذا الجسم المادي على ما يقال :

والآن نعيد الكرة في الكلام على تحول النفس البشرية ، وحالاتها ، لنعلم اذا كانت الماهية الادراكية في الانسان تسير على ناموس يتسق مع ذلك الناموس العضوي

نقول : لقد كان شأننا في السالف من كلامنا ـ أن نجيء بلمع قليلة في الكلام على الماهية الادراكية ، في الانسان ، وفي تحول العقل ، وفي بقاء النفس ـ وفي ما الى ذلك من الأمور التي أجملنا فيها القول اجمالا ، وكان لابد من توفيتها حقها من البحث والتحقيق .

من أجل ذلك كان لابد لنا من اعادة الكرة ـ رجوعا الى هذه الموضوعات ، لنتبسط في ما أحاولي لنا من الحديث ، وما أعوزته الاطالة والاسهاب ، فجئنا نتوسع في الكلام على نشوء النفس ، مستطردين في البحث — فيما لو كانت حياة الماهية العقلية تخضع لذلك الناموس الذي يخضع له جسم الانسان ؟ وفيما لو كانت بينه وبين باقي ذوات الثدي آصرة قربى ؟ !

أما رأي الجماعة في هذا العصر — حيال مانحن فيه من البحث ، فقسمان . الأول ـ

أولئك الذين يؤمنون بما وراء المادة ، والذين هم حيال علم النفس في الماهية الجوهرية ـ لا يرضون منه بديلا . أولئك هم الذين لايزالون — يدينون بذلك الاعتقاد البالي ـ القائل بان النفس البشرية ، ذات جوهر خاص مستقل ، يسا كن الجسم حينا من الدهر ، ثم يفارقه ، الى الحياة الباقية — وهو ما يسمونه ـ بقاء الروح بعد الموت

وأنت تجد هذا الاعتقاد — « الاعتقاد بالتثنية » عند أصحاب الأديان — وغالب أهل الملك — وتجد هذا أيضا حتى في بعض الفلاسفة منهم أفلاطون « Plato » من المتقدمين — وقد أمن ببقاء الروح بعد الموت — واعترف بذلك في مذهبه الفلسفي . ومنهم ديكارت « Descartes » من المتأخرين — وقد حذا حذو أفلاطون في ذلك وأحكم بقاء النفس البشرية (الروح) وأنكرها على باقي الحيوانات .

ولقد خضعت عقول البشر لهذا المذهب ، واطأنت قلوبهم الى الايمان به ردحا طويلا من الزمن ، فكانت له السلطة المطلقة على معتقدات الخلق — والهيمنة الكلية على ملكاتهم وموتنقاتهم . ولم تجتح بشديد معارضته ، وعنيف مقاومته ألا في القرن الثامن عشر حيث نهض العقل البشري من رقاده الطويل ، وحيث بدأ العلم يشع بنوره — فتمحو آيته ظلم الجهالة ، ثم جاء القرن التاسع عشر ـ وترعرع العلم : واتسع نطاق التفكير — وتهيأ للناس ان أستوعبوا مقارنات العلوم — الى أن بلغوا من هذه الى علم النفس المقارن ـ وكلها كانت حربا عوانا على تالد المعتقدات — وقديم المذاهب .

ولقد انتهى الأنسان من هذه الأبحاث ـ وافضى به بحث علم النفس المقارن ـ في أرقى الحيوانات وفي أحطها مرتبة ـ انتهى بهم هذا البحث الى حيث الايمان ـ بان هناك في تلك الحلقات كانت اثارات تدل على التحول من حال الى حال ـ والتدرج ـ خطوة بعد خطوة والى أن بين أرقى الحيوانات وبين الانسان صلة ثابتة تربط هذا الى ذلك ، حيال الحالات النفسية . وأن هذه الصلة التي تربط بين أرقى الحيوان

والانسان في النفس ـ تقابلها مثلها ـ فتربط أرقى الحيوان بأحط أنواعه

فاذا استمرأت عقولنا ذلك ـ واذا اطمأنت قلوبنا اليه ـ « وما أخال ذلك الامقنعا» ذهب بما يعتقده (ديكارت) ـ من أن هناك فاصلا ضئيلا بين الأنواع يميز بعضها عن بعض .

وأعظم هذه الشؤون ـ وأكثرها شيوعا ـ ماظهر منذ ثلاثين سنة ـ من الايمان بحياة النفس على طريقة محدثة تجمع بين الحالتين ـ الحالة العضوية والحالة النفسية « psychophysics » .

على أن الفيسيولوجيين « العالمين بعلم التكوين والحياة » المعروفين ـ تيودور فشنرو ارنست هينرتش ويبر من لبزج « Theodor Fechener and earnest Heinrich Waber of Leipsic » قد عملا بعلقليهما في هذا الموضوع فاثبتا ـ أن جزءا عظيما من القوة المدركة ـ أنما تخضع للتقدير الحسابي، والقياس الرياضي ، خضوع الحالات العضوية « الفيسيولوجية » في ذلك .

ونحن ننتهي من ذلك الى أن شطرا من حياة النفس يجري عليه النظام الآلي ـ ويخضع هو للناموس الذي يهمن على عالم العضويات .

والحق ان علم النفس والطبيعة المشترك « psychophysics » كان له الفضل في الدلالة على ما كان يتوقع الانسان ، من الوقوف على الناموس العام للعالم المرئي .

ولئن كان لهذا العلم فضل من هذه الجهة ـ فان المسئلة لا تزال على ما كانت عليه ، من حيث الاعتراف بان جزءا من الحياة العقلية خاضع للناموس الطبيعي كغيره من الظاهرات العضوية ـ من غير ريبة ولا شك .

على هذا ـ نقول بأن علم النفس « الفيسيولوجي physiological psychology » قد ارتقى بتضام العلمين « علم النفس وعلم الطبيعة psychophysics » الى مستوى العلم الطبيعي ، أو بعبارة أوضح ـ العلم الحق .

على أن العلم ـ أقام بعض صروحه على أساس علم الحياة الجاف . والصحيح أن علم

النفس المقارن قد اقتاد الناس الى حيث التصديق والايمان بأن هناك نظاما يسير على ناموس تدريجي ـ فاذا اتبعه المتأمل من الناس مثلا سار به الى ماهو أقل منه مرتبة في الحيوانية ـ ثم من هذه الى ماهو أحط منها تدريجيا وكذلك دواليك . . . حتى أحط الأحياء .

هنالك في الأسفل من مراتب الأحياء ـ تنتهي الى مخلوقات ضئيلة لا تراها بالعين المجردة ، قد استكسفت في غمرة المياه بعد أن استكشف الانسان الآلات المكبرة « Microscope » في أواخر القرن السابع عشر وقد أطلق على هذه الحيوانات الضئيلة اسم النخعية « infusoria » . وأول من وصفها وصفا حقا ، وعرفها تعريفا علميا صحيحا ـ العالم « الميكروسكوبي » البرليني الأشهر (جتويد اهرنبرج)

على أنه قد عنى عناية خاصة بدراسة هذا الموضوع ـ فوضع فيه مصنفا قيما حلاه باربع وستين صفحة مصورة بين فيها كل أشكال مملكة الحياة الميكروسكوبية ـ ونشره عام ١٨٣٨

ولقد كان الرجل على شيء كثير من قوة التفكير ـ وبعد الملاحظة، والرغبة في العمل لذلك نجح نجاحا عظيما في كل أدوار عمله ـ ولذلك استطاع أن يلقن دروسه هذه لتلاميذه .

ولا تزال تذكارات الماضي تساورني ، ومواقف العلم تخامرني، ولا تزال الذاكرة ـ تستعيد صور تلك المواقف وقد مرت بها الايام ، وعدتها الاعوام ولا أزال أذكر صيف عام ١٨٥٤ ـ وقد مضى عليه الآن خمسين سنة ـ أيام أن كان يستصحبنا أنا وأترابي ـ الأستاذ (اهرنبرج) الى حديقة الحيوانات ـ في برلين ، « أذكر من بين هؤلاء ـ صديقي « الجغرافي » الأشهر (فرديناند فون ريشتوفن) « Ferdenand von Richthofn » ـ وكنا نحمل معنا المناظير والشباك ، ثم نقف حيال برك تلك الحديقة نتصيد الألوف المؤلفة من تلك المخلوقات « الميكروسكوبية »

غير الظاهرة للعين المجردة ـ والتي كنا نعش كثيرا اذ كنا نسلط عليها مجاهر مناظرنا فنلقاها تتحرك حركة الحياة

ولقد كان يحدثنا الأستاذ (اهرنبرج) بحديث غريب حيث كان يفضي لنا بشرح هذه الدروس شرحا عمليا ، وحيث كان يفسر لنا ما يستعصى علينا فهمه من الحيوانات النخعية .

ولما جاء يقارن بين النخعية هذه وغيرها مما هو أرقى منها درجة في المرتبة الحيوانية كان يعقب على ذلك بقوله ان كل الحيوانات في تدرجها ، وفي تطورها ـ انما شأنها في ذلك ـ شأن مانحن بصدد منه الآن .

وقد أشبع هذا البحث ، وأسهب فيه أيما اسهاب ، في كتاب جعل عنوانه « The infusoria as perfect Pranganism » النخعية كاملة التكوين العضوي

"A glance at the deaper life of the organic Nature„

نظرة تعمق في حياة الطبيعة الآلية .

ولقد ذهب الى أن لهذه المخلوقات المنحطة من الأعضاء ـ أي لأبسط النخعيات ما لغيرها من الحيوانات الأرقى منها مرتبة ، كالقلب والمعدة ، والبويضات والكلى والعضلات ، والأعضاء ـ فقال بأنها تامة الحالات العضوية من كل وجوهها

والحق: ان (أهرنبرج) قد أخطأ الخطأ كله في تعريفه الحياة — فاظهرت نظريته في الحياة أن « قبرت ساعة ظهورها » « عام ١٨٣٨ » وجاءت آية « نظرية الخلية» التي كانت قد بلغت أشدها اذ ذاك — واجتاحتها اجتياحا ، ولم يقو هو على مناهضتها — أو مباهتة القائلين بها .

أما (متياس شليدن) فقد اشتغل بالعلم النباتي، وأظهر الملأ على كيفية الحالات التكوينية في مملكة النباتات أجمع — ثم درج من ذلك الى تبيين تكوين الأعضاء من الخلايا « الميكروسكوبية » أول مرتبة من مراتب العضويات الحية .

لبثت هذه النظرية ـ الى أن جاء (تيودور شوان) فحذا حذو سابقه واستطرد في

البحث وأثبت أن هذه الحالة ، تتفق تمام الوفاق مع حالة جسم الحيوان . ولقد كان لهذه النظرية كل الحظ في الذيوع والانتشار ، وفي اتخاذها مكانها من الأهمية والاعتبار عند العلماء كافة ، وعند أهل البحث من المفكرين خاصة . آية ذلك ـ ما كان من شأن (كوليكر) وكذا (ليدج) « Leydig » حيث جعلا هذه النظرية أساس كل ماجاءا به من النظريات النافعة في العلم الحديث . وحيث جاء (فيرخو) بابحاثه المرضية «في الخلية» فردها كلها الى ما يغشى الكائنات الحية من الأمراض .

تلك حال النظريات الطبية ـ وتلك هي مكانتها من الاعتبار والنفع ـ بيد أنه لم يكن بعد قد حان الوقت للبحث فيما بين هذه الكائنات الحية الضئيلة وبين «الخلية» من الاتصال ـ وهو موضوع صعب تفهمه كثير الفائدة .

والمعلوم ـ أن (كارل تيودورفون سيبولد) قد أثبت عام (١٨٤٥) أن النخعية الحقيقية وما يقرب منها من الحيوانات real infusoria كلها تتكون من بناء عضوي ذي خلية واحدة ـ ولقد ميز هذه Rhizopods عن باقي الحيوانات الأخرى

وكان في هذا العهد نفسه (كارل ناجيلي Carl Naegeli) يبحث في علم النبات ـ فاهتدى اذ ذاك الى أحط أنواع النباتات ـ وأول المرتبة النباتية ـ فعرف أحط النبات المائي (حمول البحر) Algae بانها النباتات ذات الخلية الواحدة « unicellular plants »

ومهما كان من شأن هذه النظريات ، عند الجماعة ، ومن اهتمام العلماء بها — فانها لم تستقر على قرار مكين ، ولا أطمأنت اليها العقول الا بعد أن جمعت كل ذوات الخلية الواحدة وجعلتها تحت اسم واحد هو الحيوان النبات (الخلزون) عام ١٨٧٣ وعرفت وظائفها النفسية — كخلية النفس .

ولقد أتيح لي أن أدرس ذوات الخلية الواحدة — وأصولها ، ـ دراسة حقة ـ في حال بحثي النوع الميكروسكوبي المسمى Radiolaria صنف من الصنوف العظيمة في العضويات الميكروسكوبية التي تطفو على صفحة مياه البحار .

أنا لاأغلو اذا قلت أني قضيت أكثر من ثلاثين ربيعا ـ من سني حياتي في الالمام بهذا البحث الصعب ـ وفي دراسته ـ دراسة وافية صحيحة، (من عام ١٨٥٦ ـ عام ١٨٨٧) فاذا نجحت لتقرير نظام عام، يشمل ناموسا عاما بهذه الحيوانات ـ واذا نزعت الى محادثتكم في شيء من ذلك ، فانما يقع هذا عن تجربة وطول أستقراء ، وتحدي فحص الكثير من هذه التنوعات العديدة ـ مختلفة الاشكال والحجوم .

ولقد كان أستاذي (جوهانس مولر) يستحب درس Radiolaria كثيرا ويحبذلي ذلك ، ولطالما كنت أراه مائلا الى جانبي يفسر لي ما أستعصى على فهمه ، ويدلني على الكثير من هذه الحيوانات وتنوعاتها ـ التي لم يكن قد استكشف من تنوعاتها عام ولادتي (١٨٥٥) ألاقليلا .

على أن الأستاذ قد عني بوضع مؤلف في هذا الباب ، طبع عقب وفاته عام ١٩٥٨ ـ وضمنه وصف خمسين نوعا من أنواع تلك الحيوانات النباتية .

فلما نزعت نفسي إلى الترحال قاصدا الى البحر الأبيض المتوسط عام ١٨٥٩ ـ لاستكشاف أمثال هذه المخلوقات هنالك في تلك المياه ـ أخذت معي هذا السفر الجليل . ولقد كنت حظيظا جدا ـ اذ أني وفقت الى استكشاف ١٥٠ماية وخمسين تنوعا من هذه المخلوقات . حيال (مسينا) .

بعد ذلك تسنى لي أن أضع أساسا للقانون الذي وضعته في أول مؤلف لي في هذا الموضوع لهذه الكائنات التي هي (بين الحيوانية وبين النباتية) عام ١٨٦٢ وكنت أعتقد اعتقادا لاتغشاه ريبة أن الزمن كفيل بالكشف عن غير هذه المستكشفات ـ وأنه لا يمر على ذلك الحين خمس عشرة سنة حتى تكون قد تهيأت بعثات تفصح عما يضمه اليم بين جنبيه من هذه الكائنات العجيبة .

وفي عام ١٨٨٧ نشرت كتابي الثاني في هذا الباب ـ وتمكنت من تعريف ٤٫٠٠٠ من التنوعات لهذه الكائنات radiolaria وجعلت في الكتاب ١٤٠ صفحة كلها صور لهذه التنوعات ، وفي عشرة صفحات من هذه الصحائف انتقيت أحاسن الصور منها

فافردت لها هذه العشرة الصفحات .

ولا يتاح لي الآن أن أطيل القول ، وأسهب في الحديث بما في هذه الصور المختلفة من الجمال ، وما في تلك المخلوقات من حركة ـ وقد أتيح لصديقي (ولهلم بولستس) Wilhelm Bôlche ان يفرد لهذه الاشياء ، موضوعات خاصة ، في مصنفاته الكثيرة النافعة .

أراني الآن مضطرا الى العودة لما كنا بصدده ، كي نوفي الموضوع حقه من البحث ـ فلنرجع الآن الى تلك الظاهرة ـ التي أسلفنا القول فيها ـ ولنمحص مسئلة العقل فنقول :

ان الهيكل المكون لهذه المخلوقات الضئيلة الذي يحوط هذا الجسم ذا الخلية الواحدة . ليس ينحصر الاعجاب له ـ في جماله ، وأبداعه ، وغرابة شكله ، وانما هو يتعدى ذلك الى ماهو أهم وأعجب ـ يتعدى الى ما في تلك المخلوقات من تناسب هندسي في الشكل ، واتقان في التكوين في هذه المخلوقات ٤٫٠٠٠ من تنوعاتها المختلفة وهي من هذه الناحية تشبه ٤٫٠٠٠ من تنوعات النمل .

ولما كان الأب اليسوعي الداروينيي (وازمان) يعتقد تمام الاعتقاد ـ أن أصل أربعة آلاف التنوعات من النمل ، انما يرجع الى جوهر تكويني أو أصل واحد ـ وأنها انما تناسلت واختلفت فيها الصور ـ بالتغاير من حال الى حال ، وبمرور الزمن ، وكر الايام . كنت لذلك أذهب الى أن أصل أربعة آلاف التنوعات من (الراديلاريا) انما ترجع الى اصل واحد كذلك ـ وانما حصل الاختلاف في الشكل ، ووقع التباين في القدود والحجوم ، انما جاء كل ذلك من عمل الوراثة ، ومن شأن التناسب والألفة .

واعتقد أيضا أن الجبلة الأولى لهذه Actissa خلية مستديرة بسيطة وان المادة الحية المكونة لها ـ تقسم قسمان ـ قسم داخلي ـ يشمل النواة . وقسم خارجي غروى يحوط جسمها الظاهر Calyma

وانما يأتلف القسم الخارجي الظاهر هذا من مئات وألوف من الخيوط التي فيها استعداد الحس . وهذه الخيوط الدقيقة الميكروسكوبية هي اعضاء الحس في تلك المخلوقات وعلى انها تؤدي وظيفة أخرى ، ذلك أنها تقبض على ما يقع لها من الحيوانات النباتية لتقتات عليه .

اما النواة فتقسم الى خليتين ـ تأخذ كل خلية منهما شكلا مستقلا، شيئا من مادة الحياة منفصلة عن الأخرى .

تسائلني ما هي ؟

بل ماهو اكسير الحياة الخفي — الذى تتوسمه حينما تتوسم مستقر « اعاجيب الحياة » ؟

فأجيبك بما أجاب به «هكسلي» منذ ثلاثين سنة . قال: « انها الاساس الطبيعي للحياة العضوية »

فاذا شئت بيانا أظهر من ذلك ، واذا رغبت في التحقق على ناحية العمل قلت لك : انها تركيب كيمائي متكون من « كربون » فحم وانما يتوقف كل عمل الحياة على هذا التركيب ، وانما تتكون أدق أصوله الأولية في التركيب من خلية تشمل مائعا حيويا لزجا وهذا المائع يحوي نواة أيضا .

ونسمى المادة النووية الداخلية Caryoplasm وتسمى الخارجية منها Cyloplasm وتختلف كل منهما عن الأخرى بعض الاختلاف من حيث التركيب الكيمائي ـ على حين أن كليهما متكون من كربون « الفحم » ، واكسوجين ، وهيدروجين ، ونتروجين ، وكبريت ، فكلاهما تابع المخلوقات الزلالية ، أما الكربون النتروجيني فله فيهما ميزة خاصة ـ من حيث ـ مخالفة القياس البنية في ذراتها العديدة وفي نظامها غير المستقر وفي ما يكون تركيبها من الجواهر الفردة (أكثر من ألف) .

وأنت تتابع هذا البحث فتتبين كثيرا من بسائط الأعضاء ، التي تكون النواة والجسم ـ لا يقع عليها الخلف ـ ولا تعرفها المنافرة ، تلك هي المونرا Monera

المادة الحية الأولى التي تتركب منها الذرات الحيوية المتناسبة الشكل « الكروماسيا و«الراجبيات» البيكتورية « Chrom acea & bacteria » والراجبيات المعروفة التي دلنا العلم على أنها سبب الكثير من الأمراض المعدية . والبراثن الفعالة في التعفن والتخمر ووالخ . كلها تدل بداهة على أن الحياة الآلية انهي الا عمل طبيعى كيموي محض لادخل فيه « لقوة حية فعالة » سرية .

على أنا نرى ذلك في غاية من الظهور والوضوح اذا امتحناه في نوع (الراديولاريا) radiolaria هنالك نرى ان حتى القوة الطبيعية حتى هذه انما تعمل على قاعدة كيموية فعملها طبيعية كيموى physico Chémical . وكل ماهنالك من الاختلاف في خلية النفس انما يظهر في المعنى التصوري للسبب الحركة يظهر في حركة مادة الحياة فيها في انتعاشها وفي نمائها وفي توليدها وفي التركيب الكيموي لكل واحدة من أنواعها : الاربعة الآلاف ٤٫٠٠٠ وكلها تتوالد على ناموس التناسب والوراثة ثم يرجع أصلها الى مرجع واحد هو (الراديولاريا)

الآن يمكن لنا أن نبحث بحثا خاصا لنوفق الى حقيقة ممتعة، من الحياة الطبيعية « فراديولاريا » ذات الخلية الفردة ، ثم نتبسط في الحديث على الماهية التمييزية الكائنة في ذلك المخلوق الضئيل .

نقول : ان مابين كل هذه الأربعة الآلاف النوع من صلة تربط بعضها الى بعض في حالاتها التكوينية ومن سلسلة مرتبطة الحلقات ، متدرجة من حالة خلقية الى حالة اخرى ، تامة الظهور في استعداد هذه المخلوقات كائنة من علقات دموية غير ظاهرة، وصورة تلابسها وجماع قوى تماسك بعضها البعض انتقلت من أباء هاته المخلوقات

اما الخيوط الدموية غير المشكلة بشكل خاص فانها تكون قشرة دقيقة على شكل شبكة . تحتفظ بجسمها الخارجي الظاهر بما فيها من مسان وابر منشعة .

عام ١٨٧٠ ظهر «الفيسيولوجي» اوالدهرنج من ليبيزج (Ewald Hering) برأي ارتآه في عمل الذاكرة ووظيفتها فنادي بان الذاكرة ليست شيئا الا من

عمال المادة وان هي الا وظيفة عامة من وظائف المادة الآلية.

ولقد حاولت توضيح « صور العلقات الصغيرة والوراثة » بواسطة «الكريات لدموية الحية والذاكرة » حاولت ذلك عام ١٨٧٥ وفصلت هذا الرأى تفصيلا تاما في كتابي The Perigenesis of the Plastidules

أما الآن: بعد زمن ليس بقليل — ظهر في مونيخ عام ١٩١٤ 1914 of Munich الاستاذ ريشارد سيمون ProfessorRichard Simon

وقد كان من أقدر تلاميذي على العمل والفهم — ظهر هذا الاستاذ، بعد أن درس « الذاكرة » دراسة خاصة من مبدأ تدرجها مستمرة في تغايرها الدائم تابعة للمظاهر العضوية » فانتهى من بحثة الطويل ومثابرته على الفحص الرشيد، والامتحان المطمئن الى العقل — انتهى من ذلك الى تقليل مقدار الأعمال الآلية في الذاكرة، وجعلها من ذلك الى حيث استقرها على قاعدة « فيسيولوجية » مكينة.

وأنت تنتقل من الخلية النفسية ومافيها من ذاكرة، في « الراديولاريا » وفي غيرها من الأنواع المنحطة من الحيوانات ذات الخلية الواحدة — تنتقل من هذه الى مايشابهها في البويضة، وهي مبدأ الحياة، ومنشأها الأول في المخلوقات. بل والتي منها تخلق أشكال الخلايا الكثيرة العدد المختلفة الأشكال — في تكوين الشبكيات — في الحيوانات والنباتات.

ترى ذلك في النبات والحيوان كما تراه في الانسان أيضا — ذلك أن أصل الماهية العضوية في نشوء الانسان — علقة نووية مستديرة الشكل يبلغ قطرها ١٢٥ من القيراط — فاذا القيت عليها نظرة بعين مجردة — رأيتها نقطة صغيرة جدا. وانما تتكون الخلية النسبة (الأولى) Cytula في حال نتاج البيضة، أوفي حال اختلاطها بمني الذكورة.

وانما تنتقل « البيضة » الى الجنين بعمل الوراثة — فيرث الطفل من أبويه — الصفات النفسية كما أنه يرث منهما الحالات العضوية أيضا.

التحول الجنيني في حياته التكوينية لثلاثة مخلوقات من ذوات الثدى

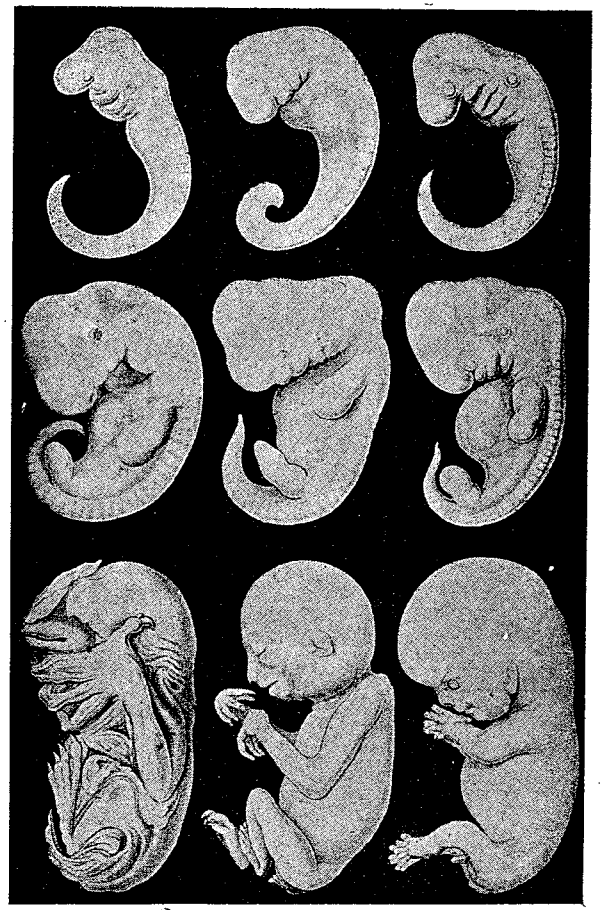

الانسان الجيبون الوطواط

والوراثة الآن قد وجدت من العلم الحديث حظا موفورا — وقد هيمنت على أبحاثها النافعة عقول العلماء في هذا العصر ـ وكثرت فيها المحاضرات ـ وتزايدت آراء علماء علم الحياة . بيد أنها لم تترعرع ولم تك تخلق خلقا كاملا الا على يدي (داروين) عام ١٨٥٩ . هنالك وجه علم الحياة وجهه ـ للظاهر من الاعمال المادية في حالات اللقاح .

ولم يتعرف العلم الحديث عملية اللقاح هذه على صحتها الا في ذلك العهد ، ولا هو أنس بمفصلات وافيه تبين ظاهرة اللقاح وأثرها . ولم تنضج نضجها الحق الآ من بلائين سنة ذلك أنها كانت في الأصل تعرف على ناحية الاجمال والتعميم ـ متجهة نحو الامتحانات والتجاريب التي كانت تقع من المحققين والعلماء الباحثين . تلك التجاريب التي دلت على أن الأجنة في نشوئها ، وفي تحولات «البيضة» والخلية الأولى ـ كلها خاضعة لنواميس مقررة تحكمها كلها ، في كل حالة من حالاتها المختلفة .

والخلية الأولى تتقسم ثم تتقسم وكذلك دواليك ، حتى تصبح عددا كثيرا من الخلايا . من هذا المجموع من الخلايا تنشأ أعضاء بسيطة قليلة ـ فينشأ باديء بدء العضلات الأولى ـ ثم يعقب ذلك نشوء الأعضاء المختلفة .

أما ناموس علم الحياة العام فيحدثنا بحديث ممتع في ذلك الشأن ذلك انه يعلمنا أن كل ما كان من شؤون الأجنة في تاريخها الأول وما كان من ظهور تلك الظاهرات في الأجداد السابقين ـ كلها كانت تأخذ صورها على تلك الوتيرة التي أسلفنا الكلام فيها ـ وانما نستوضح هذه الحقائق ـ الواحدة بعد الأخرى ـ ونتبينها في حالات الذاكرة غير المدركة الكامنة في (البلاسما) الكريات الدموية . «الذاكرة الموجودة «بالقوة» في المادة الحية» في الخلايا الجرثومية ، سيما في نواتها .

وآخر ماوقف عليه العلم في هذه الأبحاث الجليلة ـ ومنتهى ماوصل الاستكشاف والاختراع ـ حقيقة لامراء فيها ـ تلك هي أن النفس مبدأ وجود معروف . وأنا قادرون على تعيين اللحظة التي تأخذ فيها النفس مبدأ وجودها هذا .

يقول : وانما يبتديء هذا العهد بأول اختلاط مادة الوالدين ،أي الخلايا البيضة بالمني ونحن في هذه الحال لا نستطيع أبداً ، أن نقول بأن هذه النفس ـ قد عاودت الظهور في هذه الحياة الدنيا ـ وانما نقول وقولنا الحق ـ انها اتخذت مبدأ ظهورها منذ وقعت عملية اللقاح ـ وتحد عملية اللقاح هذه بتكوين كيموي محض ناشيء عن « البلاسما » ـ وهي مادة الوراثة الكائنة في نواة بيضة الأمومة ـ وفي نواة نطفة الأبوة .

وان تعجب لذلك المبدأ التكويني الغريب ـ فعجب قولهم من بعد ذلك ـ «ان النفس خالدة » .

بل وكيف يمكن لنا القول ـ في كائن حي ـ هذه حال تكوينه ، ومبدأ نشأته ، أنه أبدي ! !

فاذا تمادينا باحثين محققين ـ في الخلية النفسية الكائنة في الخلية الفردة لا من « الانفيوزوريا infusoria » مقارنين ذلك بما كان من الماهية النفسية والعلقة الأولى في خلق الانسان ـ وفي غيره من راقي الحيوان ـ انتهينا من ذلك الى أن المجموع العصبي على صورته الكاملة ، ليس يجب أن يكون مفروض التمثيل تماما ـ على ما كان راسخا عند السالفين .

وأنت لا تجد مثل هذا المجموع العصبي في الحيوانات الدنيا ، أو في النباتات ـ بل تجد من ذلك بديلا ـ ماتراه في بعض مراتب الحيوانات ، من قوي التمييز ، والحساسية ، وسرعة التهيج ، والحركة العكسية . وكل « بلاسما » حية فيهاشيء من ماهية الحياة ، وعلى هذا ـ لا تكون الماهية الادراكية شيئا الا وظيفة جزئية من وظائف الحياة الآلية (العضوية) العامة .

وانما يقع التمييز ، وتحل الفروق محلها ـ اذ ترى الماهية الادراكية، مظهراً من مظاهر الذات الشاعرة ، وتراها تظهر تدريجاً في الحيوان الراقي ـ «على نسب اعتبار تقسيم العمل بين أعضاء الجسم » والوساطة في ذلك ـ المجموع العصبي .

ان في تعرف المجموع العصبي الوسط ، في أنواع ذوات الفقار ـ تلك الأنواع التي نمت اليها بصلة النسب ، والتي نعد أنفسنا تاجها ـ ومنتهى رقيها ـ لآية لأولى الابصار ، هنالك حيث ينطق علم التشريح ، وحيث يفصح لسان علم الأجنة بلهجة لاتعرف المواربة ، وبأسلوب لايغشاه ثم تعصب ، هنالك حيث تجد أن حال ظهور الاعضاء وطريق تكوين الجنين واحدة في كل جماع ذوات الفقار، من أحقر الاسماك الى الانسان تجد أنبوبة أسطوانية قائمة في الناحية الخلفية من الجسم الجنيني في الخط الوسطي . أما القسم الظاهر من هذه «الأنبوبة الوسطية» فتسير في رقيها حتى تبلغ المخ وأما القسم الدقيق من هذه فيكون العمود الشوكي . وانما تقسم هذه ـ عن طريق الشذوذ المعارضة الى ثلاثة ثم أربعة ثم كثيراً ما تعدو الخمسة .

اهم كل هذه ـ أولاها The Cerebrum العضو الذي يقوم بوظيفة التعقل .

وانما تختلف هذه في المخلوقات باختلاف درجاتهم ، وتتباين بتباين رتبهم في الرقي فكلما تدرج المخلوق من ذوات الفقار في سلم الارتقاء كلما آنست فيه مادة « السيربوم » على نسبة توافق نسبة رقي هذا المخلوق .

وأهم مافي « السبريوم » غشاء سنجابي وليس يظهر هذا الافي الأنواع الراقية من ذوات الثدي ويدل على الماهية العقلية .

ولقد أتيح للعلامة (بول فلشسج Paul Flechsig) أن استكشف ثماني مناطق في هذا الحيز العقلي ـ وقال بأن أربعا من هذه الثمان ـ تقوم بحاسة التصور وهي مراكز داخلية ، وأن الأخر انما تقع بين تلك وهي تقوم بوظيفة التفكير (أو هي مراكز الائتلاف) التي تمثل أرقى الماهيات العقلية ـ وتوافق العواطف ، وتكوين الفكر ، والتصورات ، وكذا التصديق والتصور .

ولم تخلق بعد الظاهرة العقلية الراقية هذه في المنحط من الأنواع ذوات الثدي .

وانما هي تظهر شيئا فشيئا ـ كلما درج المخلوق في معارج الرقي ، وكلما ازداد فيه

الذكاء . ذلك أنها تظهر في الراقي من الأنواع ـ « كالحصان والفيل » وفي أكملة اللحوم « كالثعلب والكلب » ثم ترقى درجة بعد درجة فتكون أظهر في أرقى القردة ومنها الى الانسان المتوحش ثم الى المتمدين

ولقد كشف لنا العلم عن الكثير من معميات المخ ، وأبانت لنا « الفيسيولوجية » عن حقائق ممتعة في هذا الباب ، فدرسنا الشيء الوافر من أجزاء المخ ووظائفه ، بفضل العلم الحديث والمستكشفات المحدثة .

فالتجاريب الكثيرة التي قام بها العلماء ـ جولت Golt ومنك Munck وبرنار Bernard وغير هؤلاء من « الفيسيولوجيين » قد أسعدتنا على تفهم الذات المدركة في الانسان ، والذات التصورية ، وعلى أن الأولى والثانية انما يرجع أمرهما الى أصل واحد هو الماهية الادراكية ـ ثم علمتنا أيضا أن الذات الشاعرة ـ والقوة المفصحة ـ والحاسة التصورية كلها تلتقي عند ملتق واحد يرتبط بعضها ببعض ـ اذ أنها كلها أجزاء مكملة « للنفس » قوى نفسية ـ والمعلوم ، أن الحالة النفسية ذات ارتباط شديد الصلة بالحالة العضوية ـ وأن كل مايصيب الحالة العضوية من الخارج ، يؤثر في الحالة النفسية لامحالة ، فاذا بادت الهيئة العضوية ـ بادت القوة النفسية من غير شك .

ومن هنا يتبين لنا قيمة ماتظهر لنا الحالة العضوية من التجاريب العملية الحسية الظاهرة . فالأمراض انما تعمل في الجسم ببزائن تقوم بوظائفها في جسم المريض ـ اما على شكل جزئي أو كلي ـ ثم هي تتفشى في الجسم وتبيد أيضا ـ فيفارق المرض جسم المريض في هذا الموقف نذكر فيرخو Virchow وقد كان من عشاق درس « الجراثيم » وعلم الخلايا المرضية ، فكان يعلم من بعد هذا كله ـ أن الطبيعة فعالة ـ وفعالة بحق وبتأثير . ولا تزال ذاكرتي تستعيد موقفا مربها من زمان بعيد ـ فترتسم على لوحتها صوره حادثة ـ كلما ذكرتها تمثلتها تماما ـ لانها تركت في نفسي أثرا لا يمحى ـ ذلك أني حينما كنت « في وارزبرج Warzburg صيف عام ١٨٥٥ » .

كان الى جانبي « فيرخو » وقد حانت مني التفاتة اليه ـ واذا بعينه النافذة البصر قد أرسلت أشعتها الى نقطة ضئيلة جدا تكاد العين لاتحفل بها ، ولاتعرف أنها شيء يذكر فاتخذها وناولنيها — لامتحنها امتحانا « ميكروسكوبيا » ولما أن بدأت عملية الامتحان تنست فيها خلايا بسيطة مؤتلفة بعضها من بعض

ولقد كانت ملاحظات أستاذي التي ، كان يبديها في مثل هذه الحالات ، وفي غيرها أيضا من الحالات الجرثومية — تؤيد عندي مذهب اتحاد الحالة العضوية في الانسان ، وتبعث في الايمان بأن هذا البناء الآلي — ماقام ألا على الائتلاف والانسجام ، وتقوي في أيضا الميل الى الوثوق من أنه ليس يوجد ثم فاصل بين العقل والجسم . ولقد كان فيرخو أيضا معنا على هذا الاعتقاد في ذلك الحين ، ودرج على هذا الاعتقاد ـ يؤمن بثانوية الجسم الانساني من حيث ـ الارتباط الكائن بين (الحالة النفسية والحالة العضوية) ـ درج على ذلك عشرين سنة (أي الى عهد خطابه الذي القاه في (مونيخ) عام ١٨٧٧ . وانما أرجح أن يكون انتقاله من هذا وتزحزحه عن معتقده الذي تكون وقام على الحس — الى ما كان من مغامرته في جو السياسة والى ما كان من الأوضاع السياسية ، التي أسلفت الكلام فيها في الفصل السابق

فاذا أردت الاسهاب — ورغبت في التزيد من ضرب الأمثال ، واستيراد الكثير من البراهين ـ جئتك بحجج دامغة ، وأظهرناك على موفور البراهين ـ لنعزز نظرية النفس ، ولنوضح لك جليا ، أن القانون العام الذي يهيمن على النفس — يسوي بين نفس الطفل في مبدأ جبلتها ، وبين نفس الحيوان في أول خلقته .

فاذا رمت التحقق ـ وألقيت نظرة على طفل ، لأول عهده بالحياة الدنيا ، الفيته ـ لا يملك كثيرا من المواهب ، كالذات الشاعرة ، والذكاء ، وملكة التفكير ـ وقوة الحكم على الاشياء .

كل هذه المواهب لاتوجد في الوليد — فاذا تابعنا تلك القوى الراقية متدرجين مع تدرج الوليد في مهد حياته عاما ، بعد عام ، أنتهينا من ذلك الى أن كل هذه

الملكات تتابع المخ في تدرجه ، فتقوى كلما قوي ، وتنضج كلما نضج — اذ أنها ذات اتصال متين به .

ولقد تحدى (ولهلم برايرWelhelm Preyer) البحث في النفس على ناحية التخصيص والتحقيق ـ منذ عشرين سنة في بيننا واشتهر «بملاحظاته التحقيقية في نشوء عقل الانسان» لأول عهده بالحياة» وحذا حذوه الكثير من أقطاب «الفسيولوجية» وعمد علماء العلم الحديث ـ فاتفقوا مجمعين على أن النفس ليست جوهرا غير آلي غير (مادي) ـ فاذا سائلتهم اذن ما هي النفس ـ أجابوك سراعا ، ان هي الا جماع عام لوظائف الدماغ ـ فاذا مات الدماغ ـ ماتت النفس .

وعندنا غير ذلك من الأدله القاطعة ، التي نتخذها من درسنا تاريخ النفس ـ ونستقرئها من علم النفس المقارن ـ في ذوات الثدي ـ الراقي منها والمنحط ـ وفي الجنس البشري متوحشه ، ومتدينه .

العلم الحديث يحدثنا فيبين لنا ان نشأة العقل وتاريخ تدرجه حتى بلوغ ماوصل اليه من القوة التي نراها فنعجب لها ـ وأنت تجد الماهية الادراكية في المراتب الأولى للجنس البشري ـ مثلا فدهاس جزيرة سيلان (سكان سيلان القدماء) The Vedhas of Cylon أو الوطنيون الأصليون في أوستراليا Australia لاتختلف عما في الراقي من أنواع القردة الا شيئا قليلا .

ونحن نتابع السير مع هذا التدرج من حال الرقي في المتوحشين ـ حتى نصل الى أرقى ما بلغته الانسانية مدنية ، بيد أنا نتساءل ـ فنقول : أينت تلك الهوة التي تقع فاصلا ـ حتى بين النوابغ ـ أمثال «جوت» و «داروين» و «لامارك»

وكل هذه الحقائق الثابتة ، تشير الى نتيجة غائية واحدة ـ تلك النتيجة التي لا ينكرها الا كل جاحد أومكابر ، هي : أن النفس ما بلغت كما لها المعروف لدينا ـ الا بعد أن قطعت مرحلة طويل أمدها ، وسارت تتدرج من حال الى حال ، خاضعة لناموس التحول العام ، فاذا كان فيها أختلاف ـ كان ذلك الخلاف أنما يقع فيما بين

نفس ونفس من الدرجات ـ لافي نوعها ـ من أجل ذلك كان حقا ما نقوله : من أن النفس يستحيل أن تكون بأي حال من الأحوال ـ أبدية .

ولعلك تأنس من نفسك ثمت تريب في هذا القول ـ اذ ترى الفتية من أهل العلم ، والمراهقين من ذوى العقول الخصبة الناضجة ، وقد نالوا من العلوم ـ تالدها ومحدثها قسطا موفورا ، وأوتوا من الحنكة ونضج التفكير حظا كبيرا ـ ثم هم من بعد ذلك لايزالون يؤمنون بما كان عليه أباؤهم الأقدمون ـ يدرجون في هذه السبيل على سلم « الاعتقاد القديم في النفس » خانعين لهذه الهيمنة القاهرة ـ قائلين بابدية النفس سيان عندهم من المتمدينين ، والجهلة المقلدين ـ من بعد ماجاءهم البرهان الحق من ناحية العقل وعن طريق العلم ، ومن سبيل الاستقراء . فتقول : ان عمل الوراثة ـ والتقليد الأعمى ـ وعقم طرائق التربية والتعليم وما الى ذلك من الفواعل المؤثرة علي المخلوقات ، والتقاليد والطقوس التى تحوطه في كل تاريخ حياته ـ كلها مؤثرات يخضع لها المرء فتؤثر في عقليته ولا تتركها حركة مطلقة ـ وكان هذا سبيلها في الانسان منذ كان حتى الآن ـ لذلك كان لابد لها من أثر فعال في تكوين شخصيته ـ ولذلك تجد العالم النابه لا يزال يخضع لهذه القيود ، ولا تزال تتسحنه فترى آيات كل هذه المؤثرات بادية عليه ، وان حاول أنكارها .

آية ذلك ماتراه من تهالك الكنيسة علي استخضاع معاهد العلم لقوتها وبسط سلطتها علي دور العلم ، كي تتحكم في ارادة المتعلم ، وتستبد بعقله ـ وكي تسد عليه المنافذ من كل ناحية ، فلا يعود يرى الا بعينها ، ولا يريد الا بارادتها ، وكي يصبح من جراء ذلك رقيقا لها بالمعنى .

ولقد يسوقنا هذا الحديث الى التساؤل في ما هي مكانة «التطور الا كليريكي» من اليسوعيين ـ . حيال مذهب داروين ـ أي من حيث الاعتقاد بالنفس ؟

أما «وازمان» ـ فانما يعتقد أن الانسان ، أنما خلقه الله علي صورته ، وهو كائن غير مادي ـ يخالف كل باقي الحيوانات ـ من حيث كونه ذا نفس خالدة

وعلي هذا الاعتبار اليسوعي السفسطي ـ تكون نفس الانسان غير المادية هذه ـ « ذات حساسية وروحانية » أما النفسية الحيوانية ـ فذات حساسية فحسب . ويكون — أن الله قد نفخ الانسان بروح منه ، وسوى بين هـذه الروح والنفس الحيوانية حينا من الدهر .

والحق : ان « وازمان » يعتقد أن الله قد خلق حتى جسم الانسان ، بطريقة مباشرة .

هو يؤمن بذلك من ناحية الدين — فاذا جبهته البراهين العلمية وناهضته الأدلة الاستقرائية — القائلة بتسلسل الانسان وخلقه من باقي الحيوانات — وقف باهتا اذ نسائله : في أية حالة من تلك الحالات — كان الله قد ألقى روحه القدسية في الانسان؟

والرأي الشائع عند من عنوا بالبحث في عـلم الأجنة وفي حالة النفس — من الآباء اليسوعيين ـ أن النفس تسا كن جسم الجنين « غير الحي » في اليوم الأربعين من عهد تكوين الجسم ذلك في حالة الذكورة — وفي اليوم الثمانين من ذلك العهد — في حالة الانوثة .

فاذا آمن وازمان بهذه المقدمة التكوينية التي تسبق حلول الروح في جسم الجنين ـ وكان يعتقد أيضا أن مثل هذا الشأن ينتاب الجنس في نشوئه ـ كان لابد أنه يرى أيضا هذا الرأي في حال نشوء الأنواع الراقية من القردة .

ونحن اذا أجلنا النظر في المادة ، معتمدين على العقل البعيد عن كل تأثير ـ انتهينا من ذلك الى أن الاعتقاد بالخلود ـ أمر لا يتفق مطلقا من حقائق التطور « الفيسولوجي »

والاعتقاد السائد عند الكنيسة القديمة — القائل بان النفس تسا كن الجسم غير الحي في زمن معين ، من فترة نشوء الجنين — أشبه باعتقاد علماء العلم الحديث من اليسوعيين ـ القائل بانه نفخ من روحه القدسية في جسم الراقي من أنواع القردة — في زمن خاص من العصور التاريخية « العصر الثالث » — وكذلك رقاها الى نفس خالدة — وكلها سواسية في الضلالة والبطلان . ذلك لاننا كلما تحدينا تحقيق هـذه

النظرية تحقيقا صحيحا ، ورغبنا في الوصول الى غاية هذا المعتقد بلغنا من ذلك الى سر خفي لا مكنة لأحد أن يتعرفه ، أو يكشف عنه ، وليس يفهم الا عن طريق اللقاح ـ ولا يعرف ألا بالتقليد . وبتأثيرات الحكومات الرجعيـة ـ التي منيت بعواهل لا يسا كنهم معتقد ، ولا تروج عندهم من المباديء الدينية ، الا فكرة أن التاج عاملان ينازع أحدهما الآخر — ولابد من نصرة أحدهما على الآخر ـ ولابد من ان يكون التاج في أخر أمره وان الكنيسة انما تعمل لـنزع السـلطة من الحكومة والانفراد بها ـ وأنها لا تعمل لخير الحكومة مطلقا .

على أنا اذا درسنا تاريخ العقيدة ـ علمنا أن الاعتقاد بالخلود ـ شيء لم يجد له مكانا يحتله ، عنـد العلماء . سيما جو العلوم ومقابلة بعضها ببعض في العهد الأخير .

ولم نجد فيلسوفا ، من الفلاسفة الطبيعيين ـ الذين ظهروا قبل المسيح بستة قرون ـ قد درس طبيعة العالم درسا عمليا حقا ـ فآمن بهذه العقيدة حق ايمانها

لم نجد ذلك عند أمثال (ديموقريطس Democritus) و(امبيذقليس Empedocles) ولا عند (سنيكا Seneca) و (لوكريتوس كاروز Lucretius Corus)

كما أنا لم نأنس ذلك أيضا من أصحاب الأديان الشرقية القديمة ـ (كالبوذية Buddhism) الدين القديم للصينيين (أوكونفوشيوس Confucianism)

والحق : ان مسئلة الخلود بعد الموت ـ لم يعرفها البنتاتيك Pentateuch) ولا عرفتها الأسفار الدينية القديمه « التي خطت قبل تاريخ بابل (الحادث البابلي) »

ولم يلج هذا البحث من الفلاسفة القدماء ـ الا (أفلاطون Plato) وتلميذه (ارسطو Aristotle) حيث تمحلا لهذا البحث فيما بعد الطبيعة وقالا (بالمثنية) .

على أن مذهبهم في ذلك لم يجد رواجا ، ولا هو نال حظا عظيما ، الا بعد ظهور المسيحية والاسلامية ـ وموافقة مزاج هذين الدينين لمعتقد أفلاطون وأرسطو في ذلك.

هنالك عقيـدة نفسية أخرى ـ وهي الايمان بوجود ارادة حرة في الانسان ـ تلك النظرية التي لا تتفق مع نظرية التطور في قليل ولا كثير ذلك ـ لأن علم النفس

الحديث قد بين تماما أن الارادة لايمكن بأي حال من الاحوال أن تكون حرة مطلقة في الانسان ولا في الحيوان ـ اذ أنها ترجع بطبيعة تكوين أعضاء الجسم وتركيبه ـ الى المخ ـ وهذا من غير مرية خاضع لناموس الوراثة القهار ولغيره من الفواعل الأخر.

ولقد كان لهذه المسئلة ـ التي تفصح بوجود شيء من الارادة في الانسان ـ شأن عظيم ، في الأصول الدينية ، والأوضاع السياسية والمسائل القانونيه ، والاشكال الخلقية والاجتماعية ، فشغلت جزءا عظيما من صفحات كل هذه الشؤون .

وفتح باب هذا البحث على مصراعيه ـ وجاب الانسان يبحث عن ماهية الارادة فيه ، ليقف على مقدار فاعليتها ـ لأهمية ذلك في الأوضاع والأحكام ـ فكان القوم على اعتقاد تام بوجود ارادة فعالة في الانسان ـ يسأل عنها ـ ويحاسب على كل ما يصدر منه لسبب ما هو مفروض فيها من الحرية .

والمسائل المعقدة ـ صعبة الحل ـ الغير المعقولة مطلقا ، ثلاث : أما الأولى ـ فالاعتقاد بوجود ارادة حرة مطلقة في الأنسان ـ وأما الثانية فالأيمان بوجود روح خالدة . وأما الثالثة . فالتصديق بوجود آله.

ولاجناح على الذين يصيخون لهذه الأحكام خانعين منصاعين لهوى التقليد ـ من الجهلاء ، والكافة من الخلق . وأنما نحن نعجب العجب كله لأولئك الذين ضربوا في العلم بسهم ـ فتنورت عقولهم ، وأضحوا بين الناس أعلاما ، بعد أن صارت لهم كعب راسخة في العلم والتربية ، ثم هم من بعد ذلك يشاركون العامة في تصوراتهم ، ويشاطرون الكافة من أهل الجهالة والسخف في اعتناق القديم من المعتقدات ، والتسليم بغير المعقول من المؤتنقات من غير تحدي بحث ، أو اعمال فكر .

وباطل مايعتقدون من وجود هذا الآله وجعله أصل الايمان ، ومبدأ المعتقدات القائمة عليها بعض الأديان ، والموجود غير المحدود ، تراهم يقولون ان الله « واجب الوجود » مطلقا . فاذا تحدينا البحث ووالينا التحقيق ـ انتهينا من ذلك الى أن الله ـ هو : « المثل الأعلى الانساني »

وأنت تقرأ ماسطره موسى في خرافاته ـ فتراه يقول : « ان الله قد خلق الانسان على مثاله وعلى صورة منه » .

والحق ان هذا وهم باطل ـ « وانما الصحيح العكس ذلك أن الانسان قد تصور الله على صورته ومثاله ـ فصوره بالصورة التي توافق مزاجه ، وجعله على ما يتفق مع أستعداده » .

وعندهم ـ أن هذا « المثل الأعلى الانساني » قد صار خالقا وهندسيا ومبدعا للعالم ، فخلق أنواع النبات والحيوان كصانع ماهر ـ وحكم العالم كله ـ كحاكم قدير حكيم . ثم هو في اليوم الأخير ـ « يوم الدينونة » يحاسب كل عامل وما عمل ، فيكافيء المحسن على احسانه ، ويعاقب المسيء من أجل اساءته .

تلك التصورات الصبيانية ـ التي تجعل للعالم الها ـ هو « الواجب الوجود » والخالق ، والمدبر لكل شيء ، وما الى ذلك من الصفات الحسنى ـ كلها شؤون لاتتفق مع ماجاءنا به العلم الحديث في القرن التاسع عشر ، ولا هي تقف أبدا أمام ناموس الطبيعة المطلق ، وقانون التحول العام .

على أن فلسفة النقد قد جابت هذه البقاع ـ وهيمنت على هذه الموضوعات فبينت غثها من سمينها ، خدمة للعلم ، ونفعا للخلق .

هاك المفكر النقادة الشهير (عمانئيل كانت Immanuel Kant) ذلك الرجل العظيم الذي جاء في كتابه بكثير من الآراء الصبيانية الممتعة ، فقال ان العلم الحق لا يقبل مطلقا ـ شيئا من مسائل مابعد الطبيعة المعتقد بها الثلاث ـ الله ـ وخلود الروح ـ وحرية الارادة .

والحق انه من بعد ذلك في « قسم التحول في العقيدة الثانويه » قال بوجوب الاعتقاد بهذه القوى العظيمة الخفية الثلاث . وانها تأملات للبرهنة العلمية ـ وأن ثالث هذه المسائل يجب أن يكون له سابقية اتصال بالعقل .

والفيلسوف الحديث المتمذهب بمذهب (كانت) يذهب مذهب (كانت) أيضا في

هذا التناقض غير الممكن تصوره .

ولعلك ترى الكنيسة تبتسم والسلطة المدنية الحاكمة تتهلل وتصافح رجال الدين — وكلهم فرح وغبطة — مستبشرين بما وقع من التناقض الظاهر الذي لحظه قراء فلسفة (كونسبرج Konigsburg) في القولين من حيث البرهنة . شأنهم في ذلك أن يجيئوا بالنتائج الكثيرة الأخلاط ، التي ما قامت الا على البرهنة المبدعة للعقيدة ، المزعزعة أركانها بالريب والشكوك — معتقدين أنهم بذلك يخدمون الدين ، ويرفعون شأن الملة .

ولنضرب الآن صفحا — ونحن في معرض الكلام على الدين، عما قامت عليه نظريات القوانين العامة الفلسفية ، وكذا نظرية التحول ، وكلها ترمي على أن لاتجعل من بناء الدين — حجرا على حجر — وهو الشائع في هـذا العصر عند العلماء . على حين أنا نعتقد أنها لاتعارض من الدين الا أجزاءه الضعيفة غير المعقولة، ولا النافعة، القائمـة على الوهم والغباء . تلك التي تملك على الانسان كل عواطفه — فتحول بينه وبين عقله حتى لا يفهم ولا يعقل — ثم تجيء من بعد ذلك فتفرغ فيه ما شاءته من أسباب الوهم وأنواع الخرافة — لتحكم وما هي في ذلك الا خادمة للسياسة وأغراضها المتشعبة .

وحسبك في ذلك ما تراه مسطورا من سير الدولة الرومانية ، والالترامونتانية — وماأستمدته كل منهما من النفوذ باسم الدين المسيحي — وما تركته من أثر أعمالها المحزنة في هذه السبيل — ولانزال حتى الآن نرى المسيحية تمثل مثل هذه الادوار . بل لاتزال المسيحية تمثل هذا الدور في العالم أجمع .

فلو أتيح « للوثر Luther » أن يبعث ثانية ، لآثر سكنى القبور على القصور — ولفضل الموت على بقائه حيا يرى نفوذ الكنيسة الرومانية ، وسلطانها المهيمن على حزب الوسط في الامبراطورية الالمانية الآن .

وانك لتجد هنالك « البابوية» وهي العدو اللدود للبروتستانتية الالمانية — تمتع بكل معاني النفوذ في ذلك الجو — ثم ترى أيضا أن هيئة الريشستاغ Reichstag

يقتادها النفوذ اليسوعي .

وما أنت بسامع كلمة حق خرجت من فم رجل منصف، يلقيها على الملأ يعلم فيها على مافي الكنيسة الرومانية من الخطل ، سيما الثلاثة المسائل الخطرة — الاجبارية للقساوسة ، كمسألة الاعتراف وغيرها. على ان كل هذه التقاليد الرومانية اذا أصلحت فانها لاتمس جوهر الدين المسيحي في شيء مطلقا ، لبعدها من الاصل المسيحي، ولأنها ليست من جوهره . ولئن عرفت أنهم شعب متذمر أبدا من حال الحكومة ، ومن حال كيان العائلة ، وكنت تحسب من بعد عملك هذا ، أنهم شعب نزاع لكل محدث نافع ، فانك تعجب العجب كله — اذ تراهم من دينهم الآن — على ما كان عليه الاقدمون قبل ثورة الاصلاح

ولقد تعدى ذلك — السوقة ، والكافة من الشعب ولحق بالأمراء، ذلك أن أكثر أمراء المانيا من أتباع الكنيسة الرومانية ، يولون وجوههم شطر روما ، ويحجون اليها من حين الى حين تبركا وأستغفارا — هنالك حيث يخرون سجدا مترامين على أقدام الفاتيكان — طلبا للرحمة وتوسلا للغفران . . . فوا أسفا على ذلك !

أدهى من ذلك وأمر — أن ترغم على اعتناق دين ، أو تضطر الى التمذهب بمذهب ، على غير رضاء منك، وهذا مالايتفق مع الروح الدينية في شيء . وعندنا في برلين ، حرب قائمة بين الكنائس، تريد كل منهامزاحمة الأخرى، فتنازعها السلطة باتخاذها أفرادا من أشياعها — ولقد رأيت أن الكنيسة الكاثوليكية باذلة كل نفوذها في الحيلولة بين البروتستانتيين والانجليكان — وبين معابدهم — تريد أتخاذهم جميعا وادخالهم في حظيرة الكثلكة

في هذا الموقف أذكر أني لاقيت في الهند كثيرا من القساوسة والمهاجرين — يعتقدون تمام الاعتقاد ، أنهم خادمو ربهم ، بتحويل أداء الصلاة من حال الى حال وتغيير مذاهب المتمدينين من مذهب الى مذهب .

ولقد قصدت ذات ليلة الى معبد هنالك — فرأيت نوعا جديدا من العبادة

الكنسية الميكانيكية «الآلية» . ذلك أنهم جعلوا هذه (الكشيدرائية) الجديدة ـ التي زرتها ـ معبدا آليا ثم رأيت أنهم يتقاضون من الأئمة والخطاة أجرا على محو خطاياهم ، وغفران آثامهم ـ باطلاق السنتهم بالأدعية ، والاسترسال في الصلاة ـ رأيتهم يتناولون «ماركا» واحداً لغفران الخطيئة الصغرى ، ويأخذون عشرين «ماركا» لغفران الكبائر ، وتلك صنوف من البدع في الدين تضحك الثكلى ـ ناهيك ـ بغير هذه من الكنائس التي تأسست حديثا في برلين وأنفق على بنائها ملايين «الماركات» أفما كانت المعاهد العلمية أحق وأجدر بامثال هذه المبالغ ـ أن تصرف عليها ؟

ولعل أولئك الذين حملوا علي منذ أربعين سنة ـ تلك الحملة الشعواء، وقرفوني بكل شتمة وسبة ، لايستطيعون أن يتبجحوا حيال هذه المخزيات الكنسيّة ، ولعل هؤلاء الذين قاموا في هذه الايام يجددون تلك الحملة علي يرجعون الى هذه الشؤون قبل أن يقوموا بحملتهم ، ليعلموا أي عمل هم فاعلون والى أي طريق هم ذاهبون ، وليعلموا أيضا مقدار تعصبهم ، وقيمة أعمالهم .

ولقد وقع الخلف بين أصحاب الكنيسة الرومانية القديمة، وبين أصحاب الكنيسة الحديثة ـ في نقد مذهبي ، ونقض نظريتي ، فجاءوا بكثير من الآراء المتضاربة ، والاقاويل المعنعنة ، والترهات الملفقة ـ ان يقولون الا كذبا وافتراء ـ على أنهم مع هذا كله ، لم يستطيعوا أن ينكروا ماقامت عليه نظريتي من الناحية العلمية الحقة .

ولقد أباحت لهم فضيلة دينهم أن يثيروا حولي الرأي العام ، وأن يستفزوا النفوس الثائرة ، ويستخدموا الأقلام العاثرة ، للنيل من كرامتي ـ ولتدبير حملة بعد اهتياج القوم ـ يكون من شأنها القضاء الأدبي الأبدي علي.

ولقد أرادوا بي ضرا ، فنفعوني من حيث لايعلمون ـ أذ لولا من قام يناهض مذهبي من النقاد المعارضين ـ أمثال (ستوخر Stocher) و(لوفس Loofs) و(دنرت Dennert) ـ وهؤلاء من المعارضين ـ لولا ماخرج من أفواه هؤلاء، وما أنضحته

يراعاتهم من النقد ـ لولا كل ذلك ـ ماعنيت بشرح بعض الأغراض في نظريتي ؟ ولا ذيلت كتابي بها .

وليس من ينكر علي العالم حبه للعلم ، وسعيه ماأستطاع وراء الحقيقة . ولا من يستنكر أن نظر العالم الى الحقائق يختلف عن نظر المتدين ـ فنحن العلماء ، نقدر الاشياء ، بغير المعيار الذي يقدر به المندمجون في الاكليروس

أما صلة الدين المسيحي بالعلم ، والتوفيق بين الاثنين ، فاني لاأماري في القول اذاقلت ـ ان العلم لايعرف مطلقا مافي الدين من الألوهية ، والشؤون الخفية ، على أنه من ناحية أخرى يحبذ كل التحبيذ الناحية الخلقية من الدين المسيحي، ويستملح أيضا ما هو مبثوث فيه من الروح الأدبية العالية .

والوجه ـ أن الفضائل المسيحية ، وما أمرت به من وجوب أنتشار المحبة بين جميع الناس ـ تلك المحبة الأخوية الجليلة، ليست كلها من مستكشفات الدين المسيحي ولا هي من مخترعات «السيد» المسيح . آية ذلك أنها كانت بين الناس قبل ظهور المسيحية ، فتلقتها الخلق ـ وتعلموها وعملوا بها قبل المسيح بقرون .

على أنا لاننكر على المسيحية فضل تعليم المحبة للناس ، والتكريز بهذه الفضيلة النافعة للعالم ـ بقوة جديدة ، ونشاط عظيم . ولقد تحسنت حال المدنية في ذلك العهد من أثر هذه التعاليم ـ على خلاف ماقامت به الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى من الفظائع ، وسفك دماء الناس بغير حق ، وأحراق الهراطقة ـ تلك الحرب الدموية الكبرى التي سوأت سمعة الدين المسيحي ، فذهبت برواء دين التسامح والمحبة .

ولم تلك أول صدمة في تاريخ الأرثوذوكسية المسيحية ، قد جاءتها من طريق العلم الحديث ، بل أنها قد حوربت من قبل ، وكان أول من شن عليها الغارة ـ ثلة من أبناء المسيحية الدينين الغيورين المتعلمين .

تسائلني من هؤلاء المسيحيون الذين قاموا يناهضون دينهم ، ويشنون الغارة عليه ؟ فأقول . ان المذهب «البرتستاني» قد خرج رجالا من ذوي العلم والتفكير

أمثال (شليرمارك Schleiermacher) الذي ظهر منذ ثمانين سنة في برلين صاحب الخطابات الرنانة ـ (وفيرباخ Feuerbach) وما أظهره من المؤلفات العديدة ، نذكر أيضا (داود ستروس David Strauss) ومصنفه الجليل في البحث في حياة يسوع المسيح . وكذا (أرنست رينان Ernest Renan)و(دلتزخ Delitzsch) و(هرنك Harnack) وما قاما به من المحاضرات والخطب في العهد الأخير . كل هذه غيرت ما كان راسخا في عقول الناس وما كانت تدعيه الكنيسة الارثدوكسية ـ من القول بانها الدعامة العظيمة التي قام عليها تاريخ الديانة المسيحية .

يقول كالثوف « من بريمن » ـ صراحة ـ ان كل التقاليد المسيحية خرافات ـ وأن ظهور الديانة المسيحية ، كان أمرا طبعيا لابد منه ـ لتقدم الحضارة بتقادم الزمن

أما اذا شئت أن تقف على ماقام من النزاع والعراك بين الدين والفلسفة في أوائل القرن العشرين ، فاني مظهرك على شيء يبين لك ذلك ـ فأقول : لقد تورط وزراء المعارف «في بروسيا Prussia » وبافاريا Bavaria في المذهب الكاثوليكي ـ فكان من ذلك أنهم كانوا يبذلون جهدهم في تلقين الناشئين تعاليم هذا المذهب ـ وبث روحه في كل الطبقات ، وفي كل درجات التعليم ولم يمض على ذلك بضع أسابيع حتى قام وزير بروسي يحارب « الاكاذيمية » الحرة ، فقضى بذلك على الحياة العقلية في كل أنحاء المانيا . وانما تعيد لنا هذه الأعمال تلك الذكرى المؤلمة ـ حيث نذكر أياما طوتها صحف القرن الثامن عشر ، والتاسع عشر ـ أيام كان يحج الالوف من الطبقات الالمانية الراقية ـ الى أمريكا الشمالية ، قصدا لتنمية قواهم العقلية في جو الحرية . وانما كان لوقوع اختيار هؤلاء على الولايات المتحدة ـ حظ كبير من المفخرة لأمريكا ، على أنه كان من جهة أخرى يؤلم عواطف الالمانيين كثيرا أيضا .

وكأني وعقول أولى الأمر فينا صلبة جافة ـ يريدون أن يرجعوا بنا الى كريتاس Cretaous وجورسش Jurassic في حين أن من أصحاب الدين عندنا من يستحيون

أن ترجع أيضا الي عصور Permian Carboniferous

وهما يكن من أمر هؤلاء ـ فالواجب يحتم علينا أن لا نعبأ بكل تدابير السلطات السياسية ، والهيئات الاكليريكية ، بل يجب أن نجلد أمام هذه الزعازع والحق أغلب . وسيعلم الذين جاهدوا أنهم منتصرون ـ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والرجاء يملأ نفوسنا أن اليوم قريب ، ذلك اليوم الذي سيقع فيه تبادل الافكار بين الشرق والغرب ـ نقول ان ذلك سيكون قريبا لسرعة انتشار طرق المواصلات على الكرة الأرضية .

هنالك ـ أتوقع أن تستنير ألمانيا فلا تقوى تلك الظلمات الحالكة التي تملأ جوها ـ على مقاومة نور الشمس المشرقة . وليس أحب الي في كل آمالي وفي كل حياتي ـ من ذلك اليوم الذي أرى فيه فكرة التطور منتصرة معتزة على كل فكرة سواها .

على حين أن عندنا غير قانون التطور ـ مانحبه أن يكون ذا أثر فعال ـ وانتشار شامل ـ ذلك هو العلم الحديث ـ وذلك هو قانون المادة ـ وقانون تقدير القوة «روبرت ماير عام ١٨٤٢ Robert Mayer 1842» وهذان القانونان لا يتفقان أبدا مع العقائد الأولية الهامة في علم مابعد الطبيعة . تلك العقائد التي لاتزال منا طائفة راقية المعلومات ، عالية التربية ، تفخر بأنها مظهر من مظاهر حياتها الراقية .

وهاك تلك العقائد ـ الايمان بالله ، وخلود الروح ، وحرية الارادة .

وأنما ليس يفرض لهذه عدم الوجود مطلقا في هذا العالم ، بل هي تقف من حيث عملها كحقائق ـ أمام العلم الصحيح :

مثل هؤلاء ـ كمثل مخيلة الشاعر الذي تفيض شاعريته ، بما توفق اليه من ألوان البديع ، وأنواع الشعر ، وضروب الخيال ـ والحال أن قوام الشاعرية ، وأستنضاج المخيلة ، وتوليد حرارة الوجدان ، كلها لا تكون عند الناس بالاكباب على الفن الجميل وأنواعه ـ كالنحت ـ والتصوير ـ والموسيقى والشعر . وانما هنالك من وراء ذلك أمور أخرى واجبة الاعتبار هي ـ المعاني الادبية والسياسية ، التي يرادبها في

نفوس الناشىء حال ربايته — ليكون عضوا عاملا في المجتمع.

وانما مثلنا مع أساطير الأولين، وقصص المحدثين — من حيث اقتباسنا منها — مابث فيها من المعاني الخلابة، والخيالات الجذابة « مثل خرافة هرقيل Herucles — والاديس والالياذه — The Odyssey & the Iliad » ومثل قصة «وليم تل William Tell» مثلنا مع الخرافات المسيحية، والقصص الدينية. وهو أيضا عين مانتقبل به التصورات الخيالية المبثوثة في غير الدين المسيحي من الأديان — الخاضعة للايمان بالعقائد الثلاث. الله — والحرية — وخلود الروح. من أجل ذلك كانت الناهية الفنية في الانسان باقية مع النور العلمي لا تناهضه أبدا، ولا تناقضه في شيء — ولكنها معه على وفاق — لأنها من الجواهر الخاصة بالعقلية البشرية.

وهاك قول جوت في ذلك:

« ان من يملك علما وفنا، فقد ملك دينا صحيحا، أما من لم يتعلم العلم والفن — فخير له أن يسعى وراء دين يعتنقه. »

وانما تقع العلاقة بين العلم والدين من الحقيقة بحيث تجعل الله والعالم «وحدة» لا تعرف التفرقة مطلقا. هو ما يذهب اليه جوت في ماقاله. وهو ذلك المعنى الذي صارح به (سبنوزا Spinoza) قومه من زمان بعيد — وكذا (جيوردانو برونو Giordano Bruno)

ولقد زعموا أن جوت كان مسيحيا أرثوذكسيا، ولقد قام منذ بضع سنين خطيب واعظ شاب فنادى بذلك يعزز صحة العقيدة المسيحية واعتناق المفكرين أياها.

أما نحن فنقول: أن جوت نفسه قد قال صراحة، « انه ما كان مسيحيا أبدا ». بل انه « كان لامسيحيا »

ان المقدرة العظيمة التي جادت بها قريحة (ويمر Weimer) قد أفصحت غاية الافصاح عن البيان المقصود من Pantheistic في أشرف أشعاره وأنبلها وفي الله والعالم.

ما كان لمفكر جبار العقل كبير النفس كهذا الرجل — جرىء في عقليته تحول الحياة الآلية ملايين السنين — أن يتبع عقيدة ضيقة لنبي يهودي — حياته الانسانية لاتمتد

الى أكثر من ١٩٠٠ سنة من السنين الخوالي.

والصواب: أن « الله المدبر الكلي » جوهر هذا العالم والآلة الطبيعي في مذهب (سبنوزا) و (جوت) مع الخلود. وكل قوى الوحي موحدة في الخلود وفي المادة المحدودة وفي المكان الذي تتجهز فيه هذه المادة أيضا — تلك المادة التي « تحيى وتظهر في كل الموجودات » كما نقول في « الروح القدس ». وكما نذهب نحن الى أن ناموس المادة — عام شامل — وأن القوة والمادة متلازمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، وأن عدم انقطاع نشوء هذه المادة تابع « لقوانين محدودة خالدة » أيضا — لذلك نحن نجد أن الله في الناموس الطبيعي نفسه.

ان المشيئة الآلهية تنفذ أبدا — في كل قطرة من المطر — وفي كل بللور ثلم وفي نكهة (رائحة) الوردة — وفي روح الانسان.

خاتمة الكتاب

مذهب التحول واليسوعية

هنالك بين مسئلة التحول — وبين التعاليم اليسوعية، صلة عظيمة قد ساء بعضهم فهمها، فلم يتعرف سبيل الوصول اليها، لذلك جئت بهذا البيان مستوضحا ما أستبهم من هذه العلاقة، مبينا ما غمض من أغراضها ومراميها — فأقول:

لعل القاريء قد علم مما أسلفت الكلام فيه — أن مذهب التحول والمذهب اليسوعي — ضدان لا يتفقان أبدا — ولعله تعرف أيضا أن ترحيب اليسوعية — وتقبلها لهذا المذهب كان من باب السفسطة ليس غير.

على أني كنت أعتمد في كل المراجع التي كنت أرجع اليها في الرد على هؤلاء اليسوعيين — على تواليف العالم اليسوعي المعروف الأب (أرخ وازمان Father Erich Wasman)

وليس يدل ذلك على أني أنما عمدت الي الرجوع ـ الى مصنفات وازمان لسعة بحث الرجل واضطلاعه، والمامه بأطراف هذه المسئلة المامًا يفوق كل من عداه من أهل هذا المذهب ، ولا لأن هذا الكاتب قد بز غيره من الكتاب في التعبير ، والبيان، والدلالة والقدرة والمكانة، بل لأنه أشتهر بين أترابه بالبحث العلمي ـ لا كبابه على درس الكثير من الحشرات ، والمامه المامًا كليا ـ بعلم الحياة . ولقد ردعلى محاضرتي برسالة وجهها الي باسم (خطاب مفضوض) نشرت في الثاني من شهر مايوعام ١٩٠٥ في صحيفة جرمانيا البرلينية أو «الرمانية» Berlin or Roman Germanial

ولما آنست في رده شيئا كثيرا من أنواع السفسطة، وضروب المغالطة ـ وتبينت فيه تحريفا لبعض ماضربته من الأمثال . لذلك نجعت بهذه التبانة « الخاتمة »

ولم يسبق الى حسبي مطلقا ـ أن هذه الخاتمة تحل عنده محل الاقناع وتذهب بكل ماعنده من ريبة وسوء فهم ـ مادام المنطق لايقنع اليسوعي ـ وما دام هو يحول ويحور أقضية المنطق لما يحب ويرغب . والخطأ كل الخطأ في أنك تعتقد أنك مقنع خصمك يوما ما بالحرية العقلية ـ مادام هو على اعتقاد تام « أن المعتقد الديني فوق العقل » وفوق كل برهنة وتدليل .

وأنت تهجم على فكرة ممتعة نافعة ـ تستخلصها من الفصل الحادي عشر من مؤلفه المسمى ـ « علم الحياة الجديد ونظرية التحول »

Modern Biology & the theory of Evolution

« ص ٣٠٧ » . «هنالك لاتجد ثم نقيض بين العلم الطبيعي لأنه يرد كليها الى أصل واحد ـ هو الروح القدسية » وهو أثر من أثار غلبة العلم الطبيعي على الرجل ونوع غالب المسيحية على محاضرات المحاضرين، ووسع أكثر دروس الفلاسفة والمتدينين في نصف القرن الأخير .

ولأنت متبين أرثوذكسية وازمان في ماتقرأه من أقاويله هذه حيث يقول : « واني كعالم وفيلسوف أقول ـ ان نظرية التحول التي أعرفها أنا ـ قامت على

دعامات العقيدة المسيحية، تلك العقيدة التي أعتقد أنها العقيدة الوحيدة التي لايعرف الباطل اليها سبيلا : (في البدء خلق الله السموات والأرض) والمضحك أنه لم يدلنا كيف يمكن له ان يتصور « هذا الخلق من لاشيء» ولا ماذا يقصد بالله ـ والسموات . ولو أنه أصاخ الى نصحي لكان حقا عليه أن يقرأ (كتاب ترولسلند الجليل Troelslund) المعنون بهذا العنوان ـ فكرة السماء والعالم The Idea of Heaven & the World ولقد تصادف أن وازمان كان يلقي سلسلة محاضرات يسوعية في لوسرن Lucerne في نفس الوقت وفي عين الموضوع الذي كنت القي فيه محاضراتي في برلين . ولقد وضعت صحيفة لوسرن الكاثوليكية عنوانا لهذا فقالت « أنها سانحة نقد في العراك العقلي » . ـ يقول صاحبنا :

« وأرقى درجات التطور في الفلسفة الالهية ان الله خالق السموات والأرض القدير المتعال ـ وانه خلق الروح الخالدة وهي الدرجة الثانية من درجات الرقي التحوري ونحن لانصل الى هذه النتيجة من طريق الايمان فحسب ، بل من الطرائق العلمية البحتة . وأن نظام التحول المعقول هو ما كانت عليه مسحة الدين والايمان ذلك هو الناموس العلمي الحق أما الجحود فشيء لا يتسق أبدا لا مع العقل ولا مع العلم »

ولتعلم مقدار هذا الكلام من الصواب ، وقيمة التعاليم اليسوعية من الحق ، يجب أن تعرف أن الكنيسة « البروتستانتية والكاثوليكية » قد أشهرتا حربًا عوانا على نظرية التحول من ثلاثين سنة ، فبذلتا كل مافي وسعهما لهذا الغرض حتى في أبان ظهور مذهب داروين .

ولقد ظهر القساوسة ـ وكانوا في ذلك أكثر وضوحا من فلاسفتنا ـ ان مذهب داروين في التوالد هو مبعث نظرية التحول . وأن « تسلسل الانسان من غيره من ذوات الثدي هو منها. »

أما كارل اشريخ Karl Eschirich فيقول : « الى الآن نحن نتسحن وجوه أهل الاكليروس المعارضين فلا نرى الا سحنا تعلوها الكآبة والحقد، وكل

أنواع السخرية والاستهزاء ، حيال معارضيهم في معتقدهم وحيال نظرية التحول .

أما الآن وقد ظهر وازمان وقالت الصحف الكاثوليكية أن الكنيسة قبلت نظرية التحول، فانا لا نتمالك من الضحك . وقد كان لنظرية التحول حظ الظفر على كل ما عارضها . ولقد يخامرنا الاعتقاد أن هؤلاء ، ما كانوا من غير مشايعي هذه النظرية، ولم يتوثبوا لمحاربتها .

بل كيف يذهبون الى هذا القول وهل من ذي غفلة ، أو جهالة معرفة ، يقوم لمعارضة مذهب التحول وهو الذي يضع الحكمة والقوة المنسوبتين للخالق ، في مكانة النور والتصديق الحق، لا الايمان الأعمى ؟ ولأنت واجد غير هذا القول في كتاب نظرية التوالد. (عام ١٩٠٤) لمؤلفه الأب اليسوعي مارتين جاندر Martin Gander. حيث يقول :

« وعلى ذلك ليس يمكن أن تكون صور المادة المحدثة قد خلقها الله بطريقة مباشرة وانما هي أثار من أصول صورية أولى قد بثها الله في المادة التصورية الأولى، وهي من ذلك العهد تسير بالتتابع على ناموس يتفق مع ناموس الكرة الأرضية وتاريخها»

الست ترى في هذا التصريح مغايرة لمعتقد القسيسين ؟

وأنت تجد من أمثال هذه الاعاجيب في قانون اليسوعيين والبابويين الشيء الكثير وليس يقصر ذلك ما بين التحول واللاهوت مع الآراء والنظريات ولكنك تقع على غير هذه ، في مصنفات « وازمان » و « جندر » و « جوت برلت » وأترابهم .

أن مايتهدد معاهد العلم عندنا من خطر التعاليم اليسوعية، أمر قد وفى موضوعه في العهد الاخير الكونت فون هونسبروج في مقدمة كتابه « البابوية في مقدراتها العقلية والسياسية » The Papacy in its Social & Intellectual Activity عام ١٩٠١ حيث يقول : « ان أكبر خطأ ظهر في تاريخ العالم هو أن يمنح البابا ذلك النفوذ المقدس الذي يخلف المسيح فيه فيصبح من بعد ذلك مالكا لكل الأوامر الدينية ، مهيمنا على المعتقدات والأخلاق »

هذا الخطأ وهذه الاكاذيب ـ تعمل على نظام موحد والحق يناهض كل ذلك .

ولن تجد في الأرض قاطبة عنعنة أكاذيب منمقة كتلك التي تنوسها في العلم الكاثوليكي، وفي تاريخ الكنيسة ، والبابا . ولن تجد مهارة التحريف، وحذاقة التصريف ، مثل ما تجده في المذهب الكاثوليكي .

والحقائق التاريخية تنطق بافصح لسان ، بل والتاريخ يحدثنا بأن البابا كان سببا في كثير من حروب الارض —

ولعلك على زعم أن هذا حكم قاس على البابا وعلى اليسوعية — فأقول لك أن هذا مايقول به الكونت فون « هونسبروخ » الذي كان في خدمة المجمع اليسوعي أربعين سنة ، ولقد هيأت لي المصادفات فرصة حظيت فيها بتجربة ذلك : أن أحد مراسلي الصحف في برلين ـ بعث برقية الى لندن يقول فيها ان (هيكل) آمن بنظرية وازمان ، واعترف بخطأ مذهب داروين ، وأن مذهب التحول لا يقع على الانسان لتفوق عقليته . وشاع الخبر في أكثر الاقطار — فوصل أمريكا وغيرها من الممالك ، وأنهالت علي الرسائل من كل صوب وحدب ، يسألني فيها كتابها عن سبب هذا الانتقال ، ومبعث تلك المغايرة . فخامرني الشك بادي الأمر في صحة البرقية ، أو في تصحف الأمر على مرسلها . بيد أني علمت من بعد ذلك أن الرسالة حقة ، وأن مرسلها موعز اليه من متدين غيور ، ظن أنه يخدم دينه من طريق الكذب على الناس ، واذاعة مثل هذه الفرية في الخلق . فوضع القبول مكان الرفض ، ودس علي الخطأ في موضع الحق .

ان هذه الحادثة قد أثرت في نفسي كثيرا ـ وان غلبة الحق على الباطل ـ تلك التي خدمتها طوال حياتي ـ وما مر بي من التجاريب العملية في مدة الأربعين السنة الأخيرة ، كلها أثرت في عواطفي ـ فظهرت على محاضراتي أثارها . وزادت لهجة الصحف الدينية تطرفا ـ فكانت حملتها أشد وأصعب مما كانت عليه من قبل ـ أذكر من بين هذه الصحف . الريشسبوت اللوثرية Lutheran Reihsbote وجرمانية

991
F84

الكاثوليكية Catholic Germania

ولقد تخير منها الدكتور شميدت Dr Schmidt «في العدد — ٤ ص ١٤٤» من فري ووت Freie Wort

على أني قد بينت ذلك في فهرست الطبعة العامة (طبعة ألمانية) من كتاب أحجية العالم Riddle ofthe Universe

وكأي من قوة نفدت ، وعقل كد ، ونفس أعنتت من أولئك الاكليريكيين والمعارضين من أصحاب ما وراء المادة ، بذلت في تحويل أغراض مصنفاتي العلمية العامة عن مواضعها ،

وأني أختم كلامي بالقول بان كل ما كان ضدي من تلك الحملات العنيفة ، لم تزحزحني ، ولم أتحلحل عما كنت عليه . ولم تثلم هماهم الحق ـ الذي أخدمه .

ولئن كان لهؤلاء الاكليريكيين أن يزدادوا عتوا وعبثا ، ومحاربة لي فاشهروا عداءهم وشنوا غارتهم عليّ بكل ما فيهم من قوة وأيد ـ فاني مغتبط بذلك اذ أيقنت أن كل ما بذلته من نصيحة في سبيل نصرة الحق ـ ماضاع هباء ، ولا كان عبثا ، ومغتبط أيضا لأني أعلم أني وضعت لنفسي خطة لحياتي العملية وسرت عليها أمنا مطمئنا تلك الخطة هي . « أن لا تقدم للمعرفة الا بانتشار مذهب النشوء والارتقاء »

Universiteit Leiden
1 745 048 2
8207
C30

يطلب هذا الكتاب من :

مكتبة الضياء ومكتبة الهلال ومن المكتبة التجارية

باول شارع محمد على ومن مكتبة المنار بشارع عابدين ومن

مطبعة الشباب ومن المكاتب الشهيرة